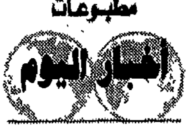
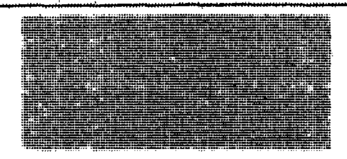
إحسان عبد القدوس

على مقهى في الشارع السياسي

مطبوعات

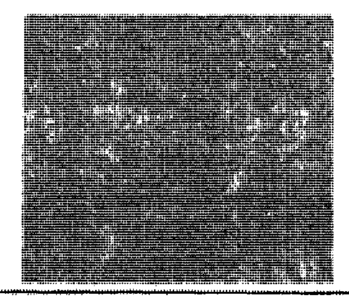


قطاع الثقافة



رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سعده





دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة
جمهورية مصر العربية
٦ ش الصحافة القاهرة
تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠

الغلاف بريشة الفنان :

عمــرو فهمــى

كلمة

في أوائل عام ١٩٧٦ طلب مني الصديق والزميل أنيس منصور أن أكتب لمجلة أكتوبر .. وترددت .. وعاد الصديق والزميل نجيب محفوظ يلح على أيضا أن أكتب لمجلة أكتوبر .. واستمر ترددي ..

وكان التردد .. لأني كنت أمر بظروف سياسية أحاطت بي . وأبعدتني عن أصدقائي السياسيين .. وهي نفس الظروف التي أحاطت بي في أوائل أعوام الثورة ـ عام ١٩٥٤ ـ وإيامها وضعني أصدقائي السياسيون في السجن الحربي . ولكن في هذه المرة اكتفى أصدقائي بإبعادي عنهم أو الابتعاد عني !

فما هي حدود النشر التي يمكن أن تتاح لي وأنا أعيش هذه الظروف ؟

إني عندما أكتب فإني لا أستطيع أن أتقيد بحدود . وكل المصائب التي عانيتها وتحملتها وقعت فوق رأسي . لأن هذا القلم لا يستطيع أن يقيد نفسه بحدود تفرض عليه !. إنه كالطفل المدلل الذي يصر على أن يفرض إرادته على الكبار . لأنه لا يراهم كبارا !. أو كالشاب المغرور الذي يحجب عنه غروره دقائق علم توازن القوى السياسية . فينطلق دون أن يقدر بعلم الحساب أن انطلاقه يحتسب في موازين القوى السياسية على أنه تحد ! . أو ربما لأنه قلم يعيش لمجرد المتعة الكبرى.. متعة الحرية .. فإذا حرم نشر حريته أمام الناس اكتفى بأن يتمتع بها بينه وبين نفسه أي أن يكتب ويحتفظ بما يكتبه في أدراجه !

وكنت أيامها أكتب ولا أنشر .. فإني لا أستطيع أن أتوقف عن

الكتابة حتى لو حرمت النشر !.. ولم يكن أحد قد حرمنى . ولكنى كنت قد حرمت نفسى تحت ضغط الظروف التى أمر بها حرصا على ألا أحرج أى رئيس تحرير مسئول عن النشر إذا وجد فيما أقدمه إحراجا له ! . وأنا لا أريد أن أحرج (أنيس منصور) المسئول عن النشر فى مجلة أكتوبر كما لم أكن أريد إحراج الصديق والزميل المرحوم يوسف السباعى الذى كان مسئولا عن النشر فى الأهرام وكنت منسوبا إليه .. لذلك امتنعت عن النشر فى أكتوبر وفى الأهرام ..

ومضت شهور طويلة ..

وإذا كان الأصدقاء يلحون على كى أنشر فقد كنت ألح على نفسى أيضا .. إن الاحتفاظ بما أكتبه فى أدراج مكتبى نوع من الحب الأفلاطونى .. والحب الأفلاطونى نوع من التجرد من آدميتك والارتفاع بنفسك إلى السماء . أن تحكم على نفسك بالحرمان ! . ومع احترامى وتقديرى لروميو وقيس وبقية أبطال الحب الأفلاطونى فإنى أشفق على نفسى من مصيرهم .. أما أن يكتب القلم وينشر فهذا هو الحب المتكامل وإكمال نصف الدين !.

وأنا فى حاجة إلى استكمال حبى ودينى ..

وقد تعودت كلما أحاطت بى مثل هذه الظروف السياسية التى كنت أعيشها أن أهرب من الكتابة السياسية المباشرة إلى كتابة القصة ، فالقصة ترتفع بك فوق التقيد بالواقع والارتباط بالأحداث وحساب الأشخاص .. القصة تطلق حريتك كاملة فى التصور والتقدير وفى الرسم الخيالى حتى لو رسمت بخيالك التاريخ نفسه، وفى الوقت نفسه تطلق حريتك حتى آخرها فى إبداء رأيك حتى لو كان رأيا سياسيا أو حتى لو كان رأيا تعنى به أحد الأشخاص ، وهو رأى يبقى دائما منسوبا إلى أبطال القصة لا إلى الكاتب ، وهو ما انتهى إلى انتشار ما يسمى بالقصة الرمزية ..

كنت أهرب إلى كتابة القصة لأنى أمتع نفسى فيها بحريات أوسع .. وبرغم أن قصصى عرضتنى لحملات كثيرة فإنها كانت دائما أرحم بى مما تعرضت له بسبب مقالاتى السياسية أو حملاتى الصحفية المباشرة .

وكنت فى هذه الشهور قد انتهيت فعلاً من كتابة مجموعة كبيرة من القصص فهل أنشرها فى مجلة أكتوبر ؟ لا أظن .. فإنى فى حاجة إلى هذه القصص لأنشرها فى الأهرام لأني أعلم أن أقصى ما يمكن أن يتحمله الأهرام منى هو نشر القصص ، ولن أستطيع فى الأهرام مع تحفظه السياسى المعروف أن أطلق حريتى فى نشر المقال السياسى مادمت لم أعد أنا المسئول عن النشر .. ثم إن الزميل (نجيب محفوظ) تعهد وأعلن عن نشر قصة مسلسلة فى مجلة أكتوبر فهى ليست فى حاجة إلى قصص أخرى .

فماذا أكتب وأنشر وأنا فرح ومستسلم لإلحاح (أنيس منصور) وإلحاح (نجيب محفوظ) وإلحاحى على نفسى ؟.

وهدانى فكرى وخيالى إلى مقهى فى الشارع السياسى ..

وكنت أنا الذى وضعت تعبير « الشارع السياسى » منذ كنت أكتب وأنشر فى أخبار اليوم .. فلماذا لا أقيم مقهى فى هذا الشارع .. وأختار له (الزبائن) .. وأتركهم يتكلمون فى السياسة .. كلام مقاه !. كلام شوارع !. منتهى الحرية ..

لماذا أتردد ؟

ولينشر (أنيس منصور) فإذا لم ينشر فتكفينى متعتى بالحب الأفلاطونى ..

ولكن ما هذا الذى أكتبه ؟

هل هو قصة ..

هل هو مسرحية ..؟

هل هو مقال .؟

هل هو خبث سياسى يطلق الرأى على ألسنة شخصيات مجهولة بدل أن يطلقه فى منشورات سرية ؟

لا أدرى .؟

كل ما أدريه هو أنى أكتب كلاما .. أو ما يسمى فى علم الأدب .. حوارا ..

وقبل أن يقرأ (أنيس منصور) أول ورقة كتبتها قلت له : إنه هو المسئول عن النشر .. ولن أغضب إذا لم ينشر .. ولكنى لن أرى وجهه

مرة أخرى إذا بدل أو حذف كلمة واحـدة مما أكتبه .. ولن أقبل فى ذلك عذرا ..!

قلت له ذلك وأنا أشـفق عليـه من مسـئولـية نشـر هذا الكلام الذى أكتبه .

وابتـسم (أنيس منـصور) ابـتـسـامته الـذكية وهـو يطمـئننى ويتعجلنى ..

وبدأ النشر ..

كل ما أكتبه ينشر فى أكتوبر ..

لم تبدل أو تحذف كلمة واحدة ولم يراجعنى أحد فى سطر واحد ..

أنا نفسى دهشت ..

كنت أكتب وأنا لا أصدق أن كل هذا يمكن أن ينشر ..

إنها فعلا الحرية ..

حرية الرأى ونشر الرأى ..

وإن كان البـعض يعتبرها حـرية مقصورة على أنا وحـدى .. فربما لأنى لا أمثل أى قوة إلا قـوة لهثات قلمى .. وهذا غيـر صحيح .. لست وحدى .. وإن اختلفت النسب أقصد نسـبة إطلاق الحريات .. واختلاف النسب يرجع إلى اختلاف قيمة الشخصية السياسية لرؤساء التحرير .

وحتى أقـول كل شىء فإنى لا أسـتطيع أن أنسى أن إصدار مـجلة أكتوبر هى فكرة الـرئيس أنور السادات وأنى أعلم أنه يتابعهـا باهتمام كبير .. ولهذا فلا شك أنه يؤيد هذه الحرية .. حرية النشر ..

وهى حرية واسعـة إذا قيست بما كنا عليه .. وإذا قـيست بالحريات التى تمنح للأقلام فى كل البلاد العربية بلا استثناء ..

حـرية أبقاها الله لى .. وأراحنى من خـوفى عليـها .. خـوفى من أن تضيع منى وأن أضيع معها !

وقـد صادفـت أيضا إلحـاحـا بأن أجـمع جلسـات مقـهى الشـارع السياسى فى كتاب .. وقـد تعودت ألا أنشر فى كتب إلا القصص . لأن القصـة تعيش دائما وتنتقل مـن جيل من القراء إلى جيل دون أن تفـقد قيمتها ومـتعة قراءتها . أما المقالات والحملات السيـاسية التى نشرتها فقـد رفضت دائما أن أجـمعهـا فى كتب برغم إلحـاح الناشرين . لأنى

أعتقد أنهـا حملات متعلقة بالأحداث .. والأحداث تتطور وتتـغير بحيث تفقد الحملة أو المقـال أهميتها كمادة للقـراءة إلا إذا قرئت ضمن عرض تاريخى كامل للأيام الـتى كتبت فيـها . وهو ما يفـقد كثـيرا من الكتب التى صدرت مقـصورة على جمع المقالات التى سبق نشـرها .. يفقدها أهميتها واهتمام القارئ بها ..

وجلسات المـقهى السيـاسى ليست قـصصـا . ولكنها أيضـا ليست حمـلات صـحفـية ولا مجرد مـقالات سيـاسية .. ولكنهـا آراء أبعد من الأحداث . أى ليست مـتعلقة بالحدث نفـسه . ولكنها متعـلقة بالمبادئ العامة التى أومن بها وبالمنطق الذى أفسر به هذه المبادئ. فهى تصلح كتسـجيل لرأى يعبر عن بعض فكـر هذا الجيل . الذى عشنا فيـه نعبر عنه .

وحتى أكـون أكثر حرصـا على إتاحة مناقشة مـا سردته من آراء . وحتى أسهل مجال أى دراسـة أو بحث ـ فقد طلبت أن تسـجل جلسات المقهى السياسى بتاريخ الشهر والعام الذى تمت فيه ..

لعلى لم أسـتسلم لشهـوة النشر .. وكنت على حـق فى إصدار هذا الكتاب .!

إحسان عبدالقدوس

أكتوبر ١٩٧٦

جلس الشاب ووجه ينضح بالبشر وقال من خلال ابتسامته :

- أنا متفائل !

وأجاب العجوز فورا بعد أن رفع شفتيه عن مقبض الشيشة .

- وأنا متشائم !

وقال الشاب في دهشة :

- عجيبة .. متشائم لماذا ؟

وقال العجوز وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة :

- لأنك متفائل .

وقال الشاب وهو أشد دهشة :

- لا أفهمك !

وقال العجوز :

- لكي تفهمني يجب أن تعرف أني أومن بالتوازن .. وفي كل تصرفاتي وآرائي أحاول أن أحقق التوازن .. فإذا قامت موجة من التفاؤل حاولت أن أواجهها بموجة من التشاؤم ، وبالعكس : لو أنك قلت لي ـ إنك متشائم ـ لقلت لك : إني متفائل !.

وقال الشاب ساخرا :

- هذا منبر جديد نسميه منبر التوازن ؟

وقال العجوز في هدوء :

لا . ليس منبرا جديدا . إنه نفس منبر الوسط .. ما هو الوسط ؟. إنه الوسط بين كل شيء وضده .. الوسط بين الرجعية والتقدمية ..

والوسط بين الاشتراكية والرأسمالية .. والوسط بين الديموقراطية والديكتاتورية .. والوسط بين العباءة والمايوه .! والوسط بين إباحة الخمر وتحريم الخمر .. والوسط بين إباحة الزواج من أربع وقصر الزواج على واحدة .. و .. و .. إن الوسط ليس عقيدة ولا مذهبا ولا مبدأ . ولكنه موقف تنفيذى لتحقيق التوازن .. والوسط ليس دائما هو أن تمسك العصا من وسطها كما يقولون .. فقد يضطر الوسط لتحقيق التوازن أن ينضم لأحد أطراف العصا .. فإذا طغى اليمين وتجبر انضم الوسط إلى اليسار فى معركة مع اليمين . وإذا طغى اليسار وتجبر انضم الوسط إلى اليمين فى معركة مع اليسار .. وباختصار : الوسط هو تحقيق التوازن ..

وقال الشاب :

– إنك تنكر على الوسط كل قوته كأنه مجرد أداة تنفيذية ..

وقال العجوز فى تأكيد :

– بالعكس .. الوسط دائما وفى كل بلاد العالم هو أقوى التنظيمات وأقربها إلى الحكم ، فإن الحكم القوى فى بلد حر هو الحكم الذى يستطيع تحقيق التوازن بين كل المذاهب والطبقات ..

وقال الشاب :

– على كل حال لقد خرجنا من الموضوع .. قلت لك : إنى متفائل ، وقلت لى : إنك متشائم ..

وقال العجوز :

– إنى لا أومن لا بالتفاؤل ولا بالتشاؤم .. إنه نوع من الهرب إلى الغيبيات .. والعالم العربى كله ضاع بسبب تعلقه بالغيبيات !. إنه يكتفى بالتوكل على الله هربا من المعاناة ومن التأخر الحضارى . ويكتفى بالطمع فى الجنة هربا من الطموح الدنيوى !. إنه يتعلق بالغيبيات هربا من تحمل مسئولية الواقع !.

وقال الشاب غاضبا :

– ولكن تفاؤلى ليس نتيجة أوهام ولا غيبيات إنه نتيجة أحداث ..

وقال العجوز ساخرا :

– أى أحداث ؟

وقال الشاب فى حدة :

– لقد عـاد الوفاق بيـن مصر وسـوريا فتـوقف القتـال فى لبنان . وأنقذنا مصير الشعب الفلسطينى .
وقال العجوز :
– أى أنك تؤمن بأن توقف القتال فى لبنان كان نتيجة عودة الوفاق بين مصر وسوريا ..
وقال الشاب :
– هذا ما حدث ..
وقال العجوز :
– وهل ما حدث يكفى .؟
وقال الشاب :
– أعتقد ..
وقال العجوز كأنه يهم بأن يلقى محاضرة :
– لنستسلم لاعتقادك حتى لو لم أوافقك عليه ، ولكنك قبل أن تغرق فى التفاؤل يجب أن تقدر أن الرئيس الأسد لا يمثل نفسه ، ولكنه يمثل حزب البـعث السورى ، والاتفاق تم مع الرئيس الأسـد لا مع الحزب .. ثم يجب أن نتـذكر أنه سـبق أن حدث اتـفاق بين الرئيـسين السـادات والأسد بعـد اجتمـاع دام بينهمـا ست ساعات فى الـرياض أيضا ، ثم ضـاع كل ما تم الاتفاق عليه نتيجة الضغط الحزبى !
وقال الشاب :
– لهذا أنت متشائم .؟
وقال العجوز :
– أنا لست مـتشائـما إلا ردا على تفـاؤلك ، ولكنى فى الواقع لست متشائما ولا متفـائلا .. بل أتتبع الأحداث فى حذر وأضع كل احتمالات المستقبل فى مستوى واحد مع تمنياتى أن يتحقق الأفضل ..
وقال الشاب :
– وماذا تعمل إلى أن يتحقق الأفضل .؟
وقال العجوز مبتسما :
– كل ما أريد أن أعمله الآن هـو مناداة (الجرسون) لتغيـير دخان الشيشة ..
وقال الشاب ساخرا :

– هكذا أنتم !. جيل لا يجيد إلا الكلام !. ولكن نحن .. نحن الجيل الجيديد لن نكتفى بالكلام ..

وقال العجوز :

– تستطيع بدل أن تتكلم أن تقرأ .. ومصيبتكم أنكم لا تتكلمون ولا تقرءون .. ولكنكم تكتفون بالتفاؤل والتشاؤم وكأنكم تتلقون أوامر : أمرا بالتفاؤل أو أمرا بالتشاؤم ..

وقال الشاب فى حدة :

– لم أعد أطيق هذا الكلام « سلامو عليكم » .

وقال العجوز الساخر :

– مع السلامة .. ولا تنس وأنت فى طريقك أن ترسل لى (الجرسون) لتغيير دخان الشيشة !.

نوفمبر ١٩٧٦

١

قال الشاب وهو يزفر أنفاسه في زهق :

- نريد أن ننتهي إلى تعريف محدد حتى نستريح.. ما هو اليسار ؟

قال العجوز في برود :

- إنه الحرمان .

وقال الشاب :

- ماذا تقصد ؟

وقال العجوز في هدوء :

- إن اليسار هو يسار الواقع : أي أنك ترفض الواقع وتقف على يساره .. وحتى ترفض الواقع يجب أن تكون محروما منه فإذا لم تكن محروما منه، فليس هناك سبب لرفضه .

وقال الشاب في تحد .

- كثيرون من اليساريين ليسوا محرومين من شيء .

وقال العجوز الهادئ :

- لا يمكن .

وقال الشاب :

- يا أخي . كلنا يعرف أن بين اليساريين أفرادا أغنياء من أصحاب رءوس الأموال . ومنهم من يتولى مراكز ممتازة فكيف يكونون محرومين ؟ .

وقال العجوز :

- إن الحرمان في مجتمعنا يقوم على المقارنة : فالذي يسير على

قدميه يقارن نفسه بصاحب الدراجة . وصاحب الدراجة يقارن نفسه بصاحب السيارة . وصاحب السيارة يقارن بصاحب الطيارة .. إن فى مجتمعنا الآن أفرادا يملكون طائرات خاصة .. وكذلك فى الوظائف .. كل درجة تقارن نفسها بالدرجة العليا حتى تصل إلى درجة وزير ورئيس وزراء ورئيس جمهورية .. ثم فى الحرية .. الحرية الفكرية والحرية التنفيذية .. إن الحرية الكاملة هى حرية من يحكم . وكل من لا يحكم محروم من نصيب فى الحرية .

وقال الشاب فى حيرة :

– كأنك تقول : إن كل الناس يسار .

وقال العجوز :

– كل الناس لا يرضون عن الواقع فهم محرومون .. باستثناء الحاكم.

وقال الشاب :

– ولكن هناك أيضا يمين !

وقال العجوز :

– اليمين واليسار كلاهما لا يعترف بالواقع وكلاهما ينطلق من الحرمان.

وقال الشاب الحائر :

– أى لا فرق بينهما ؟

وقال العجوز :

– لا ، وبينهما فارق كبير .

وتساءل الشاب :

– ما هو ؟

وقال العجوز ساخرا :

– اليمين يعيش على الذكريات .

وقال الشاب :

– واليسار ؟

وقال العجوز وهو أشد سخرية :

– إن اليسار يعيش على التصورات .

وقال الشاب الحائر :

– لا أفهمك !

وقال العجوز :

– الذى يسمونه « يمين » هو الفكر الذى يعتمد صاحبه على ذكريات

شخصية مر بها : كأن يكون صاحب قيمة سابقة في عهد من العهود التى مرت : فالناصريون يمينيون ؛ لأنهم يعيشون على ذكرياتهم الخاصة أيام جمال عبد الناصر ! والوفديون يمينيون ؛ لأنهم يعيشون على ذكرياتهم الخاصة أيام حزب الوفد، وربما لا تكون الذكريات ذكريات خاصة، ولكنها ذكريات مستمدة من التاريخ القديم : فالإخوان المسلمون مثلا يعيشون على ذكريات أمجاد الخلفاء الراشدين، وتتوقف ذكرياتهم عند عهد معاوية بن أبى سفيان .. ولهذا فإن اليمين مجرد ذكريات .

وقال الشاب وهو أشد حيرة :

– واليسار ؟ .. ماذا تعنى بأن اليسار مجرد تصورات ؟

وقال العجوز :

– لأنه ليس لليساريين مصالح قديمة، ليس لهم ذكريات وليس لهم نصيب من الواقع، ولذلك فهم يتصورون مستقبلا خاصا بهم .. ليس حتما أن يكون مستقبلا قائما على نظريات ماركس ؛ إنما المهم أن يكون مستقبلا قائما على الاستيلاء على الواقع حتى لو كان مجرد تصور .

وقال الشاب :

– وكيف يصلون إلى أهدافهم .. سواء اليمين أو اليسار ؟

وقال العجوز :

– بطرق ووسائل وأساليب متعددة .. منها : الثورة : أى أن تقوم ثورة يمينية أو يسارية .. وأسهل الثورات هى الانقلابات العسكرية أو المؤامرات التحتية .. وما دامت ليست هناك قضية وطنية هامة فغالبا ما تفشل أية محاولة ثورية .. والطريق الآخر هو طريق التظاهر بالاعتراف بالواقع، الاعتراف بالنظام القائم والاعتراف بالدستور، ثم التسلل إلى داخل هذا النظام حتى مع الاحتفاظ بالشخصية الحزبية : كأن يتسللوا إلى مقاعد المجالس النيابية وإلى مراكز الإعلام وإلى القيادات الإنتاجية ..و..و.. وبعد مدة قد تطول إلى سنوات تصبح لهم السيطرة على هذا النظام بحيث يسهل عليهم قلبه إلى أى نظام آخر بمجرد إصدار قانون.. وهذا هو ما يسمى نظرية « الفابيان » وتقوم على تصور الانقلابات الشرعية .

وقال الشاب مبهورا كأنه اكتشف شيئا :

– لا شك أن نظرية الفابيان أحسن نظام للدولة لأنها تضمن شرعية الحرية .

وقال العجوز :

– إنهـا أخطر نظام ! . وقـد جـاء وقت كنـا كلنا نؤمن فـيـه بكلام الفابيـان .. إلى أن وضع هذا الكلام موضع التجـربة فى بريطانيا وفى إيطاليا .. وانظر ما وصلت إليـه بريطانيا : لقد فقدت كل امبـراطوريتها وانهار اقتصـادها وانهارت حتى تقاليدها وأخـلاقها !. إن حق الانقلاب الشرعى أصـبح فوضـى سيـاسية شـرعية وضـاعت شخصـية الحكم البـريطانى، وهو نفس ما يحـدث فى إيطاليـا وما ينتظر أن يحـدث فى أسبـانيا .. و.. و.. إن الحكم يجب أن تكون له شـخصـية محددة قـائمة بذاتها .. إن سبب بقاء الاتحاد السوفيـتى أن الحكم له شخصية محددة برغم ضعف مستوى الحكام .. وكـذلك الولايات المتحدة، فبرغم تنافس الحـزبين الجمـهورى والديمـقراطى فـإن الحكم نفسـه له شـخـصيـة لا تتغير وهى الشخصية الرأسمالية .

وقال الشاب :

– أنت لا يعجبك العجب !

وقال العجوز ساخرا من نفسه :

– كأى متفرج .

وقال الشاب :

– وبماذا تتنبأ ؟

وقال العجوز :

إنى أنتظر وحدة المحرومين .. واليمين واليسار .. يجمعهما الحرمان السياسى .

وقال الشاب :

نسيت أن أسـألك : من أقوى .. اليمين أم اليسار ؟

وقال العجوز فى استسلام :

– اليمين .

وقال الشاب فى دهشة .

– لماذا ؟

وقال العجوز :

– لأن الذكريات أكثر تأثيرا من التصورات .

وتساءل الشاب :

– والوسط ؟

وقال العجوز الساخر :
- تقصد الحزب الحاكم .
وقال الشاب فى إلحاح :
- مادمت تحدثت عن اليمين واليسار فتحدث عن الوسط .
وقال العجوز :
- إنى فى حاجة أولا لفنجان قهوة .. أتعبتنى ووجعت دماغى .
وقال الشاب فى غضب :
- إنك تتهرب .
وقال العجوز :
- ربما .. ولكن انتظر حتى أشرب القهوة !

٢

قال الشاب فى حدة وهو يخبط بقبضته على مائدة المقهى :
- كل هذا ولم يتوقف القتال فى لبنان .. إنه اعتراف بالغباء العربى الذى لا يستطيع أن يكشف العقدة .. عقدة لبنان .. قلنا إنه قتال بين المسلمين والمسيحيين فجمعنا بينهم فى أكثر من اتفاق .. وقلنا : إنه قتال بين اللبنانيين والفلسطينيين فسعينا حتى وصلوا إلى أكثر من مائة اتفاق.. وبرغم ذلك لم يتوقف القتال .. ما هو السر ؟ .. وما هى العقدة ؟
وقال العجوز وبين شفتيه ابتسامة مرة ساخرة :
- السر أن لبنان له لغة خاصة لا يتكلمها ولا يفهمها أى شعب آخر من الشعوب العربية ! إن التكوين الاجتماعى للبنان يخالف التكوين الاجتماعى فى أى بلد عربى ؛ وهذا ما يجعل له شخصية مجهولة .. حتى سوريا التى تعتبر لبنان قطعة منها لا تفهم لبنان ولا تتكلم معه لغة واحدة .. وصدقنى أن الرئيس الأسد عندما يجتمع هو وأى شخصية لبنانية ويصل معها إلى أى اتفاق لا يطمئن إلى ما يمكن أن يحدث بعد التوقيع بلحظات، لأن اللغة ليست مشتركة !
وقال الشاب الثائر :
- هذه فلسفة الهرب .. كلنا نواجه الفشل بالهرب .
وقال العجوز :
- هذه فلسفة الواقع .. ولا تنس أنه لم يظهر أى حل من داخل لبنان نفسه .. كل الكلام الذى ينطلق من داخل لبنان لا ينتهى إلى حل ؛ وإنما

الحلول التى عرضت كانت كلها من خارج لبنان، وكانت كل الأطراف توافق عليها وكل الأطراف ترفضها .. لأن اللبنانيين يفهم بعضهم لغة بعض ويحرمون غيرهم فهمها حتى الفلسطينيين الذين يعيشون معهم! إن (كمال جنبلاط) مثلا يفهم لغة كميل شمعون، وكميل شمعون يفهم لغة كمال جنبلاط، ولكن (ياسر عرفات) لا يفهم لغة هذا ولا ذلك ! . ولذلك لا يمكن الوصول إلى حل !

وقال الشاب وهو يحاول أن يفهم :

– أى أن الوضع الوحيد فى رأيك هو أن نترك لبنان يتكلم لغته ؛ حتى لو لم نفهمها وحتى لو انتهى إلى مصيبة تقع على رأسنا كلنا !

وقال العجوز :

– لا ، ورأيى هو أن تتكلم معهم باللغة العالمية .

وتساءل الشاب :

– أى لغة هذه ؟

وقال العجوز :

– لغة التمويل .. (الفلوس) .. إن كل ما أعلن حتى اليوم عن ميزانية الحرب فى لبنان هو الميزانية التى تتحملها سوريا .. مليون وربع مليون دولار يوميا تكاليف تحرك سوريا داخل لبنان ! . ولكن ماهى ميزانية قوات الكتائب وقوات شمعون وقوات فرنجية والقوات الوطنية والقوات الفلسطينية ! . فإذا عرفنا قيمة هذه الميزانيات .. يجب أن نسأل : من أين تمول هذه القوات ؟

لا يمكن أن يكون التمويل داخليا .! لا يمكن شمعون أو فرنجية أو جنبلاط أو ياسر عرفات أو غيرهم يدفع من جيبه مليون دولار يوميا .! قطعا هناك تمويل خارجي ! . قد يكون تمويلا عربيا أو تمويلا أمريكيا أو تمويلا سوفيتيا .. ولا تقل إسرائيليا لأن إسرائيل لا يمكن أن تمول مثل هذه العمليات إلا من خزانة دولة أخرى .

وقال الشاب فى دهشة :

– وهل يمكن أن يعترف أحد بالجهة التى تموله ؟

وقال العجوز :

– هذا يمكن فى الحروب النظيفة .. إن مصر أعلنت عن جميع الدول التى اشتركت فى تمويل حرب أكتوبر .. ولكن سوريا لم تعترف بمن يشترك فى تمويل تحركاتها داخل لبنان !

وقال الشاب :
– وحرب لبنان ليست نظيفة : .. أى أننا لن نعرف .
وقال العجوز :
– لا . إننا نعرف ولكننا لا نتصارح .. وقد نجح مؤتمر القمة السداسى الذى عقد فى الرياض ؛ لأنه اعتمد على المصارحة بين الدول الممولة والدول المحاربة .
وقال الشاب :
– ولكن الحرب لم تتوقف !
وقال العجوز :
– لأن الدول التى تمول باقى أطراف القتال لم تتصارح بعد .!
وقال الشاب :
– ربما كانت قوة الردع العربية التى دخلت لبنان تحل المشكلة .
وقال العجوز :
– لن تحلها .
وتساءل الشاب فى دهشة :
– لماذا ؟
وقال العجوز :
– لأنها قوة من خارج لبنان، وليست هناك دولة تعترف من خارجها حتى لو كانت لبنان .. ثم إنها تغير الوضع منذ دخلت القوات السورية .
وقال الشاب :
– إذن .. ما جدوى هذه الاجتماعات ؟
وقال العجوز :
– جدواها .. استعادة القوة العربية خارج لبنان .. لقد كفت سوريا عن التشهير باتفاقية سيناء، واقتنعت مصر بالتدخل السورى فى لبنان.. وساد الوفاق !. لم تكن مشكلة لبنان بل كانت مشكلة مصر وسوريا.
وقال الشاب :
– وسمعت أن هناك احتمالا بأن يعود الوفاق أيضا مع ليبيا .
وقال العجوز ساخرا :
– إنه نفس احتمال عودة الوفاق مع الاتحاد السوفيتى .
وقال الشاب :
– تقصد أن الوفاق لا يتم مع ليبيا إلا بالوفاق مع الاتحاد السوفيتى؟

وقال العجوز الساخر :

- أو العكس .

وقال الشاب :

- نعود إلى مشكلة لبنان .

وقال العجوز :

- لن تحل إلا على أساس أنها مشكلة داخلية كما حلت مشكلة الأردن مع القوات الفلسطينية .. وقبل هذا لا حل .

وقال الشاب ساخطا :

- إنك تتكلم بلا منطق !

وقال العجوز ساخرا :

- هذه هى طبيعة كلام المقاهى .!

٣

قال الشاب وفى عينيه نظرة مسكينة :

- إنى تائه . ! أحس كان هناك مالا أفهمه فى موضوع الأحزاب .. وكلما تماديت فى الفهم صدمتنى صخرة تعيدنى إلى حالة من الغباء .!

وقال العجوز وهو ينظر إليه مشفقا :

- كى يكون فهمك كاملا يجب أن تبدأ بالتساؤل : كيف تحكم مصر؟

وقال الشاب فى قرف :

- ما دخل هذا التساؤل الذى تكرره دائما الآن؟.. إنى أسألك عن الأحزاب.

وقال العجوز فى هدوء :

- إن الأحزب خطوط فى نظام الحكم .. والذى يحيرك ويحير غيرك أنك تقيس الأحزاب الآن بالأحزاب التى كانت قائمة قبل الثورة . دون أن تفرق بين اختلاف نظام الحكم قبل وبعد الثورة .. أو تقيسها بنظام الاحزاب فى بريطانيا أو أمريكا دون أن تفرق أيضا بين نظم الحكم .

وقال الشاب فى حدة :

- لا تشدنى كعادتك إلى هذه المتاهات !. لقد اتفقنا على أننا الآن نعيش نظام الشرعية الدستورية .

وقال العجوز فى هدوء :

- من الذى أعلن الشرعية الدستورية .

وقال الشاب :

- أنور السادات .
وقال العجوز :
- بأي حق ؟
وقال الشاب بحماس :
- بحق أنه الزعيم .
وقال العجوز فى هدوء :
- زعيم ماذا ؟
وقال الشاب :
- زعيم استمرار ثورة ٢٣ يوليو .
وقال العجوز :
- ومن الذى يحمى استمرار الشرعية الدستورية ؟
وقال الشاب :
- صاحب القرار .
وقال العجوز مبتسما :
- أى الزعيم الذى يحمل مسئولية ثورة ٢٣ يوليو .
وقال الشاب المتحمس :
- فعلا .
وقال العجوز الهادىء :
- أى أن الحكم فى مصر هو حكم استمرار ثورة ٢٣ يوليو .. وبقوة هذه الثورة . وهى القوة التى يمثلها رئيس الدولة .. صدر قرار المنابر .. ثم صدر قرار تشكيل هذه المنابر .. ثم قرار اختيار رؤساء كل منبر من هذه المنابر .. ثم أخيرا قرار الاعتراف بهذه المنابر كأحزاب .. أى كلها قرارات تصدر بقوة الثورة .
وقال الشاب فى حيرة :
- ماذا تريد أن تقول .. كأنك تعنى أن لا شىء تغير ؟
وقال العجوز :
- بالعكس .. إننا نتغير فى سبيل مستقبل أفضل .. ولكن ما يتغير هو أسلوب الحكم وليس أصول الحكم .
وقال الشاب الحائر :
- والأحزاب لن تغير فى أصول الحكم ؟
وقال العجوز :

– لا وخذ مثلا .. يوغوسلافيا أو رومانيا أو غيرهما من الدول الاشتراكية : إن النظام فيها يقوم على تعدد الأحزاب .. حزب الأغلبية الذى يمثل الثورة وهو الحزب الذى يحكم ما دامت الثورة مستمرة .. والأحزاب الأخرى التى تخالف مبادىء الثورة لن تحكم أبدا ؛ ولأنه لن يكون من بينها أبدا حزب يمثل الأغلبية .

وقال الشاب وهو يفتح عينيه كأنه أفاق :

– أى أن حزب الوسط هو الذى سيتولى الوزارة طوال عمر مصر ؟

وقال العجوز المبتسم :

– ما دامت ثورة ٢٣ يوليو مستمرة أى إذا لم تقم ثورة تلغى ثورة ٢٣ يوليو .

وقال الشاب وقد أفاق :

– وتبقى وزارة ممدوح سالم إلى الأبد ؟

وقال العجوز ساخرا :

– أرجو .. ولكن إذا تغير ممدوح سالم فإن من يأتى بعده سيمثل الوسط أيضا، ولا تنس أن الوسط هو حزب الأغلبية دائما .. والأغلبية هى الثورة .

وقال الشاب :

– حيرتنى أكثر !

وقال العجوز :

– دعك من الحيرة .. وقل لى : أى حزب اخترت الانضمام إليه ؟

وقال الشاب فى قرف :

– ولا واحد .

وتساءل العجوز فى دهشة :

– لماذا ؟

وقال الشاب القرفان :

– لأنى لا أحس بعد بأحدها ككيان شعبى ! .. بل إننا لا نعرف أسماءها ولا نرددها كأسماء أحزاب ، كما كنا نردد اسم حزب الوفد والحزب الوطنى . ولكننا نردد كلمات الوسط واليمين واليسار .. تماما كالوزراء : لا نعرف أسماءهم ولكننا نعرف صفاتهم .. ثم إنى أومن بأن الحزب يعتمد على قيادته .. وأنا لا أؤمن إلا بقيادة أنور السادات شخصيا .. وأنور السادات لم ينضم لحزب من الأحزاب .. وأنا مع أنور السادات !

وقال العجوز :

– المفروض أن رئيس الدولة مسئول عن النظام السياسى كله .. ولا شك أن حزب الأغلبية هو الذى يمثل رئيس الدولة .. ولا تنس أن السيدة جيهان السادات انضمت لحزب الوسط .. أقصد حزب مصر العربى الاشتراكى .

وقال الشاب فى سخط :

– هذا لا يكفينى .. الحزب يعنى زعيما وشعبا .. وأنا اخترت السادات زعيما .. فإذا أصبح زعيمى رئيسا لحزب انضممت إليه .. إن تيتورئيس دولة ورئيس حزب .

وقال العجوز :

– لا تخلط بين النظم ! . إن ثورة تيتو قام بها حزب . ولكن ثورة ٢٣ يوليو لم يقم بها حزب . ولهذا فالرئيس يحتفظ بشخصية الثورةحتى يحتفظ بقوة استمرارها .

وقال الشاب :

– لا تحيرنى أكثر ! . إن رئيس الدولة فى مصر ليس مجرد رمز للثورة . إنه رئيس يحكم ويتحمل مسئولية الحكم ؛ ولا يمكن أن يحكم الرئيس من خلال اليمين واليسار والوسط .

وقال العجوز مبتسما ابتسامة ساخرة :

– إنه يحكم من خلال تحالف قوى الشعب العامل .. وهو تحالف اليمين واليسار والوسط .

وقال الشاب وهو يزفر أنفاسه فى زهق وسخط :

– تكاد تصيبنى بالجنون ! . اطلب لى فنجان قهوة .

وقال الشيخ مبتسما :

– تعودت أن أطلب لك كوبا من عصير البرتقال .. القهوة مخصصة للعجائز أمثالى .

صرخ الشاب :

– إن شبابنا أصبحوا فى حاجة إلى القهوة أكثر منكم .. وأحمد الله أننا نكتفى بالقهوة .. أما أنتم .. أنتم .. !

« السلامو عليكو »

٤

قال الشاب وهو يبتسم ساخرا :

– لقد عادوا يتحدثون عن حرية الصحافة كأنهم يتحدثون عن محاولة الوصول إلى القمر !

وقال العجوز فى مرارة :

– كل الذين يتحدثون عن حرية الصحافة أغبياء يفهمون حرية الصحافة على أنها حرية الرأى !

وقال الشاب فى دهشة :

– أليست هى حرية الرأى ؟

وقال العجوز :

– لا قطعا : هناك فرق كبير بين حرية الرأى وحرية النشر : إنك الآن وأنت جالس على المقهى حر فى أن تقول رأيك ؛ ولكن لكى تنشر رأيك فأنت فى حاجة إلى أداة للنشر وفى حاجة إلى رأس مال يوفر لك هذه الأداة .. والصحافة ليست إلا مجرد أداة للنشر . فإذا قلنا حرية الصحافة فالمعنى الصحيح لهذه الحرية هى أنها حرية رأس المال الصحفى : أى حرية أصحاب الصحف .. لا حرية الكاتب ولا حرية الصحفى ولا حرية إبداء الرأى . ولكنها حرية صاحب الصحيفة وحده .

وقال الشاب :

– ولكن رؤساء التحرير هم الذين يسيطرون على ما ينشر ويستطيعون توفير حرية الرأى .

وقال العجوز :

– أبدا .. إن رئيس التحرير مجرد موظف عند صاحب الصحيفة ، هو الذى يختاره ويعينه وهو الذى يعزله ويلقى به فى الشارع ! ومهمة رئيس التحرير فى العالم كله هى تنفيذ أوامر صاحب الصحيفة والتعبير عن اتجاهه السياسى أو الاجتماعى .. ليس فى العالم كله صاحب جريدة ماركسى يعين رئيسا للتحرير ذا ميول رأسمالية أو حتى ميول محايدة : أى أن رئيس التحرير انعكاس لصاحب الجريدة .. وأنت تعرف أن بعض رؤساء التحرير عزلوا من مناصبهم ؛ لأنهم ضاقوا بأن يكونوا مجرد انعكاس لصاحب الجريدة !

وقال الشاب :

- وكيف يستطيع صاحب الرأى أن يضمن نشر رأيه ؟

وقال العجوز :

- أن يختار بين أصحاب الصحف : وإذا وجد من يتفق مع رأيه ومع اتجاهه السياسى نشر فى صحيفته .

وقال الشاب :

- وكيف نختار بين أصحاب الصحف فى مصر ؟

وقال العجوز :

- كل الصحف المصرية ليس لها إلا صاحب واحد .. وقد حدث منذ سنوات أن عرض صاحب جريدة لبنانية معروفة على كاتب مصرى معروف أن يكتب فى جريدته، وقام الكاتب الكبير بمقارنة بين صاحب الجريدة اللبنانية وجمال عبد الناصر باعتباره صاحب الصحف التى تصدر فى مصر .. واختار أن ينشر فى صحف جمال عبد الناصر برغم الخلاف الذى كان بينهما .

وقال الشاب فى دهشة :

- لماذا ؟

وقال العجوز :

- لأنه كان يعرف مصادر تمويل الصحف المصرية، ولا يعرف مصادر تمويل الصحيفة اللبنانية .. ومصادر التمويل لها نفس سلطات صاحب الجريدة .

وقال الشاب :

- أى أن الكاتب المصرى أو صاحب الرأى ليس أمامه مجال للاختيار إلا بين الصحف التى تصدر فى مصر والصحف التى تصدر خارج مصر .

وقال العجوز :

- هذا صحيح .

وقال الشاب :

- ولكنهم يقولون : إن الذين يملكون الصحف فى مصر هم العاملون .

وقال العجوز :

- إنهم يملكونها إداريا لا سياسيا .. وقيادة كل صحيفة لا يعين أشخاصها من داخلها ، ولكنهم يعينون بقرارات من الاتحاد الاشتراكى.

وتساءل الشاب :

– هل تفضل أن تعين القيادات بالانتخاب .. كأن ينتخب رئيس التحرير مثلا ؟..

وقال العجوز بسرعة :

– سيكون هذا مجرد مظهر مفتعل يؤدى إلى مصيبة تقع فيها الصحف كلها !. فرئيس التحرير كما أنه يحمل مسئولية صاحب الجريدة فإنه يجب أولا أن يكون فنيا فى إصدار الصحيفة ، والرجل الفنى الذى تتحمل طبيعته المعارك الانتخابية يعتبر فنيا مدعيا لن يستطيع أن يخدم الجريدة فنيا .. ولو حدث هذا لهبط مستوى الصحف فى مصر إلى الحضيض !

وقال الشاب المتفائل :

– وهناك المجلس الأعلى للصحافة .. لا شك أنه قوة يمكن أن تحقق حرية الصحافة .

وقال العجوز البائس :

– إنه أيضا مجلس مظهرى !. ومنذ وجد لم يتخذ ولم يبحث أى وضع خاص بحرية الصحافة ، وكل القرارات التى اتخذت خاصة بالتشكيلات الصحفية الأخيرة لم تمر على المجلس الأعلى للصحافة .. إنما أصدرها صاحب الصحف المصرية ..

وقال الشاب فى ضجر :

– حيرتنى ! المهم أنك تقول : إن حرية الصحافة هى فقط حرية إصدار الصحف : أى لو أصبح من حق كل فرد أن يصدر صحيفة لتحققت الحرية ..

وقال العجوز البائس :

– لن يستطيع أى فرد أن يصدر صحيفة .. إن الصحافة أصبحت فى حاجة إلى تمويل ضخم يعجز أى فرد عن تحمله إلا إذا كان هو نفسه صاحب شركات صناعية تجارية يصرف أرباحها على إصدار الصحيفة .. إن توزيع الصحيفة لا يكفى أبدا مصروفات إصدارها ، ومعروف فى عالم الصحافة أن أكبر الصحف توزيعا فى العالم كله لا تحصل من دخل التوزيع على أكثر من ٤٠٪ من تكاليف إصدارها .. وحتى الاعتماد على الإعلانات لم يعد يكفى إلا فى رفع الدخل إلى ٤٠٪ من النفقات .. والصحف الكبرى القوية تعتمد على الأعمال التجارية كالطباعة أو مكاتب الأعمال والأبحاث والاتصالات العامة .. وأغلب

الصحف فى العالم تعتمد على التمويل الخارجى سواء كان تمويل حكومات أجنبية أو محلية أو تمويل شركات عالمية ..

وتساءل الشاب :

– والصحف المصرية ؟..

وقال العجوز وهو يبتسم ساخرا :

– يتحمل الاتحاد الاشتراكى تغطية نفقات العجز والخسارة بنسب مختلفة .. إنه يملكها ..

وتساءل الشاب :

– وكيف كانت تصدر الصحف قبل التأميم ؟.

وقال العجوز :

– نفس الوضع !. كانت تعتمد على تمويل من خارج الجريدة ، أو على تمويل الأحزاب ، أو على تمويل الأصدقاء .. أو تستمر وهى معتمدة على ميزانية أقرب إلى ميزانية المنشورات السرية ، أى لا تحقق دخلا .. أو تفلس وتتوقف .!

وقال الشاب فى حماس :

– ولكن (حلمى مراد) يطالب بإصدار صحيفة يمولها الشعب..

وقال العجوز فى هدوء :

– إذا لم يكن بين الشعب الذى يمولها أفراد من أصحاب رءوس الأموال الضخمة فإنه سيضطر أن يصدرها بميزانية منشور سياسى لا يلبث أن يختفى !.

وقال الشاب :

– ولكن الأحزاب التى قامت بناء على قرار جمهورى تصر على أن يكون لكل منها صحيفة خاصة ..

وقال العجوز :

– بحكم الواقع القائم لا يمكن لأى حزب فى مصر أو لأى شخصية مصرية أن تملك جريدة إلا من خلال المنظمة السرية .. أى الاتحاد الاشتراكى .. ليست الملكية المالية ولكن الملكية السياسية .. أى لو عرض شخص أو هيئة أن تتحمل تمويل صحيفة فإنه برغم ذلك يجب أن يتبع سياسيا الاتحاد الاشتراكى .. وقد سبق أن طلبت أكثر من صحيفة أن تصدر فى مصر ورفض طلبها حتى لا يتعدد أصحاب الصحف ، ومن ثم تتعدد الاتجاهات السياسية نتيجة التحرر من سلطة ملكية الدولة

لوسائل النشر .. بل إن أحد أصحاب الصحف اللبنانية طلب أن يصدر جريدة من المنطقة الحرة ، أى من بورسعيد ، وكأن المنطقة الحرة منطقة أجنبية لا تخضع لسيطرة الدولة !

وقال الشاب :

- ولكن الاتحاد الاشتراكى كاد ينتهى ..

وقال العجوز :

- لن ينتهى أبدا حتى لو تغيرت صورته ..

وقال الشاب ساخطا :

- والحل ؟..

وقال العجوز :

- الحل يعتمد على تحديد كيف تحكم مصر ؟..

وقال الشاب :

- عدنا إلى تكرار تساؤلك عن كيف تحكم مصر ؟

وقال العجوز :

- أمسك أعصابك ، واستعمل مخك .. إن الفرق بين الصحف التى تصدر فى الكويت مثلا والصحف التى تصدر فى العراق ، أو الصحف التى كانت تصدر فى لبنان والصحف التى تصدر فى ليبيا هو دائما الفرق فى نظم الحكم !. وكذلك الفرق بين الصحف المصرية والصحف الفرنسية مثلا أو الأمريكية هو الفرق فى نظم الحكم !. وقبل أن تصل إلى أى قرار خاص بالصحافة المصرية يجب أن تحدد كيف تحكم مصر؟.

ورفع الشاب صوته قائلا :

- ولكن إن ....

وقال العجوز مقاطعا وهو يضحك ضحكة مفتعلة :

- كفاك دوشتنى وأوجعت رأسى .. إن كلام المقاهى لا ينتهى .. لاعبنى عشرة طاولة حتى أكسبك ! .. إن العجائز يكسبون دائما الشبان!

ديسمبر ١٩٧٦

١

جلس عجوز من لبنان على المقهى وهو يقلب فى دخان الشيشة ويشد أنفاسه فى سخط وعصبية ثم قال فى حدة :

– النرجيلة شيء والشيشة شيء آخر .. وهذه الشيشة لا يمكن أن ترتفع إلى مستوى النرجيلة ..

وقال العجوز المصرى الذى يجلس بجانبه :

– كنت أعتقد أنك عدت إلى لبنان لتعود إلى النرجيلة ..

وقال اللبنانى :

– لبنان لم يهدأ بعد حتى تزدهر فيه النراجيل ..

وقال المصرى :

– ولكن قوات الردع العربية دخلت بيروت ..

وقال اللبنانى :

– تقصد القوات السورية .؟

وقال المصرى :

– إن القوات السورية لم تعد وحدها ..

وقال اللبنانى :

– كل قوة غير سورية أشبه بقوة رمزية..سوريا هناك وحدها.!

وقال المصرى :

– عجائب!.. إذن لماذا تأخرنا كل هذه الشهور قبل أن نعترف لسوريا بحق الوجود فى لبنان ؟

وقال اللبنانى :

– لأن سـوريا كانت تعـتـقد أن العـمليـة كلها لن تـتطلب أكثـر من أسابيع ، فكانت ترفض أى تدخل عربى .. وعندمـا طالت العملية وحتى لا تتعرض سوريا لمعارك جانبية حتى لو كانت مجرد معارك سياسية ، استـسلمت لمظهر الوحدة العـربية ، ورفعت فـوق قواتها علم الجامـعة العربية وكتبت فوق دباباتها ومدافعها اسم قوة الردع العربية ..

وقال المصرى :

– أى أن سوريا وصلت لما تريد ..

وقال اللبنانى :

– إن سوريا لم تصل إلا إلى ما نريـده نحن .. افهمنى يا أخى .. إن هذه ليست أول معركة فى لبنان .. وفى كل مـعركة كان لبنان يستدعى قوات أجنبـية تتولى القـتال نيابـة عن أهله !. وآخر من استـدعى كانت القوات الأمـريكية لتواجه القـوات المحلية التى كان يعتـمد عليهـا جمال عبـدالناصر أيام وحدته مع سـوريا .. ولكن هذه الحرب ليـست حربا مـحلية بين اللبـنانيين بعـضهـم وبعض ولكنها حـرب بين اللبنانيـين والفلسطينيين : أى أنها حـرب تمس الوضـع العربى كله !. ولم يكن من مصلـحة أمريكا ولا فـرنسا أن تتـدخل فيـها بالقـتال حتـى لا تعرض نفسـها للإضرار بمصالحها داخل المنطقة فانتدبت سـوريا للقيام بالمهمة نيـابة عنها .. هل فـهمـتنى ؟. أى أن لبنان استـدعى سـوريا نيـابة عن أمـريكا وعن فرنسـا كمـا سبق أن قـاتلت كـوبا فى أنجولا نيـابة عن روسيـا !. إن الدول الكبرى لا تتـدخل الآن تدخلا مـباشرا إنمـا تبحث دائما عن وكلاء !.

وقال المصرى :

– وهل تعتقد أن سوريا ستنسحب من لبنان ؟.

وقال اللبنانى مؤكدا :

– قطعا ..

وقال المصرى ساخرا :

– مسـتحيل !. لا يمكن أن تنسـحب سوريا بعـد أن تحملت كل هذه الخسـائر وكل هذه الأموال !.

وقال اللبنانى :

– هل تذكر الوحدة التى تمت بين مصر وسوريا ؟. لقد تمت بناء على طلب الزعماء السوريين ؛ ولكن ما كادت مصر تدخل سوريا حتى تآلف الشعب السورى فى وحدة ضد مصر إلى أن تخلص منها ، أى من مصر !. وتبين أن الزعماء السوريين طالبوا بهذه الوحدة ليجتازوا بها مرحلة !. وبعد أن اجتازوها تعاونوا على طرد مصر أشنع طردة .! وهذا هو نفس ما تكرر أيام الوحدة بين مصر واليمن .. وهذا هو ما يحدث الآن فى لبنان .. كل زعماء لبنان طالبوا بالتدخل السورى لمجرد اجتياز مرحلة وبعدها ستتم وحدة عجيبة بين كل زعماء لبنان وكل الشعب اللبنانى للتخلص من الوجود السورى !. وقد بدأت ملامح هذه الوحدة تظهر من الآن .. وحدة حتى بين الذين كانوا يتقاتلون منذ أيام .. هل تعرف سر قوة حكم فؤاد شهاب ؟. السر أنه استطاع تحرير اللبنانيين من سيطرة جمال عبدالناصر بلا قتال إنما بالسياسة .. ولهذا أقام اللبنانيون التماثيل لجمال عبدالناصر وبكوا عهد فؤاد شهاب!. ولعل هذا هو الذى دفع بسركيس إلى مقعد الرئاسة لأنه تلميذ فؤاد شهاب .. ولو أراد الأسد أن يقيم له اللبنانيون تماثيل كعبدالناصر فيجب أن يسحب سيطرته عن لبنان .. هل فهمتنى ؟.

وقال المصرى ساخرا :

– معروف أنه من الصعب أن تفهم أى لبنانى .!

وقال اللبنانى :

– ستفهموننا الآن أكثر ؛ فإن أهم ما حققته قوة الردع حتى الآن هو ردع الصحافة اللبنانية التى كانت تجعل كل شعوب الأرض حائرة فى فهمنا .. ولكنه أيضا ردع مرحلى .. وقد كنت تستطيع أن تفهمنى الآن أكثر لو أنى وجدت نرجيلة سليمة تعدل عقلى وتطلق لسانى !.

وقال المصرى ضاحكا :

– أنت فى مصر ولكى تريح مخك دخن جوزة !.

٢

قال الشاب فى حدة وهو يضرب بقبضته على مائدة المقهى كأنه يحاول تحطيم المائدة أو تحطيم عظام قبضته :

- لا أريد أن تحدثنى عن الأسباب والفلسفات .. كل ما أريده هو أن أطالب الدولة بأن تضع كل فرد فى مستوى دخله .. لا أن تعطيه أربعين جنيها فى الشهر وتطلب منه أن يعيش فى مستوى مائة جنيه .. ومستوى الأربعين جنيها هو أن يذهب الموظف إلى وظيفته سائرا على قدميه وهو يلبس جلباب كستور ، وفى قدميه شبشب أو قبقاب ، وتصدر له الدولة قرارا بألا يأكل اللحم إلا مرة واحدة كل ستة أشهر !. أو أن يتولى وزير المالية وضع ميزانية لكل بيت على حسب دخله !. ومن تعدى هذه الميزانية فالدولة ليست مسئولة عنه !. وبهذا توفق الدولة بين دخل الفرد ومستوى معيشته .!

وقال العجوز وهو يبتسم ابتسامة إشفاق :

- لكى تهدأ يجب أن تفهم ..

وقال الشاب وهو يصرخ كأنه يستجير :

- ماذا تريدنى أن أفهم .. التضخم العالمى .. والتضخم فى عدد السكان . وتكاليف الحروب التى خاضتها مصر .. و .. و .. إلى آخر الكلام الذى ينشر تفسيرا لأزمة الغلاء .. لم يعد هذا الكلام يقنع أحداً !. العقول التى تقتنع هى العقول المرتاحة الهادئة .. وليس فى مصر الآن عقل مرتاح ولا هادىء !.

وقال العجوز وهو يحتمل ثورة الشاب :

- هناك أسباب أخرى ..

وقال الشاب ساخرا :

- أسباب إيه وهباب إيه .!

قال العجوز صامدا :

- هناك ما يمكن أن يسمى التطور الطبقى ..

وقال الشاب وهو أكثر سخرية :

- بدأنا نتفلسف .. أشبعنى فلسفة حتى تسد جوعى !.

وقال العجوز دون أن يغضب :

- إن أحد الأسباب (الرئيسية) لثقل الأزمة المعيشية هو أن المجتمع تطور إلى طبقتين .. طبقة اشتراكية وطبقة رأسمالية .. والتحالف القائم الآن ليس هو تحالف قوى الشعب العامل ، ولكنه فى الواقع تحالف بين

الاشتراكيين والرأسماليين .. أو ما يسمى القطاع العام والقطاع الخاص.. وبما أنه من الصعب أو من المستحيل أن يكون مثل هذا التحالف تحالفا صادقا للفارق الكبير بين مستوى ومطالب الطبقة الاشتراكية والطبقة الرأسمالية فقد تضخم الفارق بين مستوى الحياة فى الطبقتين واشتد السخط الاشتراكى على المستوى الرأسمالى.!

وقال الشاب فى تأفف :

– لا أفهمك !. لا أستطيع أن أرتفع معك إلى مستوى الفلسفة ..!

وقال العجوز هادئا :

– حاول أن تفهمنى .. لقد كنا منذ سنوات قريبة نعيش أيضا فى طبقتين : طبقة العاملين وطبقة الموظفين : أى طبقة البيروقراطية .. والطبقة البيروقراطية تستطيع أن تحصل دائما على جميع مميزات الطبقة الرأسمالية : أى الوصول إلى الثراء الفاحش ، ولكنها كانت بحكم وضعها تضطر إلى إخفاء هذا الثراء عن أعين وعن إحساس طبقة العاملين !. وكان البيروقراطى يحتفظ بالملايين أو بالألوف فى الخارج ، ولكنه فى الداخل أو فى مصر لا يعيش إلا فى حدود مرتبه .. كان لا يمكن أن ترى واحدا منهم يفتح زجاجة شمبانيا فى محل عام فى القاهرة ولكنه كان يفتحها فى باريس أو فى لندن .! وقد تملك زوجة البيروقراطى خاتما من الماس اشترته أو استولت عليه من محصول الحراسات ، ولكنها لا يمكن أن تضعه فى أصبعها وتتظاهر به أمام الناس !. إن جمال عبدالناصر نفسه قال مرة : إنه يعرف أن كثيرا من زوجات القيادات البيروقراطية يتعمدن ألا يظهرون بمصوغاتهن أمامه .. وكل هذا أدى إلى الاحتفاظ بمظهر وحدة مستوى المعيشة .. اعتقدت الطبقة العاملة أن الطبقة البيروقراطية تعيش فى نفس مستواها أو على الأقل قريبا من مستواها .. لا يأكلون إلا ما يباع بالتسعيرة ، وأغناهم لا يركب إلا سيارات نصر التى تباع بثمن معروف محدد وبالدور .. وبرغم ذلك كان هناك إحساس بالفارق ، ولكنه إحساس هين خافت وليس إحساسا خطرا يهدد بثورة .. ثم بعد ذلك .. بعد أن بدأ عصر الانفتاح وإطلاق الحريات الاقتصادية .. تطور الوضع الطبقى .. ضعفت الطبقة البيروقراطية أى طبقة الموظفين ، وظهرت مكانها الطبقة

الرأسمالية وهى طبقة صريحة وقحة تجاهر بمستوى معيشتها علنا .. وفوجئت الطبقة العاملة بزجاجة كازوزة تحمل اسم « سفن آب » تباع فى الأسواق بخمسة وخمسين قرشا ، بل وجدت « بيبسى كولا » أخرى غير التى تصنع فى مصر تباع بثلاثين قرشا .. وفوجئت بأحذية لا تصنع فى مصر ويباع الزوج منها بثلاثين أو خمسين جنيها !.. وفوجئت بمصريين لم يعرفهم أحد من قبل يركبون سيارات بويك وكاديلاك علاوة على المرسيدس والشفروليه ! وأصبح لا يركب سيارات نصر إلا الفقراء .. و .. ثم إن المجتمع البترولى بكل ثرائه بدأ يفرض وجوده ويرتفع ثمن كل احتياجاته إلى أضعاف ما كانت عليه .. إيجار الشقق .. وثمن الأرض .. و .. و... والطبقة الأخرى تسمع عن الأثمان الجديدة وتُذهل ، وتطمع أن تتذوق زجاجة (سفن آب) فلا تستطيع .. وبدأت ثورة الإحساس بالفارق الاجتماعى وهى ثورة لا تقوم عادة على الحاجات الضرورية للمعيشة ولكنها تقوم على رفض التفاوت الصارخ فى مستوى المعيشة ..

وقال الشاب وهو يحلق محاولا أن يفهم :

– أى كان يجب ألا نبيح الانفتاح ..

وقال العجوز :

– ليس إلى هذا الحد .. ولكن كان يجب أن نحدد الانفتاح بحيث لا يقتصر على المواد والصناعات الاستهلاكية التى لا تكون إلا من نصيب الأغنياء .. وأزمة الموظف الذى يتقاضى أربعين جنيها ليست أزمة الأكل ولكنها أزمة الوصول إلى المستوى الجديد للمعيشة .. إنه يريد فى بيته جهاز تليفزيون وثلاجة ويريد أن يشرب هو وأولاده السفن آب ويأكل الجبن الركفور والجروييبر !.. لو أن الانفتاح أدى إلى نسبة من المواد الإنتاجية أكبر من نسبة المواد الاستهلاكية ما كان له هذا الأثر من السخط الشعبى .. لا أحد من الشعب كله ثار لاستيراد الأسمدة أو لاستيراد المصانع !. أما استيراد الكازوزة التى تباع بخمسين قرشا فقد بدأ يمهد للثورة ..

وقال الشاب ساخرا :

– تريد أن توزع الدولة على كل فرد تليفزيونا وثلاجة وزجاجة كازوزة ! هذا ما تريده ؟..

وقال العجوز وهو لا يزال هادئا :

– لا تكن غبيا .. إن الصين مثلا حلت أزمة التليفزيون بأن أقامت فى كل قرية وفى كل حى صالة تليفزيون بها آلة واحدة يجلس أمامها الحى كله ؛ حتى لا تكلف الفرد شراء جهاز خاص ولا تتركه فى حرمان طبقى بين من يستطيع الشراء ومن لا يستطيع !.. وهذا حدث عندنا ولكن المقاهى والمنتديات التى تستعمل التليفزيون لا تقاس بنسبتها إلى نسبة الذين يشترونه .. إن الفلاح العادى اليوم أصبح لا يستغنى عن الراديو .. الراديو بالنسبة له أصبح حاجة ضرورية وليس من الكماليات وهو يشتريه من دخله مهما قاسى وشقى فى سبيل شرائه ، ومع التطور سيصبح التليفزيون أيضا حاجة ضرورية حتى بالنسبة للفلاح البسيط .

وقال الشاب :

– والحل ؟.

وقال العجوز :

– الحل هو فى محاولة التقريب بين مستوى الطبقتين الاشتراكية والرأسمالية .. إن أزمة المواصلات تشتد كلما رأى الواقفون فى انتظار الأتوبيس سيارة خاصة فارهة تمر أمامهم ، ولا يلعنون ساعتها صاحب السيارة بل يلعنون الحكومة !.

وقال الشاب فى إصرار :

– الحل الوحيد فى زيادة المرتبات والأجور والعلاوات ..

وقال العجوز :

– هذا هو الحل الذى يصل إليه الأغبياء .. إن كل ارتفاع فى نسبة الأجور يقابله ارتفاع فى الأسعار .. لماذا يرتفع مرتبك ولا يرتفع مكسب التاجر ؟.. ربما كان الأجدى هو الاتساع فى رقعة تحديد الأسعار ، ثم الأهم هو التحكم فى سياسة الانفتاح .. إن المهم هو التقريب فى مستوى المواد الاستهلاكية بين الطبقتين الاشتراكية والرأسمالية ..

وقال الشاب فى سخط :

– إنى لا أطيق هذه الفلسفة !. إن الحل أمامى هو أن أبدأ فى التعامل

بالعمولة أى بالرشوة .. هكذا اقتنـع معظم زملائى .. وفى الوقت نفسه أحاول أن أبحث عن عـمل ارتفع به إلى مسـتوى الطبقـة الرأسمـالية .. سأبحث عن عـمل فى وكالة البلح .. فى سوق الروبابيكيـا !. حتى أهدأ واستريح وأتزوج ..

وقال العجوز :

– بهذا ننتقل إلـى تقسيم المجتمع إلى طبـقتين أخريين .. طبـقة لها أخلاق وطبقة بلا أخلاق .!

وقفز الشاب واقفا كأنه يهم أن يجرى :

– كفانى من فلـسفتك أرجوك .. إن الجالسـين على المقهى ليس من مسئوليتهم أن يجدوا الحل « سلامو عليكم » .

وصاح العجوز :

– انتظر .. إننا لم نتم بعد سرد أسـباب الأزمة .. ولم ينتظر الشاب وودعه العجوز بنظرة إشفاق !.

٣

قال الشاب وهو يضحك ساخرا :

– انتهينا .. لقد استطاعت الدولة أن تجد الحل ..

وقال العجوز وهو يبتسم ابتسامة عجوز :

– ما هو ؟

وقال الشاب مستمرا فى الضحك :

– صدر قرار خطير .. قرار بألا يركب الوزراء إلا سيارات نصر ..

وقال العجوز :

– تكلم بجـدية .. إنه ليس قرارا خطيـرا ولكنه قرار مـهم ، ولو أنه يذكرنى بأول أيام الثـورة وعندما صـدر قرار بإلغاء سـيارات الوزراء تماما إيمانا بأن الوزير رجل عادى مسـئول عن نفسه كأى رجل عادى حـتى لو اضـطر أن يركب الاتوبيس أو « يـتشـعـبط » عـلى سـلم «الترام» .. وأذكر أن الشيخ الباقورى كـان أيامها يقيم فى حلوان وكان وزيرا يشغله عمله إلى ما بعد انتهاء موعد آخر قطار إلى حلوان ، فكان يضطر أن ينام فى المسـاجد ، وكان مظهـرا شعبيا رائعـا وإن كان لم يستمر طويلا ..

وقال الشاب :

- لماذا لم يستمر ؟.

وهز العجوز كتفه وقال بلا مبالاة :

- ربما لأن المظهر الشعبى لا يغنى عن الاحتياجات الواقعية .. والوزير فى حاجة إلى سيارة كواقع لاحتياجات عمله .. فاضطرت الدولة أن تخصص له سيارة ..

وقال الشاب ساخرا :

- ولكن الحاجة الواقعية تطورت بعد ذلك إلى أن تغلبت عليه الحاجة إلى المظهر .. ولم يعد المهم هو المظهر الشعبى ، بل أصبح المهم هو مظهر السلطان .. مظهر السلطة .. وبذلك أصبح للوزير ثلاث سيارات تخصصها له الحكومة لا سيارة واحدة : سيارة له وسيارة لعائلته وسيارة لمطالب البيت لشراء الخضراوات والطواف بها على الطباخ والبقال !.

وقال العجوز فى اقتناع :

- المهم أن القرار الجديد جمع بين تحقيق الحاجة الواقعية للوزير وبين المظهر الشعبى المتواضع ..

وقال الشاب فى حدة :

- المهم أن نتفق على المظهر الذى يمثله الوزير .. فقد اتفقنا فى جلستنا الماضية على أن الشعب المصرى الآن يعيش فى طبقتين : طبقة اشتراكية وطبقة رأسمالية .. فأيهما يمثل الوزير ؟.. إذا كان يمثل الاشتراكية فإنه يركب سيارة نصر ٢٨ أو ٢٤ لأنها سيارة أرقى مستوى اشتراكى .. وإذا كان يمثل الرأسمالية فيجب أن يركب نفس السيارة التى تركبها قيادات وكالة البلح ومكاتب التصدير والاستيراد.. يركب رولزرويس أو بويك أو على الأقل مرسيدس .!

وقال العجوز :

- ولكن المفروض أن الوزير لا يمثل طبقة ، ولكنه يمثل الشعب كله ..

وقال الشاب فى حدة :

- إذن يجب أن يبدو فى مظهر هذا الشعب كله .. فإذا كان الشعب

كله فى أعلى مستوياته لا يركب إلا سيارة نصر فالوزير لا يركب إلا سيارة نصر ، وإذا كان من حق المستوى الأعلى من الشعب أن يركب سيارة بويك ركب الوزير سيارة بويك .. إنه حتى زعماء الماركسية فى مصر يركبون الآن المرسيدس ..

وقال العجوز :

– ولكن الوزير يركب سيارة رسمية أى سيارة يدفع ثمنها على حساب الشعب ، ومن مصلحة الشعب أن نوفر عليه ثمن سيارة غالية ونكتفى بسيارة رخيصة ..

وصرخ الشاب :

– والذى يركب سيارة مرسيدس من أين يشتريها ؟. من مكاسبه ؟. ومن أين يحقق مكاسبه ؟ على حساب الشعب طبعا .. إن الذى يبيع الفول المدمس ويكسب قروشا يعيش على حساب الشعب الذى يأكل ويدفع هذه القروش ، وكذلك الذى يبيع منتجات خان الخليلى أو وكالة البلح ويكسب الألوف !. فإذا أردت أن توفر على الشعب فلا توفر من ثمن سيارات الوزراء وحدهم ، بل وفر من ثمن السيارات التى تجرى فى شوارع مصر كلها ، وإذا أردت أن توفر المظهر فضع الوزير فى المظهر الذى يمثل مصر كلها .. لا المظهر الذى يمثل طبقة واحدة ..

وقال العجوز وكأنه يترحم على شبابه :

– يا ابنى إنك تتكلم كأنك ترسم صورا من خيالك !. كلام « فاضى» برغم ما فيه من منطق ..

وقال الشاب وهو أكثر صراخا :

– إنى لا أتكلم من خيالى !. إن كل المظاهر والمبادىء واحتياجات التقدم تنصب كلها على رأس الطبقة الاشتراكية وحدها ، كأن الطبقة الرأسمالية طبقة حرة لا تخضع لحكومة ولا لدولة !. خذ مثلا ما نقوم به من تصدير المنتجات الزراعية باسم الانفتاح .. إننا نصدر البرتقال والموز والبامية .. و .. و .. و .. حتى نحقق دخلا من العملة الصعبة وكانت النتيجة أن ارتفعت الأسعار إلى عشرة قروش لكيلو البرتقال ، وثلاثين قرشا لكيلو الموز وأربعة قروش للبيضة الواحدة .. و .. ويقبل الشعب أن يتحمل رفع ثمن مأكولاته الشعبية فى نظير العملة الصعبة ،

وإذا به يفاجأ بأن هناك من يستورد بالعملة الصعبة كازوزة سفن آب وسيارات شيفروليه وشيكولاته كادبورى .. و .. إلى آخر متطلبات طبقة الأغنياء .. الفقير يتحمل رفع الأسعار حتى لا يحرم الأغنياء متعهم « بأه ده » اسمه كلام !

وقال العجوز فى زهق :

– إنك لا تفهم شيئا .

وصرخ الشاب :

– إنى أفهم ألا نصدر شيئا إلا فى حدود ما يفيض عن حاجة الشعب .. حتى نحتفظ بمستوى محدد من الأسعار ..

وقال العجوز مبتسما فى سخرية :

– إن همك على بطنك !. لا ترى للوضع الاقتصادى صورة إلا فى ثمن ما تأكله وما تلبسه !. فى حين أن هناك ما هو أهم : إن إنجلترا عقب الحرب العالمية الماضية كانت تضع فى نوافذ الحوانيت صورا للملابس الجاهزة الأنيقة ، وصورا للمأكولات المحفوظة الراقية وتكتب على كل منها كلمة (للتصدير) أى أنها ليست للاستهلاك المحلى ، ليست للشعب ، ولكن للأغنياء الذين يعيشون فى الخارج ويدفعون بالعملة الأجنبية ، وكان الشعب البريطانى يقبل هذا لأنه يعلم أنه يجتاز أزمة عقب الحرب ، ولأنه يعلم أن هذه البضائع لن يتمتع بها أحد فى داخل إنجلترا مهما كان يملك .!

وقال الشاب ساخرا :

– حدثنى يا سيدى عن الحرب ..

وقال العجوز :

– لا ، إنك لا تستحق اليوم أن أتحدث إليك !.. دمك ثقيل .. دعنى أطلب شيشة .. وفارقنى وحياة أبوك .

٤

قال الشاب فى لهجة ساخرة :

– اتفقنا على أن نناقش أثر الحرب فى أزمتنا الاقتصادية .. فلتبدأ سيادتك ..

وتنحنح العجوز كأنه يستعد لتلاوة بحث اقتصادى طويل فى مأتم الجيوب المفلسة :

– أريد أن أقول لك إن ..

وقاطعه الشاب قائلا :

– أرجو أن تسمح لى بأن أذكرك بما قلته لى أمس حتى نبدأ من حيث وقفنا : لقد قلت لى : إن بريطانيا عقب الحرب العالمية كانت تعلق المنتجات الشعبية فى نوافذ الحوانيت وتكتب عليها إنها للتصدير حتى تجمع الاموال من الخارج ، وإن الشعب البريطانى كان يقبل تصدير الملبوسات والأطعمة الشعبية برغم الأزمة المعيشية التى كان يعانيها بسبب الحرب ولأنه يعلم أن ما يعد للتصدير محرم على كل الناس الأغنياء منهم والفقراء .. فهل هذا يحدث عندنا ونحن نصدر البيض والأرز والبامية والبطاطس ؟. هل الأغنياء محرومون من البيض وقد بلغ ثمن البيضة الواحدة أربعة أو خمسة قروش نتيجة تصدير البيض أو أن الحرمان أصاب الفقراء وحدهم ؟.

وقال العجوز وهو يشد نفسه كأنه يضيق بمهمة إقناع هذا الشاب :

– هناك فرق بين الحرب التى عاشتها بريطانيا والحرب التى نعيشها : الحرب هناك كانت قد انتهت ، أما عندنا فالحرب لم تنته !. إننا فى حالة هدنة مسلحة ، والحرب هناك امتدت ست سنوات ، أما هنا فالحرب ممتدة منذ ثلاثين عاما ولم تنته بعد !. لذلك فما دمنا لا نقاتل فعلا فإننا لا نستطيع أن ندع الشعب يعيش الحرب كل هذه السنوات : أى أن الحرب عندنا ليست حالة تفرض على الشعب ، ولكنها معارك تخطر على حياة الشعب .. إن المفروض ألا نحسب حساب الحرب ولكن يكفى أن نحسب حساب المعركة ..

وقال الشاب كأنه يتحدى الشيخ :

– والآن .. هل نحن فى حالة حرب ؟.

قال العجوز مستسلما :

– لا .. إننا فى حالة إقامة فنادق سياحية وحل أزمة الإسكان ..

وعاد الشاب يتحدى :

– هل نحن فى حالة معركة ؟.

وأعاد العجوز مرددا :

- لا .. إننا فى حالة التليفزيون الملون !.

وقال الشاب :

- إذن نحن فى حالة عادية طبيعية .. حالة مفروض أن يتحقق فيها الرخاء وأن نتخلص من كل هذا الافلاس !.

وقال العجوز فى حسرة :

- لا .. ولسنا فى حالة طبيعية .. إننا فى حالة تاجر مفلس يطالب بحقوقه !. تاجر أرسل البضاعة للمستهلك ،لم يقبض كل الثمن بعد .!

وقال الشاب في حيرة :

- ماذا تقصد .. ؟

قال العجوز فى زهق :

- أقصد إخواننا دول البترول : إنهم لم يتحملوا بعد كل المسئولية ، ويتهربون منها باختلاق منطق يبعدنا عن حقيقة كل الوضع العربى .. إنه وضع يحمل مصر مسئولية الحرب دفاعا عن العالم العربى كله .. نحن نملك القوة الضاربة وهم يملكون البترول ، والمفروض أن يتحمل البترول كل نفقات القوة الضاربة .. وحتى يهربوا من هذه الحقيقة فهم يدفعون كأنهم يتصدقون علينا !. كأن مصر لم تحارب إلا دفاعا عن نفسها دون أن يقدروا أن مصر إن لم تدافع عن نفسها وسقطت سقط معها العالم العربى كله !. وهذا ما شهده التاريخ : كل من احتل مصر أصبح من حقه احتلال ليبيا والسعودية والكويت .. و .. و .. هذا ما حدث أيام الإمبراطورية العثمانية وما حدث أيام الاستعمار البريطانى الفرنسى .. وما يمكن أن يحدث أيام الاستعمار الإسرائيلى ..!

وقال الشاب وهو يحاول أن يفهم :

- على أى أساس توزع الآن المعونات العربية ..

وقال العجوز ساخرا :

- على أساس أنها بقشيش .. إحسان وتصدق لإعانة المساكين .!

وقد ظهر مرة من يطالب بتطبيق مشروع مارشال الذى ساهمت به أمريكا عقب الحرب العالمية فى إعادة بناء أوربا .! وهذا كلام يتجاهل الفرق الكبير بين الوضعين : فإن أوربا لم تحارب وحدها ولم تكتف

أمريكا بمساعدتها ، ولكن أمريكا أيضا حاربت وضحت بأبنائها وتحملت قسوة التدمير .. أما هنا فإن مصر حاربت وحدها : أى أن دول البترول لم تدخل الحرب وإنما اكتفى بعضها بأن أمد مصر بالسلاح !. إن أمريكا حاربت لنفسها أما نحن فقد حاربنا لأنفسنا ولهم، ولذلك فإن مقاييس التعويض تختلف .. ولكنهم لا يفهمون !

وقال الشاب ثائرا :

– ربما كان يجب أن نقدم لهم قائمة برءوس الذين استشهدوا فى الحرب ، ويدفعوا عن كل رأس فدية أو رأسا مقابل رأس .!

وقال العجوز متحسرا :

– إنه المستوى الحضارى .. إن أمريكا أعادت بناء أوربا لأن أوربا قوة لها ، ولأنها خط دفاعى يجب أن يتحصن .. ومصر لا يمكن أن تستكمل قواها إلا باستكمال عناصر رخائها ، ولا يمكن أن تبقى دائما خط الدفاع الوحيد فى العالم العربى إلا إذا قام هذا الخط على أسس اقتصادية ثابتة .. وإخواننا لا يفهمون ذلك !. إنه مستوى الفكر الحضارى ..

وقال الشاب وعيناه تنطلقان فى ثورة :

– والأمل .؟

وقال العجوز ساخرا :

– لقد قرأت يوما نكتة تقول : إن العقيد القذافى كان يطالب بقيادة الجيوش المصرية ، فطالبت مصر فى المقابل أن تقود ميزانية البترول الليبى باعتبار أن كل بلد يتولى قيادة القوة (الأساسية) للبلد الآخر .. ورفض العقيد القذافى ؛ لأن البترول يستطيع أن يشترى الجيوش ولكن الجيوش لا تستطيع أن تشترى البترول !. ولذلك فالحل الوحيد أمامنا هو أن ندعو الله أن يدخلنا فى أهل زمرة البترول .. آمين .. قم بنا .. حانت صلاة الفجر ..

يناير ١٩٧٧

١

قال الشاب وهو يخرج من جيبه علبة سجائر كليوباترا ، وينظر فيها وهو يقلبها بين أصابعه كأنه ينظر إلى تحفة غالية ثم يفتحها ويخرج سيجارة يشعلها .. قال كأنه يتأهب لحديث طويل :

– ما رأيك فيما أعلن عن القيادة السياسية الموحدة بين مصر وسوريا.؟

وقال العجوز من وراء صفحات الجريدة المفتوحة أمام وجهه :

– تجربة أخرى ..!

وقال الشاب وهو يرفع صوته كأنه يحث العجوز على أن يزيح الجريدة من أمام وجهه :

– إنى أسألك رأيك !

وطوى العجوز الجريدة ونظر إلى الشاب قائلا مع ابتسامة هادئة :

– التجارب لا تتطلب الرأى ما دامت قد بدأت .. ونحن ـ الجالسين على أرصفة الشارع السياسى ـ لا نملك إلا انتظار نتائج التجربة ، كأننا واقفون أمام باب معمل كيميائى تجرى فيه تجربة دواء جديد ! فأصحاب المعمل لا يعلنون تفاصيل التجربة ، لأننا لا نفهم فى الكيمياء!. وعلينا أن ننتظر إلى أن يعلنوا نتائج التجربة ، وهلى وصلوا بها إلى علاج (الروماتيزم) العربى أو كانت تجربة خطرة تؤدى إلى الشلل الكامل ..؟

وقال الشاب فى زهق :

– ولكن الناس كلها تتكلم .!

وقال العجوز بابتسامته الهادئة :

– كله كلام فى الشارع .. وقد ازدحم الشارع السياسى وكثر الكلام بعد إعلان وحدة القيادة بين مصر وسوريا ؛ لأن أعضاء مجلس الشعب وجدوا أنفسهم هم أيضا واقفين على الأرصفة معنا ! فالتجربة لم تعرض عليهم تفاصيلها قبل أن تعلن .. قرأوا عنها فى الصحف .. ولا يعلمون عنها أكثر مما نعلم ..!

وقال الشاب فى حدة :

– مهما كان .. فيجب أن يحدد كل منا موقفه ..

وقال العجوز وهو يشد أنفاسه كأنه يستعين بالله على الصبر :

– يا ابنى ، حاول أن تفهمنى !. إن سر متاعبنا أن التجارب كانت تعرض علينا كأنها نتائج !. كأنها وصول إلى شىء لا مجرد محاولة للوصول !. ولهذا كانت صدمات الفشل صدمات عنيفة علينا ، لأننا نتلقاها كأنها انقلاب فى كل حياتنا السياسية أو كأنها قضاء على كياننا لا مجرد فشل تجربة .. وقد فشلت كل تجاربنا مع سوريا – ما عدا تجربة واحدة لأننا كنا نعلن البداية كأنها نهاية أو نعلن البدء فى التجربة كأنه وصول إلى الهدف !. فشلت الوحدة مع سوريا عام ٥٨ ، لأننا أعلناها كأنها تحققت ، فى حين لا يمكن عمليا أن تتحقق وحدة كاملة بين بلدين فى شهر واحد أو شهرين !.. ولو كنا قد أعلنا الوحدة مع سوريا على أنها بداية تجربة لكان فشلها مجرد فشل تجربة نتلقاه فى هدوء علمى ، ويمكن أن يدفعنا الفشل إلى تجربة أخرى .

وكذلك تجربة اتحاد الجمهوريات العربية الذى يضم مصر وسوريا وليبيا كل ما بقى منها هو آخر ما كان يمكن أن نصل إليه ! وهو وحدة شكل العلم الذى يرفع فوق كل دولة من الدول الثلاث ، وهى وحدة لا تمثل واقعا .. التجربة « الوحيدة » التى وصلت إلى أهدافها هى تجربة الوحدة العسكرية فى معركة (٦ أكتوبر) وما تطلبته من وحدة الاتصالات السياسية .. نجحت ؛ لأننا لم نعلن عنها ، ولأن من طبيعتها أن تعامل كتجربة ككل الخطط العسكرية إلى أن تنجح .. وربما لو أننا لم نعلن عن وحدة القيادة السياسية المصرية والسورية واحتفظنا بها سرا لا يعبر عنه إلا العمل السياسى نفسه لضمنت التجربة نجاحا أكبر ..

وقال الشاب فى سخط :

– نجاحا فى ماذا .؟

وقال العجوز مهدئا :

– لا أدرى .! ولكنى أرجح أن الهدف هو توحيد الموقف من مؤتمر جنيف .. وأنت تعلم أن اختلاف الموقف بين البلدين كان صارخا فظيعا.. سوريا ترفض اتفاقية سيناء التى وصلت إليها مصر .. ومصر ترفض الوجود السورى فى لبنان !

وقال الشاب وهو يحاول أن يكون أكثر خبثا من العجوز :

– تقصد أنه إذا فشل مؤتمر جنيف فستعود سوريا تهاجم اتفاقية سيناء ، وتعود مصر تهاجم الوجود السورى فى لبنان .؟

وقال العجوز مبتسما :

– ربما .. إلا إذا كانت القيادة السياسية الموحدة تحسب منذ الآن حساب فشل مؤتمر جنيف كما تحسب حساب نجاحه .. وأن تفكر بمنطق التجربة لا بمنطق الاستسلام للوعود الأمريكية !.

وقال الشاب فى زهق :

– على كل حال إن ما يحيرنى هو اختلاف النظم التى تعلن عن التعامل باسم الوحدة : نظام بين مصر والسودان . ونظام آخر بين مصر وسوريا ، ونظام بين مصر والسعودية .. و .. و .. علاوة على النظم القائمة فعلا ، ولكنها مركونة فى مخازن الروبابيكيا السياسية !

وقال العجوز كأنه يخفف عنه :

– إن الاحتياجات تختلف بين كل بلد وآخر .. وكل نظام يوضع لتحقيق هذه الاحتياجات .. تصور أنه نوع من تقاليد الضيافة .. كل ضيف يطلب ما يريحه وما يتفق مع مزاجه : ضيف يطلب قهوة وضيف يطلب شايا ، وضيف يطلب شيشة ، وبالمناسبة .. نسيت أن أضيفك .. ماذا أطلب لك .؟

وقال الشاب فى سخط :

– « ساندويتش فول !» .

٢

صرخ العجوز كأنه ضاق بآراء الشاب :

– اسمع !. يجب أن تعترف بأنك تعيش الآن حياة أوسع وأسهل وأضمن من الحياة التى عشناها نحن .. أنت على الأقل تتمتع بحرية الكلام وقد عشنا عشرين عاما ونحن محرومون من الكلام !. بل لم يكن من حقى أن أجلس فى هذا المقهى أو أتردد على هذا الشارع لأتكلم!. وحرية الكلام تعنى حرية الفكر ، وحرية الفكر تعنى حرية البناء ..

وقال الشاب ساخرا :

– أبنى ماذا ؟

وقال العجوز ثائرا :

– تبنى نفسك .! إنك الآن تملك حرية بناء نفسك وحتى سنوات قليلة مضت لم تكن تملك هذه الحرية .. لم يكن معنى الحرية يشمل حرية تكوين الأحزاب ، بل كان أقصى درجات الحرية هى حرية الفرد فى تكوين نفسه : أن تختار مستقبلك ، وتختار شخصيتك . ولم تتحقق هذه الحرية وأصبح الشعب كله فى خدمة الحكومة .. مجرد موظفين لدى الحكومة .. حتى لو افتتحت محل حلاقة تبقى دائما فى خدمة الحكومة وإلا لم تجد نفسك ولا محل الحلاقة ! . وكانت النتيجة أننا تجمدنا نحن العجائز ، وأصبحنا صما بكما .! أما أنتم الشباب فقد كنتم الضحايا .. أسرى الاتكال الكامل على الحكومة .. لا رأى لكم فى بناء أنفسكم .. قد تجد نفسك فى كلية الآداب مع أنك تصلح للحقوق !. أو تجد نفسك فى مؤسسة الحديد والصلب برغم أنك قد تصلح لمؤسسة الأدوية !. استسلام !. استسلام كامل !. وأنت مازلت تعيش هذا الاستسلام !. إنك ترفض الحرية ، ترفض التحرر من الحكومة !

وصرخ الشاب مقاطعا :

– وماذا افعل بهذه الحرية حتى أخفض الأسعار ؟.

وصاح العجوز :

– إلى أن تنخفض الأسعار حاول أن تصل إليها ، فكر لنفسك .. إن الناس تلقى القمامة فى الشارع ثم تصرخ لأن الحكومة لم تجمع

القمامة بدلا من أن يجتمعوا هم أنفسهم ويكتشفوا وسيلة لجمع القمامة دون إلقائها فى الشارع !. إن شارع الموسكى من أقذر شوارع مصر برغم أنه يضم على جانبيه طبقة من أغنى طبقات مصر ، ويصرخون دون أن يقدم واحد منهم على أن يتولى بنفسه تنظيف الشارع أمام حانوته !. أو دون أن يجتمعوا ليتشاركوا فى رصفه !. وأنت .. أنت موظف وتريد الحكومة أن تخفض الأسعار إلى مستوى مرتبك أو ترفع مرتبك إلى مستوى الأسعار دون أن تفكر فى أن تعتمد على نفسك وتبحث عن عمل يغنيك عن هذه الوظيفة أو تستعين به مع الحكومة !. كل ما وصل إليه كثير من الموظفين هو الرشوة .! أصبحت الرشوة الآن حقا من الحقوق وليست جريمة .. أنتم الذين وصلتم بالرشوة إلى هذا الحد .. وأعرف رجل أعمال فرنسيا جاء بمشروع ثم هرب بسرعة قائلا إن ميزانيته تتحمل أن يدفع رشوة لاثنين أو ثلاثة ، ولكنها لا تتحمل رشوة ثلاثين أو أربعين موظفا .!

وقال الشاب فى هدوء :

– أعترف بالواقع .. إننا الآن : إما أن نتعامل بالرشوة ، وإما أن نهاجر لنعمل فى بلد آخر .!

ونظر إليه العجوز كأنه يتهمه بالجهل والغباء وقال :

– هل تعرف من بنى جوامع وقصور إسطنبول أيام الإمبراطورية العثمانية ؟. إنهم الحرفيون والعمال المصريون !. كان أول قرار أصدره السلطان بعد احتلال مصر هو جمع النجارين والبنائين والحدادين و .. و .. وأرسلهم لبناء العاصمة التركية .. وهكذا كان يفعل كل من أحتل مصر !. ونحن الآن نعيش مرحلة يمكن أن نسميها « الاستعمار الاقتصادى » سواء كان احتلالا عربيا أو أجنبيا ، وأول ما يسعى إليه الاحتلال هو الاستيلاء على ثورة مصر الغالية التى يمثلها الحرفيون بمن فيهم الأطباء والمهندسون والعلماء .. وهو خسارة كبيرة .. إنه امتصاص لدم مصر .!

وقال الشاب فى تحد :

– اسأل نفسك : لماذا نسعى إلى الهجرة حتى لو هاجرنا فى خدمة ما نسميه الاستعمار الاقتصادى ؟

وقال العجوز :

- لأنكم في مصر تعتمدون على الحكومة ، أما في الخارج فأنتم تعتمدون على أنفسكم .. والاعتماد على الحكومة هو الكسل ، والاعتماد على النفس هو العمل والإنتاج !. إن خريج الجامعة يقبل أن يعمل في الخارج كهربيا أو سباكا أو (جرسونا) لأنه مضطر أن يعمل بحكم مسئوليته عن نفسه ، أما في مصر فهو لا يقبل إلا أن يكون موظفا لأنه يلقى مسئولية نفسه على الحكومة .!

وقال الشاب :

- المهم كم يكسب هنا ؟ وكم يكسب هناك ؟

وخبط العجوز على مائدة المقهى في غضب قائلا :

- أنتم أغبياء !. إنكم لا تحسبون الاختلاف الكبير في تكاليف المعيشة !. إن عشرة جنيهات هنا في مصر تساوى على الأقل مائتى جنيه هناك !. ونسبة الغلاء هنا لا تزيد على خمسة في المائة من نسبة الغلاء هناك !. وهنا في مصر أصبح الأسطى يتقاضى ستة أو سبعة جنيهات في اليوم وهي توازى في السعودية ستين أو سبعين جنيها ، بالنسبة لتكاليف المعيشة .. والعامل العادى أو الفلاح وصلت يوميته ما بين سبعين ومائة قرش في اليوم وهي توازى هناك عشرة جنيهات.. أنتم هناك لا تكسبون أكثر ولكنكم تعملون أكثر !.

وقال الشاب وهو لا يزال ساخرا :

- وماذا تقترح ؟

وقال العجوز في حدة :

- أقترح أن تتخلى الحكومة عن مسئولياتها عنكم .. أن تلغى مسئولياتها عن تعيين الخريجيين وأن تعترف بنظام البطالة حتى تدفعكم إلى العمل .!

وقال الشاب في حماس :

- هذا اعتداء على الاشتراكية .

وضحك العجوز في سخط :

- إن كل ما تفهمونه من الاشتراكية هو الاتكال على الحكومة ، إن يوغوسلافيا أقرت نظام البطالة برغم أنها دولة شيوعية .. وحاول أن تقرأ لتفهم ..

وقال الشاب وهو مستمر في سخريته :

- وماذا تقترح عليّ أن أعمل ؟..
وقال العجوز :
- بدل أن تجلس على المقهى قم واعمل (جـرسـونا) حتى لا تكتفى بمرتب وظيفتك !.
وصـاح الشـــاب ضــاحكا دون أن يتـحـــرك من مـقـعـــده مـقلدا « جرسونات » المقاهى البلدية :
- « واحد قهوة مضبوط للأستاذ يا جدع !» .

٣

قال الشـاب فى هدوء وتواضـع وكأنه يعترف بأستاذه العجوز :
- لقد كنت ثائرا ضـدى فى لقاء الأسبـوع الماضى وقلت فى ثورتك إننا نعيش مرحلة استعمار اقتصادى .. ماذا كنت تقصد ؟
وقال العجوز كأنه يعتذر :
- لقد غاليت فى استعمال هذا التعـبير ، ونحن العجائز عشنا وفوق ألسنتنا كلمات سهلة .. الاستعمـار .! الاحتلال !. الثورة !. إلى آخر مثل هذه الكلمات ..
وقال الشاب فى إلحاح :
- ولكن لابد أن هناك ما أوحى إليك بهذا التعبير:.. أى.. «الاستعمار الاقتصادى » ..
وقال العجوز :
- ربما كنت متاثرا بثقل الديون الخارجية على مصر ، فتذكرت أيام الخديو إسـماعيل عندما ثـقلت عليه الديون إلى حد أن أتفـقت بريطانيا وفرنسا على احتلال مصـر اقتصاديا وتحكمت فى كل مليم من الملاليم المصرية .. وأنت تعرف طبعا بقية القصة ..
وقال الشاب فى فزع :
- هل يمكن أن يعيـد التاريخ نفسه ، أي يتفق الدائنـون بعضـهم مع بعض علينا ؟.
وقال العجوز فى حماس حتى ينقذ الشاب من الفزع :
- لا ، والتاريخ لا يعيـد نفسه ، ولكن العقليـة السياسيـة تسير فى خط واحد منذ أيام سيدنا آدم .. خطة ترسـمه المصالح الذاتية .. إن من

مصلحة مصر أن تقترض ومن مصلحة روسيا أو أمريكا أو فرنسا أو السعودية أن تقرضها .. لا شيء لوجه الله !. وعندما تتعارض المصالح تختل العلاقات بين الدائن والمدين ويصبح اقتصاد الدولة فى خطر .

وقال الشاب كأنه يطمئن نفسه :

– ولكن المدين دائما أقوى من الدائن ..

وقال العجوز فى ابتسامة ساخرة :

– هذا كلام فارغ !.. وقد ردده جمال عبدالناصر وكأنه يتهم كل من يقرض مصر بالغباء ، وتأثرت أيامها المعاملات الاقتصادية بين مصر والخارج مادامت مصر أعلنت أنها أقوى من الدائن : أى أن من حقها عدم تسديد الدين ومن حقها التهرب من دفع الأقساط !. بل إن هذه الكلمة قيلت أيامها كأن من حق عبدالناصر أن يضرب دائنيه « بالشلوت » ! والواقع أن الدائن مهما أتعبه المدين فى تحصيل قيمة الدين فهو الأقوى .. والاتحاد السوفيتى لن تضيع عليه قيمة الديون التى دفعها حتى لو توقفنا عن تسديد الاقساط !. لقد أخذ قيمة هذه الديون فى بناء كيانه الدولى .. أى أنه أعتبر جزءا من هذه الديون كأنه رشوة لمصر حتى تدخل ضمن التخطيط العالمى الذى وضعه .. وقد حقق الكثير لنفسه من هذا التخطيط .. والجزء الباقى من الدين جمده فى توريد قطع الغيار .. السد العالى فى حاجة إلى قطع غيار ، والمصانع التى استوردناها من روسيا كلها فى حاجة إلى قطع غيار .. ونحن ـ حتى لو استنزفنا كل اقتصادنا ـ مضطرون أن ندفع أقساط الدين السوفيتى ، وخاصة الديون الصناعية ـ أى التى ليست عسكرية ـ حتى لا تحرمنا موسكو قطع الغيار ، فتصيب كل حياتنا الصناعية بالشلل ، كما حاولت أن تفعل فى حياتنا العسكرية عندما توقفت عن إمدادنا بقطع غيار الطيارات .. يا ابنى ، إن الروس ليسوا أقل ذكاء منا ولا كانوا أقل ذكاء من المرحوم عبدالناصر !.

وقال الشاب فى حدة :

– إنى مازلت مقتنعا بأن المدين أقوى من الدائن .. إن دول البترول بما فيها دول البترول العربى تمد الآن الدول الكبرى بما فيها أمريكا بالقروض : أى أن المدين هو أمريكا أو بريطانيا أو فرنسا فهل يصبح أى دائن لهذه الدول أقوى منها ؟

وقال العجوز فى هدوء :

– هناك فرق كبير : إن الدول الكبرى تقترض لا لأنها دول فقيرة فى حاجة إلى قروض ، ولكن فقط لتوسيع قدرتها الإنتاجية ، وهى تعتمد على أن قوة استغلالها لرأس المال أقوى من رأس المال نفسه .. إنه وضع أشبه باستخدام الدول المتأخرة لعلماء وخبرة وتكنولوجيا الدول المتقدمة.. أو أن تضع الدولة البترولية أموالها فى بنك وهى مطمئنة واثقة أنها ستحصل على أكبر نسبة من الأرباح وأنها تستطيع دائما أن تسترد هذه الأموال سواء وضعتها فى قروض أو فى استثمارات أو فى أسهم شركات .. ولهذا فحتى الدول العربية .. أخواتنا وأولاد عمومتنا .. يقدمون أموالهم لبناء حضارة أوربا وأمريكا ، ويضنون ويبخلون ويترددون إذا ما عرض عليهم استغلال أموالهم فى مصر !.. إن معمر القذافى اشترى أسهما بالملايين فى شركات فيات الإيطالية ؛ لأنه لا يضمن أن يساهم بهذه الأموال فى شركة عربية ولا حتى فى شركة ليبية .! ودولة عربية بترولية أخرى اشترت فندقا فى لندن برغم أن على أرضها مشروعات لإقامة خمسة فنادق لم يبدأ إنشاء واحد منها بعد ! ثم ظهر أن الذين حصلوا على تصاريح إقامة هذه الفنادق نصابون !.

وقال الشاب فى قرف ويأس :

– معنى كلامك أن لا طريق أمامنا إلا الاستسلام للاستعمار الاقتصادى !. يا أصحاب الدولارات تعالوا واستعمرونا .!

وصرخ العجوز فى غضب :

– هكذا أنتم تسرعون بالاستسلام حتى تعفوا أنفسكم من التفكير ومن متاعب البناء .! الطريق هو أن تحمى نفسك من الاستعمار الاقتصادى : أى أن تكون فى مستوى رأس المال الأجنبى الذى تقترضه أو تستثمره .. أن تعامل رأس المال رأسا برأس أى تأخذ وتعطى !. أن تصبح مجال إنتاج لا مجال (سفلقة) والحياة على حساب غيرك !. إن الرئيس السادات اكتشف صدفة أن مصر عقدت قرضا مع ألمانيا ثم مضت ستة أشهر ولم يتحرك أحد لاستغلال هذا القرض !. ولعل الرئيس يعلم أن هناك قروضا أخرى مرت عليها سنوات لم تستغل أو استغلت بحيث عجزت عن سداد أقساطها .. ولعله يعلم أن هناك مشروعات استثمارات كثيرة لم يبدأ تحقيقها برغم مرور سنوات ! وإن

ما يحدث فى كثير من البلاد العربية يحدث فى مصر أيضا : أى يحصل على تصريحات هذه المشروعات نصابون لا يعتمدون مسبقا على أية قوة رأسمالية ، ولكنهم يحصلون على أوراق الإذن بالمشروع ثم يطوفون بها بعد ذلك بحثا عن الممول ! وغالبا لا يجدونه ، لأنهم هم أنفسهم ليست لهم قيمة عالمية محترمة .. وربما كان الأجدى أن ننشىء وزارة قائمة بذاتها نسميها « وزارة متابعة الديون والاستثمارات الأجنبية » بدل أن نترك هذه الديون والمشروعات الاستثمارية تائهة بين عشرات الوزارات وعشرات السماسرة والوسطاء !.

وقال الشاب فى فرح :

– هل تضمن لى درجة أعلى فى هذه الوزارة ؟. إنى فى الدرجة الخامسة وسلم الدرجات مغلق فى وجهى أنا .

وفتح العجوز صفحات الجريدة وأخفى وجهه حتى لا يرى المستقبل الجالس بجانبه .!

٤

قال الشاب وهو يتنهد فى استسلام :

– هل تدرى ما أحس به ؟ إنى أحس كأننا جميعا نعيش حالة انتظار !. كأن الشعب كله واقف على محطة أتوبيس !.

وقال العجوز فى رفق :

– أى أتوبيس تنتظر ؟.

وقال الشاب مبتسما كأنه يسخر من نفسه :

– حتى الأتوبيس الذى أنتظره . أنتظر أن أعرفه وأعرف إلى أين يتجه بى .؟

وقال العجوز :

– هذا استسلام للقدر ، وعجز فى فرض شخصيتك !. يجب أن تحدد ما تريد حتى تحدد الطريق إلى ما تريد وحتى تحدد الأتوبيس الذى تنتظره ليسير بك فى هذا الطريق !.

وقال الشاب وهو يزداد يأسا :

– إن ما أريده محدد .. كلنا متفقون على أننا نريد تحرير الأرض ونريد الرخاء ونريد وحدة البناء الداخلى .. الحكومة نفسها متفقة معنا

فيما نريد ، ولكن الحكومة أيضا واقفة معنا على محطة الانتظار !. وأعتقد أنها لم تنته بعد من اكتشاف نوع الأتوبيس الذى تنتظره معنا !. إننا ننتظر والصحف وكل من يتكلم إلينا يبدو حريصا على أن يضعنا فى حالة انتظار حتى بالنسبة للتفاصيل الفرعية .. إننا فى انتظار تحديد مصير نظام الأحزاب .. وفى انتظار تحديد الكيان الواقعى للحزب الحاكم .. قد يكون حزبا مقدرا له أن يحكم خمس سنوات ثم يترك الحكم لحزب آخر .. وقد يكون حزبا مقدرا له أن يحكم إلى الأبد : أى ليس فى حقيقته حزبا ولكنه القوة التى تمثل استمرار ثورة ٢٣ يوليو ، كالحزب الحاكم فى يوغوسلافيا وفى بقية الدول الاشتراكية التى تتعدد فيها الأحزاب .. ونحن فى انتظار نتيجة التحقيق فى صفقة البوينج وتتنابنا الهواجس ونحن ننتظر : فقد ينتهى التحقيق إلى أن هناك جريمة ، وقد ينتهى إلى أن عالم شركة مصر للطيران لا يضم إلا الملائكة الأطهار ! . وقد لا ينتهى التحقيق أبدا وإنما يستمر إلى أن يصاب بالشلل ! وحوادث بيلا .. و .. و ... وقد يكون لك أو لى رأى فى كل ما يجرى ، ولكن رأيك ورأيى لا يساويان شيئا أكثر من الدردشة على المحطة فى انتظار الأتوبيس !. لن نخرج من حالة الانتظار إلا إذا ركبنا الأتوبيس .. إن ركاب الأتوبيس لا ينتظرون ، ولكنهم يتحركون فى هدوء وهم مطمئنون إلى الوصول ، ما داموا قد اختاروا الركوب .. ولكن أين الأتوبيس ؟.

وقال العجوز :

– هل درست واكتشفت المحطة التى تقف عليها .؟

وقال الشاب :

– إنها محطة انتظار والسلام ..

وقال العجوز :

– لا ، هناك فرق بين المحطات : محطة قد يصل إليها الأتوبيس بعد ساعة ، ومحطة أخرى قد يصل إليها بعد سنة .! هل تدرى كم مضى علينا ونحن فى محطة الانتظار ؟. أكثر من عشرين سنة !. وقد سرنا على أقدامنا مسافة محطة واحدة ثم عدنا ننتظر الأتوبيس !.

وقال الشاب فى حدة :

– لماذا لا يصل الأتوبيس ؟.

وقال العجوز فى هدوء :

– لأن الأتوبيسات كالأسلحة .. صناعة أجنبية .. المهم أن نفهم أين نقف حتى لا يخدعك أى أتوبيس يمر بك !

وقال الشاب فى تساؤل ساخر :

– أين نقف يا سيدى العلامة ؟

وقال العجوز بلا غضب :

– إننا نقف فى محطة تناقضات !. إننا فى حالة حرب ونعيش السلم، وفى حالة عجز اقتصادى ونعيش فى رخاء واسع إلى حد أننا نشترى التليفزيون الملون .! وفى حالة تناقض طبقى مفضوح بين ما أسميه الطبقة الاشتراكية والطبقة الرأسمالية ونعيش فى نظام تحالف .. وهذه هى محطة الانتظار .!

وصرخ الشاب وهو يقفز واقفا على قدميه :

– إذن لنبحث عن محطة أخرى ، محطة الحرب وحدها والعجز الاقتصادى وحده وسيطرة الطبقة الواحدة أى الطبقة الاشتراكية !

وقال العجوز وهو يشد الشاب ليعيده إلى مقعده :

– لا يمكن .! لأن أى محطة ستفرض عليك الانتظار وحتى تتحمل الدولة مهمة التخفيف عنك .. وكل ما يحدث حولك هو تعمد التخفيف عن ملل وحدة الانتظار !. ومشروع تعدد الأحزاب ليس إلا مشروعا للتخفيف عنك سياسيا ، ومشروع رفع الأجور والمرتبات ليس إلا مشروعا للتخفيف عنك اقتصاديا ومشروع الانفتاح ليس إلا مشروعا للتخفيف عنك دوليا .. و .. و .. إلى أن ننتهى من صناعة الأتوبيس !.

وصاح الشاب :

– قلت : إننا نستورد الأتوبيس ..

وقال العجوز مبتسما :

– لا ، إننا نصنعه .. ولكننا نصنعه فى الخارج بأموالنا وعلى حسب متطلباتنا .

وقفز الشاب واقفا وبدأ يجرى مبتعدا وصاح به العجوز :

– إلى أين ؟

وقال الشاب :

– سأحشر نفسى فى أى أتوبيس ، وأتخيل أنى فى طريقى إلى

الوصول ، حتى لو لم يصل بى إلا إلى مزيد من غلاء الأسعار وإلى محطة أخرى من محطات الانتظار !. انتظار المجهول !.

٥

قال الشاب وهو فى حيرة أقرب إلى الرفض :

– هل تصدق أن الشيوعيين هم المسئولون عن كل ما حدث ؟

وقال العجوز وهو يلوى شفتيه فى قرف :

– لا يهم أن أصدق أو لا أصدق .!

وقال الشاب فى ثورة :

– كيف لا يهمك وقد كنا على حافة الخراب الكامل ؟

وقال العجوز :

– لا يهمنى أن أعرف من المسئول ؟ ولكن يهمنى أن أعرف الأسباب التى أدت إلى تحقيق أغراض هذا المسئول !. وإذا كان هذا المسئول يعبر عن أهداف جهات أجنبية . أى لو افترضنا أنه يحقق تخطيطا وضعه الاتحاد السوفيتى أو معمر القذافى ، فإن التدخل الأجنبى لقلب نظم الحكم حالة مستمرة فى كل الدول الصغيرة !. إن حرب لبنان كانت نتيجة تدخل أجنبى قام بتنفيذه عملاء ، ومحاولات الانقلاب التى وقعت فى السودان كانت نتيجة تدخل أجنبى !. بل إن الاجراءات الأخيرة التى اتخذت فى الكويت كحل البرلمان وفرض الرقابة على الصحف كانت لصد تدخل أجنبى ! . والمهم دائما هو البحث عن الباب الذى دخل منه هذا الأجنبى !. فى لبنان كان الباب هو الوضع الطائفى العجيب الذى لا يزال قائما هناك .. وفى السودان كان الباب هو الرجعية المهدية التى لا يزال لها أتباع ثم فقدان الحرية السياسية !. وفى الكويت كان الباب هو بقايا القبلية وانفلات معايير الحرية .. أما الأسباب فى مصر فهى العجز الاقتصادى أو على الأصح الفقر الاقتصادى !

وقال الشاب فى ثورة :

– الروس هم المسئولون عن هذا الفقر ..

وقال العجوز ساخرا :

– مرت سنوات كنا نتهم فيها الأمريكان بأنهم هم المسئولون عن فقرنا ، هم الذين سلطوا علينا البنك الدولى ، وهم الذين خربوا تعاملنا

مع أوربا الغربية وجميع الدول المتحالفة معـهم ، وهم الذين انتهوا بنا إلى إغلاق قناة السـويس ، وهم الذين تسببوا فى أن نضع عنـق مصر بين أصـابع الروس !. أى لا فـرق بين الروس والأمـريكان .. كل منهم يخطط لمصالحه .!

وقال الشـاب فى سخط :

– ولكن أزمـة الفقـر لم تصل إلى هذا الحد إلا بعـد انقلاب مـوقف الروس علينا ..

وقال العجوز وهو يزفر أنفاسه فى ملل :

– حـتى لو لم نكن فى أزمـة فقـر لوجد الـروس بابا آخر ينفـذون منه .. إن لبنان لم يكن بلدا فـقيرا عندمـا وقع ضحيـة التدخل الأجنبى ولا الكويت ولا السودان !

وصرخ الشـاب :

– ماذا تريد أن تقول ؟. لم أعد أفهمك !.

وقال العجوز :

– أريد أن أقـول : إنه مـن السـهل اكـتـشـاف مـدبرى الحـوادث واكـتشـاف العـملاء واكـتـشاف خطوط التـدخل الروسـى أو التـدخل القذافى ، ولكن الصعب هو حل الأزمة التى أدت إلى كل ذلك ..

وقال الشاب ساخرا :

– وكيف تحل الأزمة يا أستاذ العباقرة ؟..

وقال العجوز دون أن يغضب :

– فى رأيى أنها يجب أن تحل داخليـا حتى نستطيع أن نستـفيد من الحلول الخارجية .

وقال الشاب كأنه يصرخ مستغيثا :

– كيـــف ؟

قال العجوز فى هدوء :

– بأن نجلس على كـرسى الاعـتـراف الاقتـصـادى والمذهبى .. أن نعتـرف أن مجتمـعنا ليس مجتـمعا اشـتراكيا خـالصا ولكنه مجـتمع اشتراكى رأسمالى كالمجتمع البريطانى ومجتمع السويد .. والاشتراكية تفرض على الدولة مسئولية الفرد .. مسئولية إطعامه وتعليمه وتشغيله وأيضا الترفيه عنه .. والرأسمالية تترك الفرد مسئولا عن نفسه فى كل

شىء .. ولذلك يجب أن نجمع بين الوضعين .. أى نحصر مسئولية الدولة بين الذين يعيشون نظاما إشتراكيا كالموظفين أو عمال المؤسسات العامة أو فلاحى الأرض المملوكة للدولة ، أما الآخرون فلا يستفيدون من إعانة الدولة وليس بينهم وبيننا إلا القانون .. لا يعقل أن يكون بيننا مليونير ثم تعينه الدولة بدفع فرق سعر السماد الذى يسمد به أرضه ، أو بدفع مصروفات تعليم أولاده !.

وقال الشاب :

– والنتيجة ؟.. ما هى نتيجة كل ذلك ؟

قال العجوز :

– النتيجة هى التخفيف من أعباء الدولة الاقتصادية وفى الوقت نفسه حصر الطبقة الرأسمالية بحيث يسهل جباية الضرائب منها مما يرفع دخل الدولة .. إن الدولة تطبق هذا النظام فعلا ولكنها تطبقه فى السر وعلى حياء : فهى مثلا تصنع أنواعا من رغيف الخبز .. كل رغيف له ثمن .. أى أنها تعترف بالتفريق بين الأغنياء والفقراء .. الأغنياء يأكلون العيش الأبيض والفقراء يأكلون العيش الأسود !. وهى تبيع التليفزيون الملون .. وطبعا تبيعه للأغنياء فقط ومن داخل الميزانية التى تشمل الأغلبية الفقيرة .. إنى أتمنى أن نعلن هذا الوضع بصراحة إلا إذا عدنا وأوقفنا الحرية الاقتصادية التى أعلناها أخيرا وجعلنا من الشعب كله طبقة واحدة .. طبقة موظفين !.

وقال الشاب وكأنه لا يفهم :

– ولكنك تتجاهل مسئولية دول البترول العربى !.

وقال العجوز :

– إن ما تدفعه دول البترول – لو دفعت – يجب أن يوضع داخل نظام اقتصادى محدد ..

وقال الشاب فى يأس :

– لا أستطيع أن أفكر مثل تفكيرك ..

وقال العجوز كأنه يسخر من نفسه :

– يا بنى ، إننا لا نفكر !.. إننا نحلم ..!

فبراير ١٩٧٧

١

قال الشاب وهو يزفر أنفاسه فى زهق:

– تصور أن مرتبى أربعون جنيها يخصم منه حوالى عشرين فى المائة ويصلنى منه ٣٢ جنيها وعشرون قرشا فى حين أن عبده السباك لا يقل دخله اليومى عن أربعة جنيهات : أى يصل فى الشهر إلى مائة وعشرين جنيها دون أن يخصم منه ولا مليم واحد .. لماذا .. لماذا يا إخوانا .. لماذا يا ربى .؟

وقال العجوز وبين شفتيه ابتسامة إشفاق :

– لأنك موظف .

وصرخ الشاب :

– يعنى إيه موظف . ! يعنى « مجرم محكوم » علىّ بخراب البيت !. ولا يعنى « مليونير محكوم » علىّ بأن أصرف على البلد من عرقى !

وقال العجوز وهو يبتسم ساخرا :

– لا . موظف .. يعنى أحد أبناء الطبقة السهلة !

وعاد الشاب يصرخ :

– يعنى إيه طبقة سهلة ؟

وقال العجوز :

– يعنى الطبقة التى يسهل التحكم فيها .. تكفى كلمة لترتفع مرتبات كل الموظفين، وكلمة لتنخفض مرتبات كل الموظفين، وكلمة لنقل موظف وكلمة لترقية موظف، وكلمة ليدفع الموظف ضريبة الدفاع وضريبة التأمين الصحى وضريبة المعاش وضريبة السماح له بالبقاء على قيد الحياة .!

وقاطعه الشاب صارخا :

- عبده السباك .. ومصطفى الصرماتى .. وخليل البنا .. والمليونير عاشور الذى يتعامل بالدولار والاسترلينى والريال السعودى والفرنك الفرنسى .. كيف نتحكم فيهم .؟

وقال العجوز :

- هذه هى الطبقة الصعبة : فالموظفون من أولهم إلى آخرهم ليسوا سوى أرقام مسجلة فى دفاتر الدولة .. تفتح الدولة دفاترها وتتحكم فى أرقامها .. ولكن عبده السباك ليس رقما ! إنه شخصية كاملة فى مواجهة الدولة فكيف تتحكم فيه ؟ كيف تعرف كم عملية قام بها فى كل يوم ؟ وكم ربح من كل عملية ؟ . إن دفاتر عبده السباك ملك خاص له لدرجة أنه قرر أن يستغنى عنها ! . وربما فكرت الحكومة أن تعتمد فى الحصول على حقها على رفع ضريبة الترخيص بالعمل، ولكن معظم الذين يعملون ليسوا فى حاجة إلى تراخيص ؛ لأنهم يعملون بصفة خاصة ويزاولون الصفقات فى المقاهى أو النوادى أو فى بيوتهم بما فيهم المليونير عاشور ! . وربما اعتمدت الدولة على أمانة المواطن كى يسدد حق بلده عليه .. ولكن الأمانة لا تتحرك إلا من وراء اقتناع .. والاقتناع مفقود . ! مفقود . ! مفقود يا ولدى !

وقد تلجأ الدولة إلى طريقة أخرى لفرض الضرائب على الطبقة الصعبة .. أن يحصلوها من المنبع لا من المصب .. أى إذا كان الفنان عدوية يحصل على ألف جنيه كل ليلة كنقوط فإن الدولة تحاسب صاحب الكباريه لا أحمد عدوية ! . وحتى بالنسبة لعبده السباك فإن صاحب البيت يجب أن يخصم منه الضريبة عندما يدفع له ويوقع له وصلا ثم يقدم الوصل إلى مصلحة الضرائب .. و « ودنك منين يا جحا !» النتيجة دائما واحدة ! . لذلك فإنه يقال : إن النظم الشيوعية والاشتراكية هى أسهل نظم الحكم بالنسبة للحاكم ؛ لأنها تجعل من الشعب كله طبقة موظفين : أى طبقة سهلة للتحكم فيها !

وقال الشاب وكأنه يبحث عن طريق النجاة :

- أى أن الطريق الوحيد هو أن نجعل من عبده السباك وعاشور المليونير موظفين حتى نتساوى معا فى تحمل عبء الإنفاق على الدولة ؟

وقال العجوز بسرعة :

- لا ، لا . إنك بذلك تدعو إلى أن تكون الدولة غنية والشعب فقيرا !. كالدولة السوفيتية والشعب السوفيتي .!

وقال الشاب في سخط :

- إذن ما هو الطريق لنسيطر على الطبقة الصعبة كما نسيطر على الطبقة السهلة ؟

وقال العجوز في لوم :

- سبق أن قلت لك : إن الطريق هو أن نعترف باننا لسنا دولة اشتراكية ولا دولة رأسمالية، ولكننا دولة تجمع بين الاثنين في طبقتين.. وبعد ذلك تعامل كل طبقة على حدة وبقوانين خاصة .. مثلا إن ثمن أنبوبة البوتاجاز يكلف الدولة جنيهين .. مائتي قرش .. وتبيعها للناس بخمسة وستين قرشا وتتحمل فرق السعر نيابة عنهم .. لماذا تتحمل الدولة فرق السعر عن رجل يكسب ألف جنيه في الشهر أو حتى مائة جنيه ؟ . بل لماذا تعينه على تحمل ثمن السكر أو الأرز أو السماد أو الفراخ ؟ . إن الدولة لو اعترفت باختلاف الطبقات فإنها تستطيع أن توفر على الأقل أربعين في المائة من ميزانيات الدعم ! .. وفي الوقت نفسه تلغى السوق السوداء ؛ لأن الذي يحدث الآن هو أن الفقراء يشترون بالبطاقة ويبيعون ما يشترونه للأغنياء . !

وقال الشاب :

- كيف تكتشف الدولة إذا كان هذا المواطن غنيا أو فقيرا ؟ إن الدولة لا تزال تعامل عبده السباك على أنه فقير برغم يكسب أكثر من عشرة موظفين من أمثالي.!

وقال العجوز :

- الطريق هو إعادة تنظيم البطاقات التموينية التي تحدد الأسعار الرسمية بحيث لا تمنح إلا لمن يقدم إثباتا لمستوى دخله .. فإذا كان دخله أقل من مائة جنيه يمنح بطاقة أما الأكثر من مائة جنيه فهو مسئول عن نفسه .. وتتسع مجالات هذه البطاقات : أي تشمل التعليم المجاني والعلاج المجاني وكل ما هو مجاني !

وقال الشاب في استهتار :

- «بأه ده اسمه كلام» !

وقال العجوز ضاحكا :

- إنه كلام المقاهى !

٢

قال الشاب وعيناه ضائعتان فى حيرة :

- هل وافقت ؟

وقال العجوز فى هدوء الواثق من نفسه :

- المفروض أن يوافق كل (زبائن) المقهى .

وقال الشاب الحائر :

- لماذا ؟

وقال العجوز الهادئ :

- لأنها قرارات لا تمس حريتهم ، لا تمس الحرية الفكر ولا حرية الكلام ! . إنها قرارات تمس حرية التنظيمات السرية وحرية المتجمهرين بقصد التخريب ، والمقهى ليس تنظيما سريا .. بالعكس إنه منتدى مفضوح ولا يتجمع (زبائنه) للتخريب ، ولكنهم يتجمعون للدردشة السياسية .. مجرد كلام .. ولا يتحركون سياسيا إنما يتفرجون .. مجرد فرجة فى الشارع السياسى كالفرجة على فترينات شارع الموسكى .. ولهذا كان مقهى الأغلبية فى مصر .. أقصد أغلبية الشارع لا أغلبية مجلس الشعب ! .

وقال الشاب :

- ولكن هناك حقوقا ضاعت .. كحق الإضراب .

وقال العجوز :

- الإضراب ليس حقا قائما بذاته، ولكنه حق فى مواجهة حق صاحب العمل فى التحكم فى العمل .. فإذا فقد صاحب العمل حقه فقد العامل أيضا حق الإضراب .. إن الدولة والرأسمالية تحتفظ للعمال بحق الإضراب ؛ لإنها تحتفظ لأصحاب العمل بحق طرد العامل .. المهم .. هل وافقت أنت ؟

وقال الشاب كأنه يتحسر على نفسه :

- أنا لا وافقت ولا رفضت !

وقال العجوز فى لوم :

- لماذا . ؟ إنها قضية، وطنية .. لماذا هربت ؟

وقال الشاب :

- لأنى حائر ! . حائر مع نفسى .. أين أنا .. ما هو مذهبى السياسى الذى أهتدى به لتحديد موقفى .. وأنت تعلم أنى رفضت الماركسية .. لم أقتنع بها .. وفى الوقت نفسه لا يمكن أن ارتبط بالرأسمالية لأنى لا أملك رأس مال يضطرنى أن أدافع عنه ويغرينى بأن استغله فيما يسمونه الحرية الاقتصادية ؟ . ولا يمكن أن انضم إلى مذهب من المذاهب السياسية التى ترتكز على الإسلام أو على المسيحية ؛ لأن الإسلام ليس مجرد مذهب سياسى ، إنه دين ، وإيمانى بدينى أعم وأشمل من أن أحصره فى فكرى السياسى !

وقال العجوز :

- المفروض أنك مقتنع بالمذهب الاشتراكى .. إذا كانت الرأسمالية هى مذهب طبقة أصحاب رءوس الأموال ؛ وإذا كانت الماركسية هى مذهب الطبقة العاملة، فإن الاشتراكية هى مذهب الطبقة الوسطى .

ونظر الشاب إلى العجوز فى قرف وقال :

- كلام فارغ . ! وأنت لم تعودنى الكلام الفارغ .. إن الاشتراكية هى الصورة المائعة لكل المذاهب : الماركسيون يقولون عن أنفسهم : إنهم اشتراكيون ! والرأسماليون يقولون : إنهم الاشتراكيون ! والإخوان المسلمون يقولون : إنهم أئمة الاشتراكية ! . لم يعد فى العالم كله دولة لا تدعى أنها اشتراكية ! . إن الاشتراكية أصبحت حذاء لكل أنواع الحكم وكل أنواع التنظيمات السياسية !

وكل حكم أو كل تنظيم يفصل حذاءه الاشتراكى على مقاسه !

وقال العجوز كأنه يدافع عن نفسه :

- كن هادئا وحتى تفسر حيرتك يجب أن ترجع إلى التاريخ .. تاريخ الثورة التى تعيشها مصر حتى اليوم .. ثورة ٢٣ يوليو .. إنها لم تكن ثورة مذهبية ولكنها ثورة وطنية . لم تكن ثورة ماركسية ولا رأسمالية ولا اشتراكية ولا ثورة إخوان مسلمين .. وكانت تضم أفرادا

من كل هذه المذاهب، ولكنهم قاموا بها بصفتهم الوطنية لا بصفتهم المذهبية .. ومع استمرار الثورة كان من المستحيل أن يستمر هذا التناقض المذهبى داخل الثورة ، فصفيت كل المذاهب وبقى الفكر الوطنى مجردا من أى خط مرسوم ، مرتبطا بالوجود الوطنى والمقاييس الوطنية والمبادىء الوطنية .. الجلاء .. الحرية .. الرخاء ..و..و.. ولكن الثورة كانت فى حاجة إلى تنظيم شعبى، والتنظيم الشعبى لا يمكن أن يقوم على مجرد الروح الوطنية والشعارات الوطنية، يجب أن يربط الناس بمذهب .. ولم يكن قادة الثورة فى مستوى فكرى يمكنهم أن يصلوا إلى أيدلوجية جديدة .. إنهم مثلنا شبوا على مجرد الإحساس الوطنى، وحكموا برفض كل المذاهب التى كانت قائمة .. ثم إن الفكر أو المذهب الذى يقوم قويا هو الذى يدعو إلى التغيير إلى حد أن ينتهى بثورة .. ولكن الثورة كانت قد قامت فعلا ولا يمكن أن تدعو إلى الثورة على ذاتها .. ولذلك فعندما حاول عبد الناصر أن يضع للثورة أيدلوجية، وأصدر الميثاق لم يكن له أثر شعبى ؛ لأن صاحبه يحكم فعلا والشعب يترك له المسئولية دون أن يحس بحاجته إلى المشاركته فى هذه المسئولية حتى ولو بمجرد الاقتناع بالميثاق الذى أصدره ! . ولهذا بقيت الثورة بلا مذهب محدد ولا شعار خاص إلا شعار تحالف قوى الشعب العامل، وهو ليس شعارا خاصا بثورة ٢٣ يوليو وحدها . !

وقال الشاب :

- أى أننا مازلنا نبحث عن أيدلوجية ثورة ٢٣ يوليو .

وقال العجوز :

- هذا صحيح برغم أنه مضى علينا خمسة وعشرون عاما ونحن نعيش الثورة .. وهذا هو السبب فى أن كل المذاهب الأخرى لاتزال تعيش فى داخلنا .. لم تستطع أية قوة أن تقضى عليها .. لقد اعتقل عبد الناصر كل الشيوعيين وأبقاهم فى المعتقلات خمس سنوات وأخرجهم ليعيشوا بين أصابعه واعتقل الإخوان المسلمين أكثر من عشرين عاما ولم يرحمهم إلى أن رحمهم أنور السادات، وطبعا سبق كل هؤلاء الرأسماليون والإقطاعيون .. وبرغم ذلك فالشيوعيون لا يزالون شيوعيين، والإخوان لايزالون إخوانا، والرأسماليون لايزالون

رأسماليين ! . .إن القوة لا تقضى على المذاهب، ولكن الذى يقضى على المذاهب هو مذهب آخر، والتنظيم السياسى هو الذى يقوم على مذهب .. وكان هذا هو سر ضعف كل تنظيمات الثورة كتنظيم الاتحاد الاشتراكى وتنظيم الاتحاد القومى.. وهو لايزال نقطة ضعف حزب الوسط إذا اعتبرناه التنظيم الجديد للثورة .

وقال الشاب كأنه يتهكم :

– ومن الذى يضع لنا هذا المذهب الجديد الذى نريده ؟

وقال العجوز :

– إن الرئيس السادات وضع فكره السياسى كاملا .. ولكن يجب أن تقوم مجموعة أفكار مستقلة بعيدة عن الحكم ليس بينها موظفون ولا يعين أصحابها بقرارات رسمية .. مجموعة تجمع نفسها بحكم إيمانها باستمرار ثورة ٢٣ يوليو وتحاول أن تطرح صورة مذهبية تتعرض لنقاش طويل ودراسات عميقة وقد تستغرق سنوات وبعدها قد نصل إلى أيدلوجية مصرية كاملة ! . إن الموظف حتى درجة الحاكم مرتبط فى كل تفكيره بمطالب الواقع، أما الفكر المستقل عن الوظيفة وعن المسئولية التنفيذية فهو فكر ينطلق إلى المستقبل دون تقيد بالواقع.. ومصر مهما كانت مطمئنة إلى واقعها فهى فى حاجة إلى تحديد المستقبل .. وهذا ما يسمى بالمذهب السياسى .

وقال الشاب وهو يبتسم ساخرا :

– وإلى أن نصل إلى هذا المذهب .. ماذا نفعل . ؟

وقال العجوز ضاحكا :

– ندخن الشيشة .؟

٣

قال الشاب فى فرحة مغرورة :

– يبدو أن كلامنا فى المقهى يصل إلى سكان الشارع السياسى.. سكان المكاتب التى يقف على بابها عسكرى رافع يده « تعظيم سلام..» وأنت تذكر أننا منذ أيام اقترحنا أن يحرم الأغنياء بطاقات التموين حتى نوفر من ميزانية الدعم الذى تدفعه الحكومة للمواد التموينية وغيرها ..

كنا نتكلم .. مجرد كلام ولكن يبدو أن كلامنا وصل إلى وزير التموين فأعلن على صدر الصفحة الأولى من الأهرام أنه يدرس قصر البطاقات على محدودى الدخل .. معنى هذا أن كلام الشارع أصبحت له قيمة . !

وقال العجوز فى ابتسامة وقور :

– هذه صدفة .. فمعظم الجالسين وراء المكاتب السياسية لا يقرءون ولا يسمعون كلام الشارع .. كل منهم يعتقد أنه عبقرى زمانه ويكفيه أن يعقد لجنة من وكلاء الوزراء أو من المستشارين حتى يصل إلى الحل الأمثل ! بل إنى سمعت عن وزراء لا يقرءون الصحف والمجلات المصرية إلا ليطمئنوا إلى نشر ما طلبوا نشره فيها .. وأكثر من ذلك .. أن جمال عبد الناصر اتصل مرة بأحد الكتاب ليبلغه أنه قرأ له رأيا فى إحدى المجلات التى تصدر فى لبنان .. وقال الكاتب : إن هذا الرأى نشرته له مجلة مصرية ونقلته عنها هذه المجلة اللبنانية .. ! وعاد عبد الناصر يقول : إنه لم يقرأ المجلة المصرية ولكنه قرأ المجلة اللبنانية .! وبعدها امتنع الكاتب مدة طويلة عن النشر فسأله عبد الناصر .. لماذا لا تكتب ؟ وأجاب الكاتب : إنى أبحث عن مجلة لبنانية أكتب فيها مادمت سيادتك لا تقرأ المجلات المصرية !

وقال الشاب كأنه يترحم على عبد الناصر :

– ربما لم يكن لديه الوقت ليقرأ كل المجلات والصحف !

وقال العجوز كأنه يشفق على الشاب من جهله :

– لا، ليست مسألة وقت، ولكنها مسألة وضع معين .. عبد الناصر كان يفترض أنه يعلم كل ما يمكن أن تنشره الصحف المصرية، ولذلك فهو ليس فى حاجة إلى قراءتها، أما الصحف الأجنبية فهى ليست كلها تحت أمره، ولذلك فهو مضطر أن يقرأها حتى يعرف ما فيها .. وليس هذا هو المهم .. المهم هو أن يصل إلى سمع كل مسئول كلام الشارع .. كلام المقهى الذى نجلس فيه لنتفرج على مواكبهم .. وأن يؤمن كل مسئول بأنه مهما اختار من عباقرة يحيط نفسه بهم فإن أغلبية العباقرة لاتزال فى الشارع .. وأن سر عبقريتهم أنهم يعيشون فى

الشارع ولو ترك أحدهم الشارع وارتفع إلى الأدوار العليا لضاعت منه عبقريته ! لذابت ! وأصبح مجرد موظف حكومة .

وقال الشاب ضاحكا :

– هل معنى هذا أنى عبقرى لأنى أكتفى بالجلوس فى الشارع السياسى ؟

وقال العجوز كأنه يحلم :

– إن بذرة العبقرية هى الحرية .. فإذا كنت حرا فقد تصل إلى العبقرية .. وليس كل من فى الشارع أحرارا ! أقصد حرية الفكر .

وقال الشاب وهو يسحب ضحكته :

– كدت أضيع وأروح فى داهية بسبب الحرية الفكرية ؟ هل تذكر عندما حدثتك عن عبده السباك وقلت لك : إنه يكسب أربعة جنيهات على الأقل فى اليوم ولا يخصم منه مليم واحد كضريبة، فى حين أنى موظف .. مرتبى أربعون جنيها فى الشهر يخصم منها حوالى ثمانية جنيهات ؟ .. ولقد نقل هذا الكلام ونشر فى الصحف وشمل السباك والنجار والحداد وكل المهنيين .. أو تدرى ما حدث لى ؟ لقد انسدت بالوعة البيت واستدعيت صديقى عبده السباك فرفض أن يأتى لإنقاذ بيتى وقال ساخرا : مادمت تريدنى أن أدفع ضرائب فاستدع مصلحة الضرائب لإصلاح بالوعتك ! إنى أطالب اليوم بإعفاء الأسطى عبده السباك من الضريبة حتى لا أغرق فى البالوعة . !

وقال العجوز مبتسما :

– أخشى أن تشفق الدولة على حالتك وتقرر إعفاء كل المهنيين من الضرائب حتى لا يمتنعوا عن العمل فتغرق فى بيتك !

وقال الشاب ساخطا :

– إنهم حتى دون أن يطالبوا بدفع الضريبة يهاجرون !

وقال العجوز :

– هل سألت نفسك إلى أين يهاجر المهنيون والإخصائيون بما فيهم الأطباء والمهندسون ..؟

وقال الشاب :

– لماذا أسأل نفسى ؟

وقال العجوز :

– لتكتشف أن الهجرة لا تكون إلا إلى الدول الرأسمالية .. دول الاقتصاد الحر .. لم نسمع عن عامل أو طباخ أو طبيب أو مهندس هاجر إلى بلد اشتراكى، أو إلى البلاد التى تسمى نفسها اشتراكية !

وقال الشاب فى حيرة :

– ماذا تقصد ..؟

وقال العجوز كأنه يتباهى بعلمه :

– أقصد أن الحل الوحيد هو أن نرتفع بمستوى الدخل الاشتراكى إلى مستوى الدخل الرأسمالى أو أن نهمل الاشتراكية ونجرب الرأسمالية حتى لا يضطر أبناؤنا إلى الهجرة !

وقال الشاب :

– وكيف يحدث هذا ؟

وقال العجوز مبتسما :

– إنه ما يحدث فعلا .. محاولات للارتفاع بالاشتراكية وفى نفس الوقت محاولات لتجربة الرأسمالية .

وقال الشاب وهو يزفر فى سخط :

– لا أفهمك ! إنك تحيرنى ! بماذا تريد أن تقنعنى ؟

وقال العجوز مبتسما :

– أريد أن أقنعك بأننا فى الشارع نستطيع أن نعرف وأن نفسر وأن نقترح .. وكل الأخطاء التى وقعت كان سببها أن أحدا لم يستمع إلى كلام الشارع .. لو سمعوا كلام الشارع ما حدثت حرب اليمن مثلا ولا تمادينا فى علاقاتنا مع الروس، ولا صدرت قرارات الأسعار الأخيرة التى ألغاها الشارع .. !

وقال الشاب ساخرا :

– وكيف يصل كلام الشارع إلى فوق ؟

وقال العجوز وهو يشد نفسا من خرطوم الشيشة :

– هذه ليست مسئوليتنا ! كل مسئوليتنا هى الكلام !

٤

قال الشاب فى استخفاف :

– نسيت اسمه .. ذكرنى به ولك الشكر .

وقال العجوز ضاحكا :

– اسمه فانس :

وقال الشاب :

– إننا فى حاجة إلى وقت حتى نحفظ اسمه كما سبق أن حفظنا اسم كيسنجر واسم الكوكاكولا واسم البولوبيف .. ماهو اسمه الأول ..؟

وقال العجوز وهو لا يزال يضحك :

– لا أعرف اسمه الأول . وما كنا نعرف الاسم الأول لكيسنجر .. يكفى أن نقول فانس فيعرف الناس أنك تقصد وزير الخارجية الأمريكية، كما يكفى أن تقول كوكا فيعرف الناس أنك تقصد الكوكاكولا .

وقال الشاب ساخرا :

– هل تعتقد أن هناك فرقا بين فانس وكيسنجر .

وقال العجوز فى خبث :

– نفس الفرق بين مشروب الكوكاكولا والبيبسى كولا .. مجرد فرق فى الطعم والاثنان مياه غازية أمريكية !

وقال الشاب فى صوت جاد :

– أعتقد أن الفارق بينهما أكبر من ذلك بكثير ؛ فإن فانس يبدأ من الصفر .. فهذه الجولة التى قام بها فى البلاد العربية والتى أسماها جولة استطلاعية كان يستطيع أن يستغنى عنها ويكتفى بالاستطلاعات التى سبقه إليها كيسنجر وقضى فى جمعها أكثر من أربع سنوات، ثم يبدأ جولته بخطوة أوسع من خطوات كيسنجر، يبدؤها باقتراح مشروع مثلا، أو بالدعوة إلى وضع جديد، ولكنه يبدو كأنه شطب عن كل ما وصل إليه كيسنجر، وقرر أن يبدأ من الصفر، وكأن كيسنجر لا راح ولا جاء .!

وقال العجوز فى لهجة الخبير الدبلوماسى :

- إنك تستطيع أن تعتبر جولة فانس كانها جولة تعارف بالشخصيات التى سيتعامل معها وكانت مقصورة على شرب فنجان قهوة والسؤال عن الصحة والأنجال !

هذه أصول الدبلوماسية .

وقال الشاب وهو أكثر جدية :

- مهما كان فإنى أتمنى لو كان فانس قد سأل أى سؤال خاص بالقضية أن يكون قد تلقى إجابة واحدة .. وهى .. عد إلى أوراق كيسنجر فقد سبق أن سأل هذا السؤال وأجبناه .. وبهذا نستطيع أن نقطع عليه طريق كسب الوقت بحجة دراسة القضية .

وقال العجوز وهو يحاول أن يخفف من حدة الشاب :

- يا بنى كن متفائلا .

وقال الشاب وهو لا يزال محتدا :

- كيف أتفاءل ومستر فانس يقول : إن كل الأطراف قد وافقت على اجتماع مؤتمر جنيف دون شروط مسبقة .. إن ما أفهمه من هذا الكلام هو أن مؤتمر جنيف لو انعقد فقد يستمر انعقاده عشر سنوات .. أو قد يفشل بعد الأسبوع الأول كما فشل المؤتمر الخاص بروديسيا الذى عقد فى جنيف أيضا ! كيف ينعقد مؤتمر بلا شروط مسبقة .. وماذا كانت تجرى وراءه أمريكا طوال أربع سنوات إلا الحصول على شروط كل من الطرفين والتوفيق بينهما بحيث يجتمع مؤتمر جنيف على أساس هذه الشروط ولمجرد التوقيع على عقد الاتفاق .

إن المؤتمرات الدولية التى تجتمع بلا شروط تعنى أنها مؤتمرات محكوم عليها بالفشل مقدما .. والمفروض أن يتم الاتفاق على الشروط أولا ويكون الاجتماع لمجرد التوقيع والإعلان، كما حدث أيام اتفاقية الوفاق بين واشنطن وموسكو، فلم يجتمع نيكسون وبرجنيف إلا التوقيع .

وقال العجوز وهو ينظر إلى الشاب كأنه معجب به :

- كلامك معقول .. والفرق بينى وبينك هو أنى وصلت إلى سن الصبر .. جيلنا كله أصبح جيل الصبر .. وإذا كان الشاب منكم

لا يستطيع أن يصبر إلا عاما واحدا مثلا فنحن نستطيع أن نصبر مائة عام ! ونستمد صبرنا من تنقلات كيسنجر وبعده فانس ! ثم نستمده من قرارات مجلس الأمن والأمم المتحدة ثم نعيش الصبر على تلقى ابتسامات فرنسية وألمانية ويابانية وأمريكية و.. و.. إننا نعيش على دبلوماسية الابتسامات ! هم يبتسمون لنا ونحن نبتسم لهم ..!

وقال الشاب كأنه يشفق على العجوز :

– إنك تظلم نفسك وتظلم جيلك .! لقد كنتم أيضا تعيشون على قرارات مجلس الأمن والأمم المتحدة ولكنكم مع هذا اتخذتم قرار ٦ أكتوبر . ووصلتم بالحرب إلى ما لم تصلوا إليه بالصبر .

وقال العجوز مبتسما فى حسرة :

– تقصد أننا وصلنا بالصبر إلى الحرب .. إن قرار الحرب يحتاج إلى صبر طويل .

وقال الشاب فى حماس :

– لقد صبرتم وصبرنا معكم ست سنوات فقط من عام ٦٧ إلى عام ٧٣ .

وقال العجوز ساخرا :

– لقد صبرنا أكثر من عشرين عاما .. من عام ٥٢ إلى عام ٧٣.. حتى استطعنا أن نحقق انتصارا فى معركة حربية .. وكنا نقتات بالصبر بمناورات فى الكونغو وفى اليمن وبمناورات سياسية وبالدردشة مع الأحداث .

وقال الشاب ضاحكا كأنه يخفف عن العجوز :

– وبماذا تقتات بالصبر الآن .

وقال العجوز وهو يحاول أن يضحك :

– أقتات به داخل ساندوتش أمريكانى يسمونه هناك (هوت دوجز) أى الكلاب الساخنة !

وقال الشاب وهو يمثل الحماس :

– إنى أدعوك للتحرر من الكلاب الساخنة ! وأدعوك إلى طبق بسبوسة بلدى !

وقال العجوز وهو يضحك وكأنه نسى ذكرياته :

– البلدى يكسب .. !

مــارس ١٩٧٧

١

قال الشاب وهو ينظر بعيدا كأنه يحادث نفسه :

– أتدرى ما حدث لى ؟ لقد أصبحت فى حالة نفسية عجيبة تجاه الأخبار السياسية التى أقرؤها فى الصحف .. أصبحت أقرأ فى برود عجيب ! لا أناقش ما أقرؤه .. لا أرفض ولا أوافق .. ولا أثور ولا أهدأ .. لا أفرح ولا أحزن .. إنما أستسلم لما أقرؤه كأنى أقرأ أخبار النشرة الجوية !

وقال العجوز مشفقا :

– كأنك تضع نفسك فى ثلاجة سياسية .. تجمد نفسك حتى لا تتعفن سياسيا ..!

وقال الشاب فى قرف :

– هم الذين وضعونى فى الثلاجة !

وقال العجوز :

– من هم ؟..

وقال الشاب وصوته بدأ يحتد :

– الذين يصنعون الأحداث والأخبار السياسية .. إن مواقفهم تتناقض بين كل يوم وآخر دون أن يفسروا لنا أسباب هذا التناقض ! كل موقف مفاجأة للذين يقرأون الصحف : خذ مثلا الأخبار الأخيرة التى نشرت عن عودة العلاقات بين منظمة التحرير والملك حسين : لماذا عادت هذه العلاقات الآن ولم تعد منذ سنتين أو ثلاث ؟ كنا نعرف أن سبب القطيعة بينهما هو ما جرى فى معركة أيلول الأسود التى تخلص

بها الملك حسين من متاعب منظمة التحرير .. فماذا جرى ؟.. هل نسى الفلسطينيون معركة أيلول ؟ هل قبل الملك حسين عودة كيان منظمة التحرير إلى داخل الأردن ؟.. لا أحد من صانعى الأحداث يفسر أو يتكلم .!

وقال العجوز فى هدوء :

– إن مجرد عودة العلاقات بين المنظمة والأردن خير كبير للوضع العربى !

وصاح الشاب :

– لماذا تأخر هذا الخير كل هذه السنوات ؟.. وأيضا كانت المنظمة ترفض اقتراح أنور السادات بأن تجعل من نفسها حكومة فى المنفى وكانت ترفض مجرد فكرة مؤتمر جنيف . ثم فوجئنا بتصريحات فى الصحف تؤكد أن المنظمة ستؤلف حكومة . وأنها تقبل وتطالب بالاشتراك فى مؤتمر جنيف .. ماذا حدث ؟.. ما هى الأسباب التى دفعت إلى تغيير الموقف ؟.. إن كل ما نطالب به هو أن نفهم .. هو أن نعرف .. هو أن يصارحونا بدلا من أن يحتفظوا بنا فى الثلاجة ..!

وقال العجوز وهو يحاول أن يبدو كأنه يفهم كل شىء :

– ربما كانت الأسباب هى أن المنظمة كانت تعتمد على وضعها فى لبنان ، فلما تغير هذا الوضع بعد الحرب اللبنانية اضطرت المنظمة أن تغير مواقفها بالنسبة للملك حسين وبالنسبة لاتجاه دول المواجهة ..

وقال الشاب :

– هذا رأيك الخاص ونحن متفقون على أن الفلسطينيين يتحدثون عن أنفسهم وليس من حقك أن تتحدث نيابة عنهم .. إنهم عندما يتحدثون نفهم الكثير ونرتاح .. وقد حدث مثلا أن بدأت بعض الدول العربية تسمح بعودة المواطنين اليهود الذين كان قد سبق لهم أن هاجروا إلى إسرائيل . عادت ٤٥٠ أسرة يهودية إلى المغرب .. وعادت سبع أسر إلى العراق و ٣ أسر إلى ليبيا وأسرة واحدة عادت إلى السودان .! وقد كان بعضنا ضد هذا الإجراء .. كيف نسمح بعودة يهود إسرائيل فى حين أن إسرائيل لا تسمح بعودة العرب إليها .. إلى أرضهم ؟ واعتقد بعضهم أن منظمة التحرير لابد أن تتخذ موقفا مضادا.. إلى أن تكلم ياسر عرفات وقال : إن المنظمة لا تحارب اليهود .

ولكنها تحارب الصهيونية . وإن فى داخل إسرائيل نفسها يهودا ليسوا صهيونيين وإنه هو نفسه - أى المنظمة - الذى سعى إلى عودة هؤلاء اليهود إلى داخل أوطانهم العربية .. قال كلاما كثيرا قرأته واقتنعت به واسترحت له .. فلماذا لا يتكلم عن المواقف الأخرى بنفس الصراحة ..؟

وقال العجوز برفق :

- لا تنس أن منظمة التحرير ليست دولة ولكنها ثورة .. والثورة مقيدة بضوابط كثيرة تحدد ما يقال وما لا يقال : إنها مقيدة مثلا بالانقسامات بين تكتلاتها الداخلية .. ومقيدة باحتياجاتها إلى التمويل العربى .. ومقيدة بسعيها لكسب الدول الأجنبية ..

وصرخ الشاب :

- يا سيدى أنا لا أقصد منظمة التحرير وحدها .. إنما أقصد الأسلوب السياسى العربى حتى بين الدول : فجأة تقوم معركة كلامية بين مصر وسوريا . وفجأة تنتهى المعركة وتتبادل مصر وسوريا القبلات ! وحتى آخر لحظة كنا نتغنى بصداقة الاتحاد السوفيتى . وفجأة « نلعن سنسفيل » الاتحاد السوفيتى ! ونقرر أن نخرب بيت أمريكا . ثم فجأة نعلن أن اتكالنا بعد الله على أمريكا ! لماذا نعامل قراء الصحف بأسلوب المفاجآت ؟ ولماذا نعبر عن مواقفنا بأسلوب المغالاة . إما منتهى الحب وإما منتهى العداء ؟

وقال العجوز بحكمة :

- يجب أن تقدر أن العالم العربى يمر بأحداث لا يملك وحده حق التحكم فيها ونحن فى معظم مراحلنا مضطرون أن ننسى ما فات حتى نبدأ من جديد .

وقال الشاب وهو لا يزال يصرخ :

- هذا أخطر ما يمكن أن يهدد مستقبلنا .. أن نعتمد على النسيان .. أن نقتل اليوم الذى فات لنعيش اليوم الذى بعده .. قد نصل إلى حد أن نفقد ثقة العالم كله .. كأننا لسنا جادين فى أى موقف . بل كل موقف معرض دائما للنسيان ..

وقال العجوز مبتسما :

- إنى أفهم ماذا تريد أن تقول وتعجز عن التعبير عنه .. وقال الشاب وهو يزفر أنفاسه فى زهق :

- ماذا فهمت ؟..

وقال العجوز مبتسما :

- لو كنت أرقى فى ثقافتك السياسية لقلت : إنه لو كانت هناك خطة سياسية مشتركة بين البلاد العربية ترسم الواقع وتحدد التحركات نحو المستقبل ، فإن الدوافع الذاتية الإقليمية تفسد دائما مسيرة هذه الخطة .. وقد تكون الدوافع الذاتية مجرد دوافع شخصية : أى لمجرد أن الذى يتكلم هو فلان أو فلان .. فهناك الآن معركة بين سوريا والعراق برغم أن البلدين تحت حكم واحد وهو حزب البعث ، وأصبحت المعركة لا سبب لها إلا شخصية الأسد وشخصية صدام حسين .. وهكذا .. كل هذه المفاجآت نتيجة علاقات وارتباطات شخصية بين الحكام لا نتيجة أسباب عامة ولا حتى نتيجة اختلاف فى العقيدة أو فى المبدأ.

وقال الشاب وهو يفتح عينيه كأنه يرى شيئا جديدا :

- والحل ؟..

وقال العجوز ضاحكا وهو يقوم واقفا :

- الحل هو أن أتركك لأستريح من دوشتك ، وحاول أنت أن تبحث عن الحل . « يا شاطر » !.

٢

هلل العجوز وهو يستقبل الشاب :

- أين أنت ؟ مضت عليك خمسة أيام ولم تظهر فى المقهى ..!

وقال الشاب وهو يلقى من على كتفه حقيبة أشبه بحقائب رجال الكشافة :

- كنت فى طريقى إليك .. وأنت تعلم أن شوارع القاهرة خصصت هذه الأيام لأهالى القارة الأفريقية والمنطقة العربية بمناسبة انعقاد المؤتمر العربى الأفريقى .. لم يكن لأهالى القاهرة حق المرور ! وقدرت أن المسافة بين شارع الجيزة وشارع قصر العينى تستغرق خمسة أيام سيرا على الأقدام ، ولذلك حملت معى هذه الحقيبة التى زودتها بخيمة أنصبها كل ليلة على رصيف من الأرصفة وأرتاح فيها من رحلة العذاب ، حتى وصلت إليك !

وضحك العجوز ضحكة كبيرة وقال :

- إنها نكتة ..

وقال الشاب فى مرارة :

- إننا فى حاجة ماسة إلى النكت حتى لا نبكى .. إن مصر طول عمرها تطلق النكت حتى تهرب من دموعها .. ثم كيف أواجه العقلية التى نظمت هذا المؤتمر بغير النكتة أو البكاء ؟ إنك لو سألت طالبا فى ابتدائى الثقافة عن أين يقيم مثل هذا المؤتمر الكبير لأجابك فورا : إنه ليس له مكان إلا داخل أسوار المنتزه بالاسكندرية .. إن هناك بين الأشجار الزاهية ثلاثة قصور قديمة وفندقا وأكثر من خمسمائة فيلا جديدة كاملة معظمها خال ومهجور فى انتظار السادة أبناء الطبقة الحاكمة ليستريحوا فيها خلال أشهر الصيف .. إنها أصلح مكان لأى مؤتمر من ناحية توفير الإقامة والأمن والحراسة وتستطيع الحكومة إذا كانت عاجزة أن تتفق مع هيلتون أو شيراتون لتوفير الأكل والخدمة هناك .. إن القاهرة تدعو إلى صد هجرة أبناء المحافظات الأخرى إليها وهى الآن تدعو إلى وقف هجرة المؤتمرات ..

وقال العجوز فى مرارة :

- لك حق .. ولكن .. حصل خير ..

وصرخ الشاب :

- أين هو الخير ؟.. إننا لم نفهم بعد : لماذا عقد هذا المؤتمر .. هل هو مجرد حركة دعائية ؟

وقال العجوز :

- حتى لو كان حركة دعائية فنحن فى حاجة إليها ..

كل الدول تضع حساب الدعاية فى تحركاتها السياسية .. إن الدول تنشر إعلانات عن نفسها فى الصحف العالمية وفى التليفزيون وفى الإذاعة . ولو حسبت تكاليف هذا المؤتمر الذى تحدثت عنه وعرضته كل صحف العالم وكل التليفزيونات لوجدت أنها أقل بكثير من الثمن الذى تدفعه دولة أخرى لنشر إعلانات فى الصحف .. ولكن الدعاية لم تكن كل شىء .. إن مجموعة دول أفريقيا والعالم العربى تمثل أكبر قوة فى العالم الثالث ونحن فى حاجة إلى اكتساب صداقة هذه القوة ..

وقال الشاب متأففا :

- بصراحة .. كل ما أفهمه أن الدول العربية تريد مظهر الوجود فى

أفريقيا .. وأفريقيا تريد أموال بترول الدول العربية .. إن القذافى مثلاً أقام علاقات خاصة مع كثير من الدول الأفريقية .. كيف ؟.. بسحر شخصيته ؟.. لا .. بوحدة المواقف ؟.. لا .. إنما فقط بدفع المعلوم .. تقديم (الفلوس).. وقد حاول بسحر دولارات البترول أن يحول دون عقد مؤتمر القاهرة ولم يستطع ، لأن داخل مؤتمر القاهرة أموالا بترولية أكبر من أموال القذافى ..

وقال العجوز فى لهجة الأستاذ :

– لا تتكلم بلا دراسة .. إن العلاقات الدولية تقوم على خذ وهات .. والمصيبة هى أننا لا ندرى كيف نعطى ولا كيف نأخذ ؟ إن مصر مثلا سبق أن قررت أن تهب لجمهورية مالى فى أفريقيا بناء فندق ضخم . وتعهدت شركة النصر ببناء هذا الفندق . وبعد أن بداته توقفت سنوات.. لماذا؟ .. لأن الشركة كانت تتولى عملية البناء بنفسها وتصدر جميع المواد اللازمة من مصر . ثم اكتشفت أنه ليس فى مصر أسمنت يكفى التصدير . فتوقف البناء فى جمهورية مالى .. فى حين أن إسرائيل تتبع هناك الأسلوب الأسهل : إنها تتعهد بالبناء . ولكنها لا تبنى بنفسها .. إنما تتفق مع إحدى الشركات العالمية لتبنى باسمها : اى باسم إسرائيل . أى أن المهم عندما تعطى أن تكون واثقا من تحقيق العطاء !

وقال الشاب :

– وماذا أخذت إسرائيل من أفريقيا ؟..

وقال العجوز .

– أخذت أيضا ما لم نستطع أن نأخذه نحن .. أخذت نوعا من التسلل إلى داخل الاقتصاد الأفريقى أصبحت كوسيط خفى بين الدول الأفريقية والشركات الإنتاجية العالمية .. وهو مالم تستطع أن تقوم به دول البترول العربى برغم ضخامة ما دفعته لكثير من الدول الأفريقية.. وكل هذا أدى إلى ارتباط هذه الدول بإسرائيل ..

وقال الشاب رافضا :

– وماذا يربطنا نحن بأفريقيا ؟..

وقال العجوز :

– يجب أن تعلم أولا أن دول البترول العربى ليست أغنى من فى

العالم .. إن أمريكا وروسيا وهما الأغنياء فعلا .. أغنياء بقوتهما .. والمعركة في أفريقيا معركة بين أمريكا وروسيا .. معركة تشملنا جميعا.. وما نحتاج إليه فعلا هو وحدة الموقف مع دول أفريقيا على أساس الوصول إلى تحديد وحدة المصالح .. إن هناك معارك على ساحل الأطلنطى بين أمريكا وروسيا ومعارك على ساحل البحر الأبيض ومعارك على ساحل البحر الأحمر .. إن معركة أنجولا معركة روسية أمريكية برغم أن الذى حارب فيها هو الجيش الكوبى وجيش جنوب أفريقيا .. وكذلك معركة الصحراء الغربية برغم أن اللذين يحاربان فيها هما المغرب والجزائر .. وكذلك كل المعارك الداخلية فى دول البحر الأحمر كلها معارك بين روسيا وأمريكا ..

وقال الشاب :

- كل هذا يحدث برغم قيام منظمة الوحدة الأفريقية ومنظمة الدول العربية أقصد الجامعة العربية .. إن هناك شبه حرب بين الحبشة والسودان الآن وكلتاهما عضو فى منظمة الوحدة الأفريقية .. ومعركة بين ليبيا وأكثر من دولة عربية برغم أن ليبيا عضو فى الجامعة العربية .. فما جدوى هذه المنظمات وهذه المؤتمرات ؟..

وقال العجوز مبتسما فى مرارة :

- جدواها مجرد المحاولة .. إنها محاولات للوصول ..

وقام الشاب واقفا وهو يقول :

- إذن أستأذنك حتى أحاول أنا الآخر ..

وقال العجوز فى دهشة :

- تحاول ماذا ؟

وقال الشاب ضاحكا :

- أحاول الوصول إلى بيتنا .. إن المؤتمر العربى الأفريقى انتهى .. والمسافة لا تستغرق الآن خمسة أيام .. إنما أربعة أيام ونصف اليوم فقط !

٣

قال الشاب ساخرا :

- هل تذكر عندما قلنا : إن مؤتمر جنيف لا يمكن أن ينتهى إلى شىء إلا إذا سبقته شروط يتفق عليها العرب واليهود ..؟ أعتقد أن

الشروط قد وضعت . أعلنها الرئيس كارتر في مؤتمر صحفي .. لم يبق إلا أن يوافق عليها العرب ثم تقام الأفراح وتطلق الزغاريد ..!

وقال العجوز في حسرة ومرارة :

– شروط كارتر لن يوافق عليها أي عربي .. إنه لا يزال طفلا في دنيا الدبلوماسية السياسية . ترك الصهيونية تضع على لسانه نفس الكلمات التي كانت تحدد بها مطالبها منذ عام ٤٨ وأخذ يرددها كالببغاء !

وقال الشاب وسخريته تكاد تكون شماتة في جيل العواجيز :

– فسر لي ماذا قال الببغاء .. فأنت أستاذي ؟

قال العجوز :

– تقصد أني أستاذ الببغاوات ..! لا يهم . سأحتمل وقاحتك .. المهم أن كارتر طالب بحدود يمكن الدفاع عنها بين العرب وإسرائيل .. وقد كانت إسرائيل تعتبر أن الشاطئ الشرقي لقناة السويس هو خط الحدود الذي يمكن الدفاع عنه ولكن الخط سقط في يدنا في أكتوبر ٧٣ وأصبح من حق إسرائيل أن تطالب بخط أبعد من قناة السويس حتى تستطيع الدفاع عنه ..!

وربما وصلت بهذا الخط إلى حدود ليبيا . لأن المعروف عن القذافي أنه زعيم متآمر غير محارب ومواجهته تعتبر شاطئ أمان عسكري .! وكذلك مصر : فقد كانت تعتبر أن الخط بين العريش وميناء العقبة هو خط الحدود الذي يمكن الدفاع عنه وسقط هذا الخط في عام ٦٧ وسقط قبلها عام ٥٦ . وأصبح من حق مصر أن تبحث عن خط آخر يمكن الدفاع عنه مع الاحتفاظ بسيناء طبعا . وربما قدرت مصر أن الخط الوحيد الذي تضمن الدفاع عنه هو خط جبال طوروس في تركيا الذي سبق أن وصل إليه محمد علي .. من يوم أن هزم محمد علي ومصر لا تستطيع الدفاع عن نفسها ..

وقال الشاب في دهشة :

– ماذا تقصد .؟

وقال العجوز في دهشة :

– أقصد أن كل هذا كلام فارغ .. إن كارتر يتعمد أن يتلمس الحجج لمطامع إسرائيل .! فقد كان يجب عليه أن يعلن الحقوق أولا وبعد ذلك

يتحدث عن الدفاع عن هذه الحقوق .. الحقوق أولا ثم الحدود .. والحقوق التى ارتضيناها هى العودة إلى حدود ٦٧ وبعد ذلك فإن الدفاع عن الحدود لم يعد يعتمد على الخطوط الجغرافية كما كان أيام الهنود الحمر أو أيام إسكندر المقدونى . ولكنه يعتمد على تطور العلم والفن وقوة الاحتمال العسكرى .. إن فيتنام الشمالية استطاعت أن تدافع عن حدودها ضد أمريكا نفسها ..! وكارتر لم يعلن حقوق العرب وإسرائيل . وعندما أحرج بأسئلة الصحفيين قال : إنه ينتظر أن تحدث تعديلات طفيفة فى حدود ٦٧ : أى أنه يفسر قرار مجلس الأمن كما تفسره إسرائيل ، لا كما يفسره العرب .! إسرائيل تقول : الانسحاب من « أرض » : أى ليس كل الأرض ؛ والعرب يقولون : الانسحاب من « الأرض » وأل تعنى كل الأرض التى احتلت .

قال الشاب وهو لا يزال شامتا :

– ماذا أعلن كارتر أيضا ؟

وقال العجوز فى حدة :

– لقد طالب بكل ما سبق للرئيس السادات أن أعلن رفضه له ! طالب بفتح الحدود والتبادل التجارى وتبادل النشاط السياحى والتبادل الثقافى .! وعلى فكرة .. إن إسرائيل تسرق جميع كتب الكتاب العرب وتطبعها باللغة العربية وتبيعها ، وعندما بلغها احتجاج العرب قالت : إن من حق العرب أيضا أن يسرقوا كتبها ويبيعوها !

وقال الشاب الساخر :

– وهل سرقنا كتب إسرائيل ؟

وقال العجوز الثائر :

– لا ، ومع الأسف . اشتريناها ولم نبعها ، ولكننا قرأناها ..

قال الشاب :

– إنك تكره كارتر ..

وخبط العجوز على المائدة بقبضة يده وصرخ بصوته الضعيف :

– السياسة ليس فيها حب ولا كراهية .. ولكننا نعامل كارتر كأنه يفهم كل شىء ويحل كل مشكلة فى حين أنه لا يزال مبتدئا فى ألف باء السياسة برغم نجاحه فى الانتخابات !. إنه طفل حتى بالنسبة لوزير خارجيته فانس .. وقد سبق أن صرح فانس بأن سياسة الخطوة خطوة

قد انتهت وإذا بكارتر يقول بعده : إن المشكلة فى حاجة إلى فترة انتقالية قد تحتاج إلى عامين أو أربعة أو ثمانية أعوام أو أكثر حتى نصل إلى إنهاء حالة الحرب !.. أى الخطوة خطوة كما وضعها كيسنجر رحمة الله عليه ..! ويضطر فانس كلما تكلم رئيسه كارتر أن يصحح كلامه ويضع له تفسيرا لم يكن كارتر يقصده لمجرد الدفاع عن الدبلوماسية الأمريكية ..

وعاد الشاب يقول فى شماتة :

– إنك يائس ..

وصرخ العجوز بصوته الأجش :

– سبق أن قلت لك : إنى لا أستسلم لليأس ولا أستسلم للتفاؤل .. كل ما أريد أن أضعه فى عقلك الطائش هو الحل الوحيد الصريح الذى يتهرب الجميع من مواجهته : الحل هو أن تستغنى أمريكا عن إسرائيل كقاعدة عسكرية لها فى الشرق الأوسط .. ليس صحيحا أن أمريكا تسلح إسرائيل وتدفع لها تحت ضغط العناصر الصهيونية ! إنها تسلح وتدفع ؛ لأنها تتخذ من إسرائيل قاعدة عسكرية لحماية وجودها فى المنطقة وفى مواجهة الاتحاد السوفيتى .. ولن يتغير موقف أمريكا إلا إذا أعلنت استغناءها عن هذه القاعدة العسكرية .. والمساواة بين إسرائيل والبلاد العربية فى نظر أمريكا لا يمكن أن تتحقق إلا بأن تكون كل الدول العربية قواعد عسكرية كإسرائيل أو أن تستغنى أمريكا عن إسرائيل بقاعدة عسكرية أخرى داخل البلاد العربية ؛ كما استغنت روسيا بوجودها العسكرى فى ليبيا عن وجودها فى مصر .. هل فهمت .؟!

وقال الشاب ساخرا :

– ما دمت تأمرنى بالفهم فقد فهمت ! ولكن بمناسبة ذكرك لروسيا.. ما هو رأيك فى دعوة الرئيس الأسد لموسكو فى نفس الوقت الذى دعى فيه الرئيس السادات لواشنطن ؟

قال العجوز ساخطا :

– إنك لن تستطيع أن تفهم كل شىء فى جلسة واحدة . إن ما فهمناه نحن فى يوم احتجتم أنتم إلى عشرين سنة لفهمه .. سلام عليكم ..

وقال الشاب :
– إلى أين ؟
وقال العجوز فى قرف :
– إلى الأجزخانة لأشترى قرص أسبرين .. لن أشترى أنبوبة كاملة حتى لا أنتحر وأرتاح منك .!

٤

قال الشاب وهو يبتلع حيرته :
– إننا نقول إن مصر دولة محايدة.. أفهمنى فى عرضك معنى هذا الحياد .!
وقال العجوز فى هدوء :
– ليس فى العالم كله الآن ما يسمى بالحياد ..
وقال الشاب فى دهشة :
– غير معقول ! لقد قامت منظمة عالمية من دول الحياد بين الشرق والغرب .. المنظمة التى أسسها تيتو ونهرو وعبدالناصر ..
وقال العجوز وبين شفتيه ابتسامة ساخرة :
– كانت مجرد مظاهرة دولية قامت بها الدول الصغيرة .. وقد اكتشفوا بعد قليل أن الحياد لا يمكن أن يطبق بمعناه الكامل الصحيح .. فسموا أنفسهم « دول الحياد الإيجابى » أى أنك تستطيع أن تكون محايدا وفى نفس الوقت إيجابيا فى اتخاذ موقف هنا أو هناك .. ثم اكتشفوا أن « الحياد الإيجابى » تعبير يمكن أن يهدم معنى الحياد فسموا أنفسهم دول عدم الانحياز . ثم اكتشف العالم بعد هذا أن كل الدول التى اشتركت فى هذه المظاهرة ليست على الحياد ولا حتى غير منحازة .. فبدأت المظاهرة تضيع وتفقد سخونتها .!
وقال الشاب كأنه يدافع عن نفسه :
– سويسرا دولة محايدة ..!
وقال العجوز :
– سويسرا ليست دولة ، ولكنها منطقة عازلة بين إيطاليا وألمانيا وفرنسا .. أشبه بالمناطق العازلة التى تفرض بين الدول المتحاربة حتى توقف الصدام .! وسويسرا تعيش فى حماية هذه الدول وليس لديها

قوة ذاتية تدافع بها عن حيادها .. وهى مقسمة فعلا إلى ثلاث دول تضم ثلاثة شعوب لكل منها لغته وشخصيته : سويسرا الإيطالية وسويسرا الألمانية ، وسويسرا الفرنسية .. وهى تعتبر نفسها سوقا سياسية واقتصادية حرة مفتوحة للجميع .. وكل هذا النظام مرتبط ارتباطا كاملا بالكتلة الغربية العالمية أى بأمريكا : أى حتى سويسرا ليست دولة محايدة برغم أنها قامت على إدارة سياسية محايدة .. واقتنع معى أن سويسرا لا يمكن أن تكون مثلا لأية دولة أخرى فى العالم .. إن حيادها ليس من داخلها ، ولكنه من حولها ..!

وقال الشاب فى يأس :

– ولكن لماذا لا يتحقق الحياد فى أية دولة أخرى ؟

وابتسم العجوز كأنه يشفق على الشاب من وقع الحقيقة :

– لسببين رئيسيين : .. إن الدولتين العظميين لا تطمئنان للحياد ، ولأن الدول الصغرى لا تستطيع أى منها أن تعيش بعيدا عن دولة أعظم .. ولهذا لم يعد هناك حياد ! ولكن الذى تطور له العالم هو تغير نسبة ارتباط الدولة الصغرى بالدولة العظمى سواء كانت روسيا أو أمريكا .. إن فرنسا مثلا ليست دولة محايدة ولا أسبانيا ، ولكن نسبة ارتباط فرنسا بأمريكا تخالف نسبة ارتباط أسبانيا بها . وذلك لاختلاف حاجة كل منهما لأمريكا !. وكذلك رومانيا وتشيكوسلوفاكيا كلتاهما من دول الكتلة الشرقية ، ولكن اطمئنان روسيا لرومانيا أكبر من نسبة اطمئنانها لتشيكوسلوفاكيا ، ولذلك تبدو رومانيا أكثر حرية فى مواقفها السياسية من تشيكوسلوفاكيا ..

وصرخ الشاب معترضا :

– وحتى فرنسا لا تريد أن نعتبرها محايدة برغم أن لها مواقف ضد أمريكا .. وقال العجوز فى هدوء :

– اختلاف الموقف لا يعتبر اختلافا فى الوضع .. إن مصر فى الحرب العالمية الأخيرة رفضت أن تعلن الحرب بجانب بريطانيا وقالت الكلمة المشهورة « هذه حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل !» ولكن هذا الموقف لم يؤثر فى الوضع القائم وهو احتلال الجيوش البريطانية لمصر واستغلالها إمكانات مصر فى الحرب .. أى أنه كان موقفا لا يحقق الحياد .!

وقال الشاب فى فرحة كأنه اكتشف سرا :

– سأقول لك ما هو الحياد ؟. إنه حرية اختيار الدولة العظمى التى تعتمد عليها .. وقد كنا أصدقاء لروسيا ثم أصبحنا أصدقاء لأمريكا ..

وابتسم العجوز ساخرا وقال :

– السياسة ليس فيها صداقة فكلها مصالح .. وليس هذا حيادا لأن حرية التنقل بين الكتلتين تؤدى إلى الإضرار بمصالحهما ، وبالتالى تؤدى إلى حرب غير مباشرة بينهما .. عندما كنا مع روسيا حاربتها أمريكا على أرضنا بإسرائيل .. وعندما أصبحنا مع أمريكا بدأت روسيا تحاربها على أرضنا عن طريق معمر القذافى وزعيمه الجديد فيدل كاسترو .. وقد كانت هزيمة ١٩٦٧ هزيمة سياسية لروسيا أمام أمريكا ، ولو انتصرنا أيامها لبقينا مع الروس حتى اليوم .. وربنا يستر حتى لا تنهزم أمريكا على أرضنا ونعود إلى روسيا من جديد .!

وقال الشاب فى غيظ :

– إلى أين تريد أن تصل بى بهذا الدرس الطويل ؟

وقال العجوز ساخرا :

– أريد أن أنتشلك من الشعارات كشعار الحياد لتفكر واقعيا بعيدا عن الأحلام التى تثيرها الكلمات الرنانة .. و .. انتهى الدرس يا غبى .!

وقال الشاب اليائس :

– هذا عنوان مسرحية تعرض على مسارحنا .

وقال العجوز مبتسما :

– إننا الآن فى انتراكت .. استراحة .. اطلب لى الشيشة حتى يبدأ الفصل التالى !.

وقال الشاب فى سخرية مرة :

– كلامك لا يساوى أكثر من دخان الشيشة ..

وقال العجوز ضاحكا :

– هكذا كل كلام المقاهى !

أبريل ١٩٧٧

١

قال الشاب وهو يلوى شفتيه فى سخط :

– إن ما لا يستطيع أن يتحمله عقل أو منطق هو ما يسمونه إقرار الذمة المالية .. أن يسجل كل مخلوق ما يملكه بما فيه دبلة زواجه مثلا أو القرط الذهبى الذى يزين به أذن ابنته .. يسجل كل ذلك فى إقرار يقدمه إلى الحكومة لتجتمع الهيئة الاقتصادية العليا برياسة الاقتصادى العالمى الدكتور عبدالمنعم القيسونى وتبحث تأثير قرط زنوبة بنت برهومة على الاقتصاد المصرى !.

وقال العجوز وهو يدير وجهه كأنه يحاول أن يخفى خجله :

– إنه إجراء اتخذ لتحقيق ما يمكن أن يسمى التأمين الاقتصادى : فأنت عندما تذهب إلى شركة لتؤمن على حياتك فإن من حق الشركة أن تكشف على حالتك الصحية قبل أن توقع عقد التأمين . وكذلك الدولة تكشف على حالتك المالية قبل أن تؤمن لك مستقبلك المالى ..

وصرخ الشاب :

– كلامك فارغ .! إن إقرار الذمة معناه اتهام الشعب المصرى بأن كل أفراده لصوص أو مهّربون أو مرتشون ! ولذلك يجب أن يقدم كل منهم إقرارا بما يملك حتى تتولى النيابة التحقيق وتحكم ببراءته .! كل الشعب متهم إلى أن تثبت براءته ، بعكس ما هو مفروض من أن كل الشعب برىء إلى أن تثبت إدانة هذا أو ذاك .

قال العجوز وهو لا يزال يتحدث فى حياء :

– ربما كان المقصود مجرد إجراء إحصائية للثروات الفردية ..

وقال الشاب ساخرا :

– يا أستاذى المحترم . إن التقدير الاقتصادى لأى بلد لا يقوم على حساب الدخل الفردى ولكنه يقوم على تقدير الدخل العام فى مقابل الإنفاق العام .. الدخل الفردى حق ومسئولية فردية .. وقد تكون ثروة الفرد أموالا يحتفظ بها فى البنوك ، والبنوك تستغل ثروته فى مجالات عامة .. وقد تكون عقارات أو أراضى تفرض عليها الدولة الضرائب .. وقد تكون مؤسسات صناعية أو تجارية معلنة خاضعة لقوانين ورقابة الدولة .. ومع ذلك فإن من حق الفرد أن يحتفظ بثروته لنفسه .. يضع نقوده تحت البلاطة كما يقولون .. وقد كانت الأغلبية تمارس هذا الحق عندما فقدت الثقة فى البنوك وفى المشروعات وفى ملكية الأرض والعقار ، وقد عادت الثقة وبدأت الثروات والمدخرات الفردية تظهر وتعلن عن نفسها ، ثم عادت هذه الثقة تذوب وتختفى بعد أن أعلن هذا القانون .. عادت الثروات الفردية تختفى الآن فى مكانها تحت البلاطة .!

قال العجوز :

– اسمع يا ابنى ، إن البرىء لا يخاف من أن يعلن براءته ..

وصرخ الشاب :

– البرىء ليس فى حاجة إلى إعلان براءته .! والبرىء من حقه أن يكون صاحب سلطة التصرف فيما يملك .. أنا شخصيا أملك مائة وخمسين جنيها أحتفظ بها فى بيتى وأغلق عليها الدولاب بالمفتاح ولا أحد يعرف عنها شيئا حتى أمى .. أنا حر .! فلماذا تجبرنى على أن أسجل هذه المائة والخمسين جنيها فى إقرار أقدمه للدولة ما دمت بريئا .؟

وقال العجوز وهو يتخبط فى حيرته :

– على كل حال .. هذا القانون يقصد به الأغنياء فاطمئن ..

وضحك الشاب مقهقها وقال :

– فى عرضك .. حدد لى من هم الأغنياء ؟. إن فى حى المنيل عمارة ترتفع عشرين طابقا يبنيها تاجر روبابيكيا .! وقد ضبطوا أخيرا على أرصفة الإسكندرية متسولا عجوزا يشحذ واكتشفوا أنه يحمل تحت جلبابه المهلهل سبعة آلاف جنيه وأنه يملك عمارتين .! فكيف كنت تعرف أن هذا أو ذاك غنى إلا بعد أن كشف عن نفسه أو بعد أن ضبط غناه .؟ ثم إن القانون

لا يفرق بين الغنى والفقير .. القانون قانون .

وقال العجوز كأنه بدأ يستسلم :

– والحل ؟.

وقال الشاب وهو مطمئن إلى انتصاره :

– ليست هناك مشكلة جديدة حتى نبحث لها عن حل جديد .. وقد سبق أن صدر قانون مماثل أسموه « من أين لك هذا ؟» ولم يؤد إلى شيء.! وكانت أجهزة المخابرات تتولى التحرى عن ثروات الأفراد . وكانت تتحرك لأغراض سياسية لا لتحقيق العدالة الاجتماعية .! أنت حرامى أو برىء تبعا لموقفك السياسى .! ثم أرادوا أن يحرروا الناس من أجهزة المخابرات فقرروا أن يكون الشعب كله مخابرات .. كل فرد يبلغ عن نفسه ويكتب التقارير عن نفسه .. وهذا مستحيل .. هذا ضد طبيعة البشر .. هذا اعتداء على الحق الاجتماعى .. ليس من حق السلطة أن تسألنى وليس مفروضا علىّ أن أجيب إلا إذا سبق السؤال والجواب اتهام ..

وعاد العجوز يردد فى استسلام :

– والحل ؟..

وقال الشاب :

– الحل هو ما سبق أن قلته أنت فى إحدى جلساتنا على المقهى .. وهو أن نكون أكثر صراحة فى تحديد صورة مجتمعنا الاقتصادى حتى لا نعيش مجتمعا رأسماليا بقوانين وعقلية اشتراكية . أو نعيش مجتمعا اشتراكيا بقوانين وعقلية رأسمالية .!

وقال العجوز :

– كدت تقنعنى .. وأنا أفرح عندما يقنعنى الشباب .. أحس كأنى أسترد شبابى .. سأطلب لك شيشة فقد وصلت إلى عقلية الشيشة عقلية العواجيز.!

وقال الشاب فى براءة :

– هل مفروض أن نسجل الشيشة فى إقرار الذمة المالية ؟. إن أبى يملك شيشة ورثها عن جدى .. وهى تحفة .. وإقرار الذمة يطالب بتسجيل التحف.

وضحك العجوز قائلا :

– أنت التحفة ..!

٢

قال الشاب فى حيرة :

– مالا أستطيع أن أفهمه هو : لماذا يتوقف القتال فى كل لبنان إلا فى الجنوب .؟ الذى أوقفه فى الشمال لماذا لا يوقفه فى الجنوب ؟

قال العجوز فى برود كأنه سؤال ساذج :

– لأن إسرائيل انتهت من الشمال ولم تنته من الجنوب .!

وقال الشاب ساخرا :

– إننا نحشر إسرائيل فى كل شىء هربا من عجزنا عن تفسير ما يدور حولنا ... إنى أسألك عن قتال بين اللبنانيين .

وقال العجوز وهو لا يزال باردا :

– الحرب فى لبنان لم تكن قط حربا بين اللبنانيين . إنها دائما حرب بين إسرائيل والفلسطينيين . ويشترك فيها من يؤيد إسرائيل من اللبنانيين ومن يؤيد منهم الفلسطينيين .. وقد اطمأنت إسرائيل إلى أنها سيطرت على التجمعات الفلسطينية فى كل لبنان ما عدا الجنوب .. لا أقصد السيطرة المباشرة ، ولكن السيطرة غير المباشرة . ولهذا يستمر القتال فى الجنوب إلى أن يهدأ الفلسطينيون هناك وتتم السيطرة عليهم .

وقال الشاب فى دهشة :

– وسوريا ؟

وقال العجوز البارد :

– سوريا تحل مشكلة .! أى أنها رسميا لا تشترك فى حرب ، ولهذا فهى لا تنحاز لهذا الجانب اللبنانى أو لذاك حتى تستطيع أن تصل إلى الحل ..

وقال الشاب فى سخرية :

– وطبعا لن تستطيع سوريا أن تصل إلى حل إلا إذا حلت أولا مشكلة الفلسطينيين ، وهى مشكلة لن تحل إلا إذا حلت أولا مشكلة إسرائيل ، وهى أيضا مشكلة لن تحل إلا إذا حلت أولا مشكلة الشرق الأوسط .!

وقال العجوز مبتسما :

– كل هذا صحيح ..

وعاد الشاب الساخر قائلا :

- واعتمادنا علـى أمريكا لأن فى يدها ٩٩٪ من المشكلة .. بمجرد أن تحرك أصابعها يصل الحل ..

وقال العجوز فى هدوء :

- المقـصـود أن أمـريكا تمـسك بـ ٩٩٪ من إمكـانات الوجـود الإسـرائيلى .. ليـس المقـصـود أن أمـريكا تمسك بنا ، ولـكنهـا تمسك بإسرائيل .. ولهذا تستطيع أن تصل بها إلى الحل ..

وقال الشاب وهو مغتاظ لأنه لا يستطيع أن يثير العجوز :

- يبدو عليك التفاؤل .!

وقال العجوز :

- لو دسست أنفك فى جـوانب الشـارع السيـاسى الذى نجلس على أرصفـته لشممت مـا يدعو إلى التفـاؤل .. كل هذه الاتصالات التى تتم مع أمريكا لم تكن تستمر إلا إذا كان يسبقها نوع من الاتفاقات كما كان يحـدث أيام كيـسنجر عـقب حـرب ٧٣ .. وتستطيع أن تقـدر أن هناك اتفـاقـات قـد تمت داخل المكاتب . قـد يكون الاتفـاق على أن تنسـحب إسرائيل من سيناء والجـولان وتقوم منطقة عازلة تحت حـراسة قوات دولية . وأن تؤلف حكومة فلسطينية فى اتحاد مع حكومة الأردن تضم الضفة الغربية وغزة ..

وصاح الشاب :

- كيف أتصور أن إسرائيل يمكن أن تنسـحب من شرم الشيخ مثلا وقد أقـامت فيها مـدينة سياحـية رائعة لا تزال تعلن عنهـا فى صحف العالم لإغراء السياح ؟.

وقال العجوز الهادىء :

- شـرم الشيخ لم تعد مهمـة كحجة للدفاع عن أمن إسرائيل .. المهم بعد حرب أكـتوبر أصبح باب المندب .. فـعن طريق باب المندب تستطيع أن تخنق شـرم الـشيخ وتخنق كل البحـر الأحمـر .. ولذلك يجرى الآن نشاط كبير فى هذا البحر .. وإسرائيل تتاجر الآن بشرم الشيخ . لأنهم يتـاجـرون بكل شىء إلى أن يفلت من أيديـهم . وقد كـانوا يتـاجـرون بالبترول المصرى إلى آخر يوم تخلوا فيه عنه ..

وقال الشاب :

- هـذه الاتفاقيات التى تتصورها هـل تمت بيننا وبين إسرائيل .. ؟

وقال العجوز :

– لا . تمت بيننا وبين أمريكا ..

وقال الشاب :

– وإسرائيل ..؟

وقال العجوز :

– لا تزال فى حاجة إلى مزيد من الضغط الأمريكى ..

وقال الشاب ساخرا :

– اعتمادنا بعد الله على أمريكا ..!

وقال العجوز كأنه ينهره :

– لا .. إن اعتمادك على أمريكا قائم على أنك تمسك بمصالحها فإذا ضعفت يدك التى تمسك بهذه المصالح ضاعت كل أحلامك !. أى أنك تعتمد أولا على قوة يدك .

وقام الشاب واقفا وهو قرفان .. والعجوز يسأله :

– إلى أين ؟

وقال الشاب القرفان :

– إنى أخشى على نفسى من التفاؤل حتى لا يضيع شبابى هدرا . وأفضل أن أذهب إلى السينما على أن أسمع منك موسيقى التفاؤل .!

وقال العجوز مبتسما :

– السينما كلها أفلام قديمة ولا يضيع الشباب إلا أن يعيشوا فى القديم! اجلس معى لنتفرج على الفيلم الجديد ونعيش المستقبل ..! وسأطلب لك زجاجة كوكا ..

وقال الشاب وهو يعود ويجلس :

– لا تكن أمريكيا واطلب لى « خروب » .

٣

قال الشاب القرفان :

– إنى أكاد أشد شعر رأسى غيظا من هذا الرجل .! من الذى أتى به من آخر الدنيا إلى أفريقيا ؟. أقصد كاسترو .. ما الذى يربطه بليبيا والجزائر وإثيوبيا .؟ و .. و .. حتى يمر عليها بلدا بلدا كأنه يقوم بجولة تفتيشية على ثكنات عسكرية تابعة له . ويستقبله القذافى وبقية الحكام

كأنهم يستقبلون القائد الأعلى ويقفون أمامه « زنهار وتعظيم سلام ».؟
وقال العجوز وهو يزفر أنفاسه كأنه يترحم على ذكرياته :
– إنه صاحب مكتب عالمى لتصدير المقاتلين لحساب الروس .!
وقال الشاب فى حيرة :
– ماذا تعنى !
وقال العجوز :
– إن الاتحاد السوفيتى يتولى تصدير الأسلحة إلى الدول والهيئات التى تعمل لحسابه ، ولكن بعض هذه المناطق لا يكفيها السلاح ، فهى فى حاجة إلى مقاتلين يحملون هذا السلاح .! واستطاع الاتحاد السوفيتى أن يقنع كاسترو بأن يتولى تصدير المقاتلين إلى أفريقيا : صدر المقاتلين إلى أنجولا وإلى الحبشة وإلى عدن ؛ واتفق مع القذافى على صفقة مقاتلين لأنه هو الآخر فى حاجة لمن يحمل السلاح الروسى الذى اشتراه بالدولار .!
وقال الشاب الحائر :
– ولكن لماذا اختاروا كاسترو ؟
وقال العجوز وهو يبتسم ابتسامة يسخر بها من الدنيا :
– قيل : إن الروس اختاروا كاسترو لأن الشعب الكوبى شعب أسمر يستطيع أن يتقارب بسرعة والشعب الأفريقى .. متخطين الفارق العنصرى الواسع بين اللون الزنجى واللون الأبيض .. فالجندى الكوبى فى أنجولا أو فى ليبيا يمكن أن يتخفى كأنه جندى أنجولى أو ليبى .! ولكنى أعتقد أن السبب الرئيسى فى اختيار كوبا هو استغلال أطماع كاسترو كزعيم يريد أن يثبت وجوده .
وقال الشاب فى لهفة :
– وما هى أطماع كاسترو ؟
ونظر إليه العجوز فى سخط وقال :
– يا ابنى . قلت لك : إنك يجب أن تقرأ أكثر .. ولو كنت تقرأ لعرفت أن كاسترو اتفق مع الروس نظير اشتراكه فى عمليات أفريقيا على أن يقدموا له مفاعلا ذريا كاملا يجعله من دول القنبلة الذرية .! وأنا لا أعتقد أن أمريكا يمكن أن تسكت على إقامة مفاعل ذرى فى كوبا .. وأعتقد أن أطماع كاسترو شىء آخر لم أكتشفه بعد . ربما كان من

بينها استغلال ثروات أفريقيا فى البلاد التى يرسل إليها قواته ..

وقال الشاب المندهش :

– هذا شىء جديد فى الوضع العالمى ..

وقال العجوز وهو ينظر إلى الشاب كأنه يلومه على جهله :

– أبدا .. ليس هناك جديد ..! هذا هو أسلوب روسيا فى مساندة الثورات الداخلية منذ زمن طويل .. وقد سبق لهم أن استغلوا أطماع وأحلام جمال عبدالناصر كما يستغلون الآن أطماع كاسترو . فدفعوه إلى تصدير قوات مقاتلة مصرية إلى الكونغو وبعدها دفعوه إلى تصدير قواته إلى اليمن .!

إن الروس لم يوقفوا الحرب العالمية قط . ولكنهم ابتكروا أسلوبا جديدا فى القتال . فهم لا يقاتلون بجنودهم . ولكن يدفعون جنودا من دول أخرى أو يعتمدون على الجنود المحليين ليقاتلوا لحسابهم .. كما حدث فى فيتنام .. كان الروس يقاتلون بالجيوش الفيتنامية على حين كان الأمريكان يقاتلون بجيوشهم .. وتلقى الأمريكان درسا من هزيمتهم فى فيتنام . وآمنوا بالأسلوب الروسى . وأصبحوا هم أيضا لا يقاتلون أبدا إلا بقوات الآخرين .!

وقال الشاب فى عجب :

– هل هناك دول خارج الارتباط بروسيا تقوم هى أيضا بتصدير المقاتلين ؟.

وقال العجوز فى بساطة :

– كثير ! منها : دول تصدر قواتها حماية لنفسها وحدودها ، ودول تصدرها ارتباطا بالسياسة الأمريكية : السعودية صدرت كل إمكاناتها العسكرية إلى اليمن فى مواجهة القوات المصرية برغم أن حرب اليمن كانت تعتبر ثورة داخلية ، وإيران تصدر قواتها للقتال فى مسقط وعمان . وجنوب أفريقيا صدرت قواتها للاشتراك فى حرب أنجولا ضد القوات الكوبية ، وإسرائيل تصدر قواتها إلى الانعزاليين فى لبنان ، وأنت تعرف ماذا حدث أخيرا ؟

وقال الشاب فى لهفة :

– ماذا حدث ؟

وصرخ العجوز :

- إنك لا تقرأ حتى الصحف ..
وقال الشاب فى رجاء :
- إنى أقرأ ولكنى لا أدرى ماذا تقصد بما حدث أخيرا .؟ هل تقصد حادث القبض على عصابة تهريب البن فى نعوش الموتى .؟ إنه حادث عالمى..!
وهز العجوز رأسه فى حسرة وأسى وقال :
- أقصد ما حدث فى زائير : لقد حدث هناك هجوم اشتركت فيه القوات المصدرة من كوبا فاستغاث موبوتو بدول الوحدة الأفريقية ، واضطر ملك المغرب إلى تصدير قوات من عنده إلى هناك . وأعلن الرئيس السادات عن عزمه على تصدير بعثة لتقصى الحقائق فى زائير.. واعتقد أنها بعثة عسكرية ..
وقال الشاب وهو حائر :
- وما نتيجة كل ذلك ؟.
وقال العجوز وهو يضغط على كلماته :
- النتيجة أننا فى خطر .. مصر فى خطر ! ولم يعد تقدير الخطر يقوم على قياس تصدير السلاح إلى الدول التى تهددنا . ولكنه يجب أن يقوم أولا على قياس تصدير المقاتلين .. إننا مهددون بتصدير مقاتلين إلى الحدود الليبية وتصل إلى حدود السودان وتلف حتى تصل إلى حدود إثيوبيا .! كل هذه الحدود معرضة لقوات أجنبية تهددنا بتحريض من قيادات عربية ..
وقال الشاب :
- والأمل ؟
وقال العجوز :
- ما دمنا نعرف فإننا لن نفاجأ ! وما دمنا لا نفاجأ فإننا فى أمان ..
وقال الشاب فى ابتسامة شكر :
- أفادكم الله ..
وقال العجوز فى زهق :
- أراحنى الله منك ومن دوشتك .. أطلب لى الشيشة واستعد لعشرة (كوتشينة) .!

٤

قال الشاب وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :

– كلما سمعت أو قرأت عن أى وحدة بين أى بلد عربى وآخر أحس كأنى أقرأ باب « بختك هذا الأسبوع » أو أقرأ صفحة عن تفسير الأحلام .! وبختك يتغير بين كل يوم وآخر ، والأحلام قد تكون نتيجة وليمة عشاء دسمة أثقلت على بطنك وأقلقت نومك بالأحلام .! إنى لا أستطيع أن أفهم : لماذا اختلف أو اتفق هذا البلد مع الآخر ؟

ونظر العجوز إلى الشاب كأنه يشفق عليه من جهله :

– ليس هناك خلاف أو اتفاق بين أى بلد عربى وآخر ..

وصرخ الشاب :

– لا شك أنك لا تعيش بيننا أو أنك تعيش نائما .! كل هذا الذى يحدث ! ثم تقول : إنه لا خلاف ولا اتفاق .!

وقال العجوز فى هدوء :

– الخلاف أو الاتفاق ليس بين البلاد العربية بعضها وبعض إنه بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة : أى بين موسكو وواشنطن ..!

وقال الشاب متهكما :

– لا . يا شيخ .! القذافى يطرد المصريين من ليبيا ويحكم على الضباط بالإعدام بأوامر من موسكو .! أليس كذلك .؟

وقال العجوز الهادىء :

– لا . ليس كذلك .. ليست موسكو التى تصدر الأوامر .. ولكن القذافى يصدر الأوامر مستندا على موسكو ..

وقال الشاب فى حدة :

– أفهمنى .! أنقذ عقلى فى عرضك .!

وقال العجوز مبتسما فى إشفاق :

– لكى تفهم حاول أن تستعرض صورة العالم العربى كاملة . واسأل نفسك : لماذا هناك نوع من وحدة الموقف والتقارب فى المعاملة بين مصر والسودان والسعودية وسوريا والكويت وإمارات الخليج والمغرب وتونس واليمن الشمالية والأردن وعمان ؟ ثم لماذا تختلف هذه الوحدة ومجموعة أخرى من الدول العربية . مع ليبيا والجزائر والعراق واليمن الجنوبية والصومال !. لماذا ؟

وردد الشاب قائلا :

– فعلا ..! لماذا ؟

وقال العجوز :

– لاختلاف موقف كل مجموعة بين موسكو وواشنطن : لقد مرت فترة كان هناك خلاف كبير أيام عبدالناصر بين مصر والسعودية . لأن مصر كانت مرتبطة ارتباطا كاملا بموسكو والسعودية مرتبطة بواشنطن .! ومنذ أيام عبدالناصر بدأ هذا الخلاف يهدأ . لأن مصر بدأت تغير موقفها من موسكو ، ثم انتهى الخلاف وتمت وحدة الموقف ووحدة التعامل بعد أن أصبحت مصر والسعودية فى موقف دولى واحد بين موسكو وواشنطن . ثم حاول أن تستعرض تاريخ العلاقات بين سوريا ومصر : لقد حدث خلاف حاد وتباعد بين البلدين عقب حرب أكتوبر .. لماذا ؟ لأن مصر بدأت ترتبط بواشنطن وخيل لسوريا أن هذا الارتباط يتم على حسابها .! وفى نفس الوقت حاولت موسكو أن تنفرد بسوريا فى مواجهة مصر بعد أن طورت مصر موقفها مع واشنطن .. وبقى هذا الخلاف إلى أن بدأ نوع من تقارب الموقف بين البلدين ، واقتربت سوريا من واشنطن برغم أن علاقاتها بموسكو لا تزال مختلفة عن علاقات مصر بها أى بموسكو ..

وقال الشاب وهو حائر :

– هذا صحيح .. ولكن هل معنى هذا أن الجانب الآخر كله مرتبط بموسكو .؟

وقال العجوز الهادىء :

– لا ، وليس هناك وحدة كاملة تضم الجانب الآخر : أى ليس هناك وحدة بين العراق وليبيا والجزائر واليمن الجنوبية لاختلاف موقف كل من الدول الأربع بالنسبة لموسكو : ليبيا مستسلمة استسلاما كاملا لموسكو ، والجزائر محتفظة بشخصية أقوى فى تعاملها مع موسكو ، والعراق تقف على درجة أخرى من سلم الارتباط بموسكو . وكذلك اليمن الجنوبية . ونفس المقاييس المختلفة تنطبق على موقف كل من البلاد الأربعة بالنسبة لواشنطن .. والمهم أن الدول الأربع لا تكون جبهة واحدة ، أو ما يسمونه جبهة الرفض . ولكن كلا منها يمثل موقفا يختلف هو وموقف مجموعة الدول الأخرى التى من بينها مصر ..

وقال الشاب الحائر :

- ونتيجة هذا الخلاف .. إلى أين ؟

وقال العجوز وهو يتنهد كأن السؤال نقله إلى حالة اليأس :

- النتيجة ترتبط باحتمالين : إما أن تتفق موسكو وواشنطن على اقتسام نفوذهما فى العالم العربى كما حدث أيام الاستعمار القديم عندما اقتسمت لندن وباريس البلاد العربية ونزلنا عن ليبيا لإيطاليا ونزلنا عن شمال المغرب لإسبانيا لإسكاتهما .! وإما أن يتحقق الأمل الكبير وهو أن تصل كل الدول العربية إلى موقف دولى موحد بين موسكو وواشنطن يؤكد وحدة أسلوب التعامل ووحدة تبادل المصالح..

وقال الشاب :

- هل تعتقد أن موسكو وواشنطن يمكن أن تتفقا ..

وقال العجوز :

- لا ، لأن واشنطن هى الآن الأقوى فى العالم العربى ولن تتفقا إلا إذا وصلنا إلى توازن فى القوى . ولهذا فإن موسكو مصممة على استمرار المعارك ..

وعاد الشاب يسأل :

- هل تعتقد أنه يمكن أن تتم وحدة الموقف الدولى بين الدول العربية.

وقال العجوز :

- لا . أيضا .. لأن الدول العربية مصيرها فى يد حكام . ولن تستطيع أن تضمن اختيار الحاكم الذى يصلح للتعامل مع حاكم آخر حتى يصل معه إلى هدف واحد وموقف واحد .

وهم الشاب أن يتكلم :

- ولكن إن ..

وقاطعه العجوز :

- إن الساعة الثالثة وماتش الأهلى والزمالك بدأ .. افتح التليفزيون .

وقال الشاب ساخرا :

- حتى العجائز أصبحوا من ضحايا الأهلى والزمالك ..

وقال العجوز فى حدة :

- إننا أحوج منكم إلى مباريات الكرة . لأننا نفهم فى السياسة والذين يفهمون فى حاجة إلى أن يهربوا ويرتاحوا مما يفهمونه! افتح التليفزيون يا ابنى . حتى أنسى وأرتاح ..!

مايو ١٩٧٧

قال الشاب وهو يبتسم كأنه يهم أن يقدم للعجوز هدية :

- أعترف أنك استطعت أن تؤثر علىّ بشخصيتك السياسية . فإنى أصبحت أميل مثلك إلى التفاؤل . وأصبحت أقرب إلى المواقف المعتدلة : إنى مثلا متفائل باختلاف موقف مصر عن موقف سوريا بالنسبة للاتحاد السوفيتى . إنه نوع من تقسيم جبهات القتال : مصر تتحمل مسئولية واشنطن وسوريا تتحمل مسئولية موسكو . والنتيجة النهائية لا شك ستكون فى مصلحة العرب وإن كانت حتى الآن قد اختلفت بين مصر وسوريا : مصر خرجت من علاقاتها بأمريكا بتحديد الموقف الذى انتهى بانسحاب إسرائيل وفتح القناة واستعادة آبار البترول ! وسوريا خرجت من علاقاتها بموسكو باستمرار الاعتماد عليها فى التسليح ..!

ونظر العجوز إلى الشاب فى دهشة ثم قال :

– لا أعتقد أنى استطعت أن أؤثر عليك . بل أخشى أن يكون كلامك مجرد تهكم علىّ فإنه كلام لا يتعدى السطحيات . إن العلاقات مع أمريكا وروسيا لا يمكن أن تكون سهلة إلى حد أن تخضع لاتفاق بين مصر وسوريا . إنها علاقات تخضع أساسا للمصالح المتبادلة : أى لم تكن سوريا وحدها هى التى حددت علاقاتها بموسكو . كما لم تكن مصر وحدها هى التى حددت علاقاتها بواشنطن ؛ ولكن مصالح موسكو وواشنطن ومصالح مصر وسوريا هى التى تحدد هذه العلاقات ! والمصالح تتطور وتضيق وتتسع .. وقد حدث فى أحداث

لبنان أن اختلفت سوريا وموسكو ، وأصبحت أكثر اعتمادا على واشنطن ، وكانت موسكو هى التى أدارت ظهرها لسوريا . وكانت واشنطن هى التى مدت يدها إلى سوريا .. ومن يدرى ؟ ربما تتطور الأحداث قريبا فتدير واشنطن ظهرها لمصر ، وتمد موسكو يدها لها ..!

وقال الشاب كأنه يشهق :

– عجيب .! كنت أعتقد أنك متفائل وكلامك يدل على أنك ترى الموقف كأننا فى مصر وسوريا مستسلمون للمصالح الأمريكية والسوفيتية .!

وقال العجوز فى هدوء :

– سبق أن قلت لك : إنى لا أتفاءل ولا أتشاءم ، ولكنى أكتفى بأن أفهم وأنتظر دون أن أطلق حكما مسبقا .

وقال الشاب فى حماس :

– ولكننا على الأقل نستطيع أن نعتمد على سوريا فى اكتساب موسكو لتحقيق مصالحنا .

وقال العجوز :

– إن موسكو لن تعطيك من خلال سوريا إلا ما تقرر هى أن يصل إليك من خلالها ! هل تذكر قصة قطع الغيار التى امتنعت موسكو عن إمدادنا بها والتى حاولنا أن نأخذها عن طريق الهند ؟ لقد كنا أصدقاء للهند . ولكن موسكو هددتها بأنها لو أعطتنا قطع الغيار فستوقف إمدادها بالسلاح ! واضطرت الهند أن تضحى بصداقتنا ـ صداقة مصر ـ حرصا على مصالحها مع الاتحاد السوفيتى . وهو نفس ما يمكن أن يتكرر لو حاولنا أن نأخذ السلاح من سوريا .. وهو أيضا نفس ما يمكن أن يحدث بالنسبة للموقف السياسى : فمهما كانت العلاقة بين سوريا والسوفيت فإن موسكو لن تسمح بأن تستفيد مصر من هذه العلاقة سياسيا إلا فى الحدود التى تقررها وتريدها ..

وقال الشاب فى حيرة :

– لا أفهمك .! ماذا تريد أن تقول ؟

وقال العجوز :

– أريد أن أقنعك بأن الأمل الأقوى هو أن نصل إلى إقناع موسكو

بأنها لن تستطيع أن تكسب سوريا إلا إذا كسبت معها مصر . إقناع واشنطن بأنها لن تستطيع أن تكسب مصر إلا إذا كسبت معها سوريا.. وربما كان هذا هو سر المركز الأقوى الذى أصبحت تتمتع به الولايات المتحدة فى المنطقة لأنها لم تكتف بصداقة مصر ، ولكنها استطاعت أن تكتسب أيضا صداقة سوريا .. وهو أيضا سر ضعف الاتحاد السوفيتى . لأنه استعاد صداقة سوريا دون استعادة صداقة مصر حتى أصبح يثير الشكوك كأنه يحاول أن يفرق بين مصر وسوريا . ويعيد ما كانا عليه من خصام سياسى ..!

وصرخ الشاب :

– حيرتنى .! لقد حاولت أن أكون معتدلا مثلك فإذا بى اكتشف أنك أكثر تطرفا منى .!

وصرخ العجوز هو الآخر :

– إنى أريد أن أنقذك من الاعتدال .. إن الاعتدال يجب أن يقتصر على العواجيز من أمثالى .. الاعتدال معناه أن تعيش الواقع ولا أريد للشباب أمثالك أن يعيشوا الواقع . أريدهم أن يعيشوا المستقبل .. وكان هذا هو أسلوب الحركة الوطنية منذ بدأت .. الواقع هو مسئولية العواجيز والمستقبل هو مسئولية الشباب .. وعلاقة سوريا بالاتحاد السوفيتى وزيارة الرئيس الأسد لموسكو هى ما يعبر عن واقع أرحب به وأكتفى به ، لأنى عجوز . ولكن أنت .. أيها الشاب .. لا تكتف بالاستسلام لهذا الواقع . ولكن ضع احتمالات المستقبل فى فكرك السياسى .

وصرخ الشاب :

– كأنك تدعونى إلى الرفض .!

وصرخ العجوز :

– لا ترفض ! ولكن لا تكتف .. لا تعتمد على الأحداث إلى حد الاستسلام .. كأن كل شىء قد انتهى وحلت القضية .. لا شىء انتهى إلا فنجان القهوة الذى أمامى ، ولن أستطيع أن أطلب فنجانا ثانيا لأن قضية أزمة البن لم تحل .. وحتى أكون واقعيا فإنى لن أشرب قهوة .. أشرب كازوزة أنا ..

يوليو ١٩٧٧

١

قال الشاب فى حيرة :

– هل تعتقد أن البوليس يستطيع أن يقضى فعلا على هذه الجماعة ..

وشد العجوز نفسا طويلا من الشيشة . ثم أسند مبسمها فوق المائدة والتفت إلى الشاب كأنه يهم أن يلقى محاضرة قائلا:

– لا شك أن البوليس يستطيع أن يقضى على الأفراد . ويستطيع أن يقضى على التنظيم . ولكنه لا يستطيع أن يقضى على الفكرة . وسنبقى دائما معرضين لوجودها أو لوجود فكرة أبعد تطرفا وجنونا تحل محلها .

وقال الشاب الحائر :

– لماذا ؟

قال العجوز الهادىء :

– لأن المشكلة ليست من اختصاص البوليس ولا وزارة الداخلية ولا حتى من اختصاص الجيش .

وقال الشاب فى دهشة :

– أى مشكلة ؟

قال العجوز :

– مشكلة الفراغ :

وارتفع صوت الشاب فى زهق قائلا :

– فى عرضك .! لا تأخذنى فى متاهاتك ! إنى أحدثك عن هذا التنظيم المختل ، وكيف يعمل ؟ وكيف يسيطر على أفراده ؟ وأنت تريد

أن تأخذني بعيدا وتغوص بي في فلسفتك .

وقال العجوز مبتسما :

- هذا يا ابني - هو سر نكبتنا .! إننا نعيش دائما على السطح ، ونقبل أو نرفض ما نراه على السطح ، ونصدر قرارات لا تشمل إلا السطح ! دون أن يحاول أحد أن يغوص في الأعماق ؛ ليكتشف سر القاع الذي يقذف بكل هذا إلى السطح ! وأنت ترفض أن أغوص بك إلى القاع ؛ لأنك مصاب بالكسل الفكري كبقية الشبان ، وتكتفي بأن تعوم على سطح الأحداث . تكتفي بأن تتفرج وتعلق وتتكلم دون أن تتعب نفسك . وتحاول أن تكتشف وتعالج !

وقال الشاب ساخرا :

- وقد اكتشفت أنت أن المشكلة - مشكلة الفراغ - قديمة .. إنها كلمة يرددها كل فارغ .!

وقال العجوز :

- هذا صحيح .. الناس تتحدث عن الفراغ ؛ لأنهم يعيشونه .. يعيشون في مجتمع فارغ .. ولكنهم أيضا لا يرون إلا فراغ السطح.. الدولة تقاوم الفراغ بزيادة ميزانية التليفزيون والإكثار من مباريات كرة القدم وتنظيم رحلات . وفتح مجالات عمل للطلبة خلال الإجازات و .. و .. وكل هذا لا يتعدى تغطية السطح ، ويبقى القاع فارغا ! إن كل ما تقدمه الدولة للناس مخدرات تنسيهم ملل وزهق الفراغ .! الواحد منا يبتاع تذكرة سينما ويتخدر ساعتين . ثم يخرج من السينما ليعود إلى الفراغ ! ثم يصاب بالجنون إلى حد أن يبتلع حبوب الانتحار ! إن هذه الجمعيات التي ينضم إليها الشباب بما فيهم الشباب المثقفون ليست سوى جمعيات انتحارية .!

وقال الشاب كأنه يلوم العجوز :

- كل هذا الذي تقدمه الدولة ولا تزال .. وتقول « فراغ » ؟ كل هذه التغييرات في النظم السياسية والاقتصادية ؟ يارجل حرام عليك .. !

وقال العجوز :

- كل هذه التغييرات لن تحل مشكلة الأعماق .! إنها تغييرات ترسمها وتحددها الدولة وتتحمل مسئوليتها الدولة ويقف حولها الناس يتفرجون . إنها تغييرات تحل مشكلة الفراغ الرسمي ولا تحل مشكلة

الفراغ الشعبى .. رئيس الوزراء لا يعانى الفراغ ولا أحد من الوزراء ولا أفراد الطبقة المسئولة .. حتى أصبح هناك ما يسمى لائحة الفراغ الرسمى .. فكل مسئول تختلف نسبة ما يعانيه من فراغ بالنسبة لدرجة وظيفته الرسمية .. فراغ الدرجة الأولى .. وفراغ الدرجة الثانية.. والثالثة .. والثامنة .. والتاسعة . وأعلى درجات الفراغ هى الدرجة التى يعيشها فيها الذين يعينون من خريجى الجامعة كل عام ..

وقال الشاب وهو لا يزال يسخر :

– وكيف نملأ الفراغ الشعبى ؟

قال العجوز فى هدوء :

– إطلاق حرية المعارك..

وصرخ الشاب :

– أى معارك ؟

قال العجوز الهادىء :

– معارك الفكر ..

وقال الشاب :

– الفكر لا يعنى معركة ..!

وقال العجوز :

– الفكر لا يولد ولا يعيش ولا ينمو إلا وهو يعيش معركة مستمرة.. إن الفكر هو الاندفاع نحو التطور .. هو بناء الجديد . وبناء الجديد لا يتم إلا بمعركة مع القديم أو معركة مع ما هو أجد منه .. معارك .. معارك .. معارك فكرية .. إن الفكر هو الذى يرسب فى الأعماق وهو الذى يحمل عناصر الإيمان .. والإيمان هو الذى يقضى على كل إحساس بالفراغ .. والفكر لا يمكن أن يعبر عن نفسه . ويطفو إلى السطح إلا وهو فى معركة مع فكر آخر .. فإذا حرمنا المعركة الفكرية التى تصل إلى السطح دارت المعارك فى الأعماق وانقلبت إلى تحركات سرية لا تكتفى بمجرد التعبير الفكرى .. إن هؤلاء الجماعة الذين ارتكبوا جريمتهم لو أنهم كانوا قد أطلقوا أفكارهم . وعاشوا معارك فكرية مع الشعب لهزمهم الشعب قبل أن يهزمهم البوليس ! هزمهم الشعب برفض فكرتهم التى تركت بلا معركة فأسرت عقولا مثقفة من خريجى وطلبة وطالبات الجامعة .. إن هذه الفتاة خريجة كلية الهندسة

التى قبض عليها كان يمكن إنقاذها لو كانت تجلس معنا هنا على المقهى. وتدخل معنا فى معركة فكرية .

وقال الشاب الساخر :

- وكنت قد أنقذتها طبعا .!

وقال العجوز فى أسى :

- كنت على الأقل أنقذت نفسى وأنقذتك من الفراغ !

٢

قال الشاب وهو يبتسم ساخرا كأنه يعاير العجوز :

- إنك لا تتحدث أبدا عن الناصرية كأنك تتعمد أن تهرب من ذكريات تزعجك .!

وقال العجوز فى هدوء :

- أبدا ليس هناك ما يستحق الهرب ؛ كما أنه ليس فى موضوع الناصرية ما يستحق الكلام ..

وقال الشاب فى تحد :

- كيف .؟ إن الناصرية تمثل قوة .!

وقال العجوز الهادىء :

- إنها لا تمثل شيئا أكثر من حفلة تأبين مستمرة لجمال عبدالناصر .!

وقال الشاب فى غضب :

- أرجوك لا تتجنّ .. لا تنس أنى من أبناء الجيل الذى بناه عبدالناصر .

وقال العجوز مبتسما :

- هذه مصيبتك ! ولو كنت من أبناء الجيل السابق ما سألت مثل هذه الأسئلة أو لاستطعت أن تجيب عنها بنفسك قبل أن تسألها .

وقال الشاب ساخرا :

- أجبنى أنت يا شيخ العلماء..

وقال العجوز :

- يا ابنى . إن ما حدث ويحدث بعد وفاة عبدالناصر ، هو نفس ما حدث بعد وفاة سعد زغلول ، ونفس ما حدث بعد وفاة ديجول ، وبعد وفاة لينين ، وبعد وفاة عثمان بن عفان . بعد وفاة كل مؤسس ثورة أو مؤسس دولة .. هل قرأت تاريخ بلدك .؟ اسمع التاريخ : بعد

وفاة سعد زغلول اختير مصطفى النحاس رئيسا لحزب الوفد ، وكان يسمى نفسه خليفة سعد ، ويلقى فى كل عام خطابا طويلا فى ذكرى سعد ، ومع مرور الوقت واطمئنان النحاس إلى شخصيته وقيادته للحزب استغنى عن لقب خليفة سعد . واستغنى عمن كانوا حول سعد . وأصبح يرسل مندوبا عنه لإلقاء الخطاب فى الذكرى السنوية لذكرى سعد . بدل أن يلقى الخطاب بنفسه ! ثم مع مرور الوقت توقف الاحتفال نهائيا بهذه الذكرى .. أصبح سعد زغلول مجرد اسم فى كتب التاريخ وتمثال من حجر .! وفى نفس الوقت قامت جماعة أخرى ترفع اسم سعد فى وجه مصطفى النحاس وتتهمه بأنه غدر بسعد . وخرج على مبادىء سعد . وقضى على ثورة سعد . أى ثورة ١٩١٩ . وصلت هذه الجماعة إلى أن أصبحت حزبا يسمى « الحزب السعدى » تولى الحكم فترات وكان يضم شخصيات لها قيمتها الوطنية .. وإذا أطلقت الآن حرية الأحزاب حتى آخرها قام حزب يسمى نفسه « الحزب الناصرى » وإن كنت أشك فى أنه سيضم شخصيات لها قيمتها .. وكل ذلك أمر طبيعى يعتبر من العلامات الثابتة فى التاريخ السياسى لأية دولة .

وصاح الشاب فى عجب :

- كيف يكون ذلك أمرا طبيعيا .. إنه نكبة ..!

وقال العجوز الهادىء :

- أبدا .. لا نكبة ولا يحزنون ! إنه نتيجة طبيعية لتعدد أفراد الطبقة الحاكمة : فمنهم أفراد يرتبطون بالحاكم شخصيا ويخدمون شخص الحاكم ويستمدون كل قيمتهم وكل سلطاتهم من استعمال اسمه .. إنهم يمثلون من كان يطلق عليهم فى التاريخ القديم « البلاط الخاص لصاحب الجلالة » .. ومنهم ـ أى من أفراد الطبقة الحاكمة ـ من لا يربطون أنفسهم ب بشخص الحاكم ، ولكنهم يرتبطون بالنظام نفسه .. بمبادىء وأسس هذا النظام .. ويستمدون قيمتهم من الحرص على بناء وخدمة النظام لا الشخص .. فإذا مات الحاكم فمفروض أن يموت بلاطه الخاص معه ، فى حين يبقى الفريق الآخر لأن النظام لا يموت ، ولكن أفراد البلاط لا يريدون الموت : فإما أن ينقلهم الحاكم الجديد إلى بلاطه وبنفس سلطاتهم السابقة ، وإما أن يبدءوا فى معارضته وجمع القوى ضده ..!

وقال الشاب ساخرا :

- أفادكم الله .. إنك تجعل من كل ما حدث أمرا طبيعيا .. لا أخطاء ولا مكاسب .. كل شيء طبيعي ومن حقنا أن ننام ..!

وقال العجوز :

- تستطيع أن تنام فعلا ولكن بعد أن تفهم .. إن ما يقلقك ويثيرك ليس ما حدث . ولكن عدم فهم ما حدث .. إن ثورة ٢٣ يوليو مرت في نفس المرحلة التي مرت بها كل ثورات العالم .. والمرحلة الأولى دائما هي مرحلة الحكم : أن تفرض الثورة نفسها كقوة حاكمة .. ولكي تفرض نفسها يجب أن تقضي على كل القوى التي كانت تحكم قبلها .. ثم تقضي على كل القوى المتصارعة في داخلها على الحكم .. ثم تقضي أيضا على القوى الأجنبية التي يمكن أن تسيطر على الحكم .. وما حدث في ثورة ٢٣ يوليو من جرائم وسرقات وإهدار لحقوق الشعب لا يقاس بما حدث في الثورة الفرنسية أو الثورة الشيوعية الروسية أو أية ثورة أخرى استطاعت أن تفرض نفسها كقوة حاكمة .. وهذا هو كل ما تحقق في مرحلة جمال عبدالناصر .. فقط الاستمرار في الحكم .. حكم ثورة ٢٣ يوليو .

وقال الشاب في دهشة :

- لا شيء سوى الاستمرار في الحكم ! أفهمني .. إنك تنكر كل ما حدث ..

وقال العجوز وهو يمد يده ويلتقط مبسم الشيشة :

- أنا لا أتحدث عما حدث . ولكني أتحدث عما تحقق . كل ما تحقق هو الاستمرار في الحكم .. وانفخ في الحجر حتى تشتعل النار . وتسلك أنفاس الشيشة ، وارتاح منك في الدخان .!

٣

قال الشاب وهو قرفان :

- أريد أن أفهم كيف يفكر القذافي ؟

وقال العجوز وهو يرفع مبسم الشيشة من بين شفتيه :

- يجب أن تفهم أولا كيف تفكر موسكو ؟

وصرخ الشاب :

- يا عمي . ارحمني من سيرة موسكو وواشنطن التي تقذفني بها

كلما سألت سؤالا .! إنك تتكلم بعقلية هاربة تهرب من العجز العربى والغباء العربى وتختبىء بين ساقى موسكو وواشنطن .!
وقال العجوز دون أن يهرب من حدة الشاب :
– العكس هو الذى يحدث : فالعجز العربى والغباء العربى هما اللذان يدفعان موسكو وواشنطن إلى فرض فكرهما وقيادتهما على العرب ..!
وقال الشاب فى ضيق :
– إنها ليست مشكلة عالمية. إنها مشكلة محصورة بين مصر وليبيا.
وقال العجوز وهو يبتسم كأنه يشفق على الشاب :
– حتى تفهم ما يجرى على الحدود بين مصر وليبيا يجب أن تضع فى حسابك ما يجرى على الحدود بين الجزائر والمغرب ، وعلى الحدود بين سوريا والعراق ، وعلى الحدود بين إثيوبيا والصومال ، وعلى الحدود بين ليبيا وتشاد ، وبين إثيوبيا والسودان ، وعلى الجدود بين أنجولا وزائير وعلى الحدود بين اليمن الشمالية واليمن الجنوبية، وعلى الحدود بين عدن وظفار وبين العراق والكويت .! فإذا جمعت كل هذا اكتشفت أنه كله تخطيط واحد وعملية واحدة .! أى أنها معارك مختلفة فى حرب واحدة .. حرب عالمية .. أى أمريكا وروسيا .!
وقال الشاب ساخرا :
– وطبعا تريد أن تقول : إن روسيا تستخدم القذافى لتحارب به أمريكا فى مصر !
وقال العجوز الهادىء :
– هذا صحيح ..
وقال الشاب مستمرا فى سخريته :
– مرت فترة كان القذافى أيامها يعادى روسيا وكنا نحن أصدقاءها. فهل حاول الأمريكان أيامها استخدام القذافى ضد مصر .؟
وقال العجوز وهو ينفث دخان الشيشة فى الهواء :
– ربما .. ولكن ليس بهذه البشاعة التى تحاول بها روسيا .! لأن أمريكا تعتمد أساسا على إسرائيل لا على القذافى .. كان القذافى أيامها بالنسبة لها مجرد عنصر مساعد .!
وقال الشاب :
– على كل حال لا تنس أن جمال عبدالناصر أيضا كان يعتمد

اعتمادا كاملا على روسيا فالقذافى لم يفعل شيئا إلا أن يكون عبدالناصر !

ونظر العجوز إلى الشاب كأنه يتهمه بالغباء :

– هل تتكلم جادا أو مجرد نكتة ؟

وقال الشاب فى حماس :

– منتهى الجد .!

وتنهد العجوز كأنه يشفق على شباب السياسة هذه الأيام وقال :

– ربما حاولت روسيا أن تستعيض بالقذافى عن المرحوم عبدالناصر .. ولكن الفرق بينهما كبير : جمال عبدالناصر كان يحارب فى سبيل قضية وطنية .. وكان يردد أنه يقبل التحالف مع الشيطان فى سبيل هذه القضية ! يقصد التحالف مع روسيا ، ولكن القذافى ليس لديه قضية وطنية تهدد استقلال أو سلامة بلده .. فلماذا تحالف هو والشيطان ..؟

وكرر الشاب السؤال ساخرا :

– لماذا يا سيد العارفين ؟

وقال العجوز وهو يتنهد أسفا :

– لأنه مصاب بشهوة الزعامة ! والزعامة عندما تصبح شهوة تصبح خطرا على صاحبها وعلى من حوله كشهوة تعاطى المخدرات ! إن مدمن المخدرات قد يسرق أو يقتل حتى يشبع إدمانه .! وكذلك مدمن الزعامة .! وهو إدمان يتسع : إذا تعود زعامة ليبيا أصبح فى حاجة إلى زعامة مصر وإذا أدمن زعامة مصر أصبح فى حاجة إلى زعامة السودان .. و .. و .. إلى أن يروح ضحية إدمانه ! وقد كانت روسيا تستغل فى جمال عبدالناصر حاجته لتأمين بلده وكسب قضيته وهى الآن تستغل فى القذافى شهوة الزعامة .. إنها تعطيه المخدرات .. أسلحة وخبراء تسيطر بهم على فكره .. وتأخذ أيضا الثمن .!

وقال الشاب :

– بالمناسبة .. لماذا تشترط روسيا دائما دفع الثمن بالدولارات .؟ كيف تكون دولة كبرى وتشترط عدم التعامل إلا بعملة الدولة الكبرى الأخرى .؟ إنى بصفتى صديقا لروسيا أعترض .. إنها تمرمط نفسها وتمرمط أصدقاءها معها عندما تعترف بأن الروبل السوفيتى لا يصلح

للتعامل العالمى ! الدولار وحده هو الذى يصلح.!

وقال العجوز :

– اعذرها إنها فى حاجة إلى شراء القمح والكوكاكولا من أمريكا.!

وسكت الشاب طويلا كأنه استسلم لمنطق العجوز ثم قال فى أسى :

– إن ما يحيرنى هو أن كل الحروب بين الحدود تدور بين جمهوريات .. الملكيات العربية لا تحارب بعضها بعضا ..

وقال العجوز وهو يشارك الشاب فى أساه :

– ربما لأن الملكيات نظم قديمة اكتسبت بالممارسة خبرة وعقلية العجائز .. أما الجمهوريات فهى لا تزال نظما حديثة شابة .. والشباب تسيطر نزواتهم على تصرفاتهم حتى لو كانت نزوات سياسية أو وطنية .. ومع الوقت أثبت العجائز أنهم أقدر على الحكم من الشباب .!

وقال الشاب وهو يعانى أكثر من أساه :

– هناك ما يحيرنى أكثر : إن أشد المعارك وأعنفها تدور بين دول تؤمن وتعيش فى داخل مذهب سياسى واحد بل تحت زعامة فكرية واحدة .. سوريا والعراق تعيشان داخل تنظيم حزب البعث وداخل فكر ونظرية الأستاذ ميشيل عفلق .. ومصر وليبيا مفروض أنهما تعيشان داخل تنظيم تحالف قوى الشعب العامل وداخل نظريات الزعيم جمال عبدالناصر لماذا إذن الحرب .؟ لماذا ؟

وقال العجوز كأنه يربت كتف الشاب حتى لا يبكى :

– يا ابنى . لا ميشيل عفلق ولا جمال عبدالناصر لأى منهما نظرية .! إن كلا منهما ليس له أكثر من دعوة .. نداء .. هتاف .. والهتافات لا تكفى لتحقيق وحدة الفكر ولا وحدة المصالح ولا حتى وحدة الطريق !

وقال الشاب كأنه انهار :

– أنا يائس ..!

وقال العجوز فى حماس :

– لا . ولا يمكن .. إن شبابك ينقذك من يأسك . أما أنا فلا ينقذنى من يأسى إلا أملى فيك .. سأطلب لك كوب كركديه حتى تسترد نشاطك.. وفهلوتك !

أغسطس ١٩٧٧

١

قال الشاب بلا اهتمام :
– ما رأيك فى رحلة فانس ؟
وقال العجوز فى قرف :
– تكرار ممل لرحلات كيسنجر ..
وقال الشاب ضاحكا :
– والله نسينا كيسنجر .! أتذكر أيام كيسنجر ؟ الله يمسيه بالخير .. المهم .. لا شك أن هناك فارقا بين رحلات كيسنجر ورحلات فانس ..
وقال العجوز :
– إنه الفرق بين سيارة موديل ٧٥ وسيارة موديل ٧٧ .. كلتاهما سيارة أمريكية .. نفس الموتور .. والفرق فى الشكل كالفرق بين سيارة بويك وسيارة كاديلاك ..
وقال الشاب فى استرخاء :
– ولكن كل موديل جديد يحمل تطورا جديدا .
وقال العجوز ساخرا :
– حدث تطور فى جهاز تكييف الهواء السياسى الأمريكى : كان كيسنجر يتحرك كأنه يتحمل المسئولية وحده . وكان يكثر من الحركة إلى حد تتداخل القضايا العالمية بعضها وبعض حتى يعجز أصحاب كل قضية عن تحديد مصيرهم .. وقد تغير جهاز التكييف وأصبح فانس يتحرك فى حدود مسئولية رئيسه كارتر .. أو على الأصح وضع كارتر فى مقدمة المسرح . فاتخذت القضية شكلا أقوى .. واستطاع كارتر أن

يفصل القضايا بعضها عن بعض . فازداد اطمئنان أصحاب كل قضية..
وهذا ما أعتبره مجرد تطور فى جهاز التكييف !

وقال الشاب المسترخى :

– والأمل .؟

وقال العجوز فى قرف ؟.

– لا أمل إلا إذا اعترفت أمريكا بالواقع !

وسأل الشاب :

– وما هو الواقع .؟

والتفت إليه العجوز كأنه يلومه على جهله وقال :

– الواقع يقوم على عنصرين .. أولا .. إسرائيل لا تريد السلام ، وليس السلام فى مصلحتها .. إنها القوة التى تحتل الأرض . وكل المغريات لا تساوى قيمة احتلال واستيطان الأرض ! وثانيا .. إن الحرب لم تتوقف قط بين إسرائيل والعرب . ولكن المعركة انتقلت إلى داخل الأرض الأمريكية .. وبرغم أنها ليست معركة سلاح فإن شهداءها من العرب أكثر .. إن شهداءها هم الفقراء ضحايا إضاعة الأموال العربية على الأرض الأمريكية .! وقال الشاب وقد بدأ يفتح عينيه كأنه يصحو من نوم :

– ماذا تريد من أمريكا أن تفعل إزاء هذا الواقع ..؟ وقال العجوز كأنه مغتاظ من أمريكا :

– أريد من أمريكا أن تكون أكثر صراحة مع نفسها .! أن تعترف أن إسرائيل لم تحتل هذه الأرض ـ أرض سنة ٦٧ ـ إلا بموافقتها . بل بناء على طلبها ! كان هذا فى مصلحتها أيامها عندما كان عبدالناصر مستسلما للسوفيت .. وقد تغيرت مصالح أمريكا بعد عبدالناصر .. أصبح من مصلحتها أن تعيد الأرض لأصحابها . ولكن إسرائيل تعترض .. لو كانت قد احتلت الأرض بلا إذن من أمريكا كما حدث عام ٥٦ لانسحبت فورا بمجرد كلمة أمريكية كما حدث أن انسحبت بكلمة من الرئيس إيزنهاور .! ولكن كارتر اليوم ليس لكلمته قيمة كلمة ايزنهاور .!

وقال الشاب :

– وماذا يفعل كارتر إذن .؟

قال العجوز كأنه يهتف :

– يجب عليه ألا يكتفى بالكلمة .. يجب أن يخرج عن أسلوب التحايل وأسلوب الرشوة التى يقدمها لإسرائيل ويعلن أسلوب الضغط العنيف.. وأن يحدد موقفه من المعركة التى تدور داخل أمريكا من خلال الأجهزة والسراديب .. أن يتخذ موقفا صريحا .. إنه ليس وسيطا ولا سمسارا.. ولا نهازا للفرص يحاول أن يستغل كلا من اليهود والعرب بالوقوف بينهما .. إنه صاحب رأى .. وصاحب موقف .. مع هذا أو مع ذاك . وله من القوة بحيث يستطيع أن يفرض رأيه على كل إمكانات بلده فيوجهها بحيث لا تخدم إلا هذا الرأى .. بدلا من أن يقال عنه إنه ينافق اليهود ليكسب قوتهم الانتخابية التى لا يزال فى حاجة إليها عندما يجدد مدة رياسته .. وينافق العرب حتى يكسب قوتهم البترولية وقوتهم الاستراتيجية .

وتثاءب الشاب فى كسل وقال :

– لا تتحمس يا أستاذى العجوز .. حماسك لن يصل بك إلى شىء !

وقال العجوز فى دهشة :

– ماذا تقصد .؟

قال الشاب ساخرا :

– إنكم الجيل الذى يبنى كل أحلامه على كلام ويسمى كلامه سياسة .. إن ما بين العرب وأمريكا كلام .. وما بين العرب وإسرائيل كلام .. نحن جيل آخر .. نحن جيل لا يؤمن بالكلام ولكننا نؤمن بالعمل ..

وقال العجوز ساخرا :

– وما العمل يا زينة الشباب الكسالى ؟

وقال الشاب فى حدة :

– العمل هو القتال !

وقال العجوز ساخرا :

– حتى القتال لم تعد تستطيع أن تبدأ فيه إلا بعد الكلام مع أمريكا.. إن مفاجأة حرب أكتوبر لن تتكرر ؛ لأن الظروف الدولية حولنا تغيرت، ولأن العالم أصبح يعرف أن السادات يمكن فعلا أن يحارب ! فاطلب لنا القهوة ، ودعنى أتم كلامى .. إن الكلام مهم هذه الأيام يا ابنى .!

٢

كان الشاب يجلس مكتئبا وهو يزفر أنفاسه فى ضيق والتفت إليه العجوز يسأله :

– ماذا بك ؟

قال الشاب وهو يزفر :

– أنا فى حالة زهق .. زهق سياسى ..

وقال العجوز :

– هذا طبيعى ما دمت تتجاهل شبابك وتعيش سياسيا كالعجائز ، فتكتفى بأن تجلس مثلى على هذا المقهى .!

وقال الشاب فى يأس :

– ماذا تريدنى أن أفعل ؟

قال العجوز :

– تحرك .. لماذا لا تحاول مثلا أن تنضم إلى حزب من الأحزاب الثلاثة القائمة ؟

قال الشاب الزهقان :

– إنها أيضا أحزاب العجائز .!

وقال العجوز :

– إن الشباب يستطيعون أن يفرضوا أنفسهم عليها كما فرضت نفسك على هذا المقهى !

وقال الشاب فى قرف :

– إنى لا أجد نفسى فى أى حزب منها : يقولون إن اليمين هو الرأسمالية وأنا لست مقتنعا بالرأسمالية ! ويقولون : إن اليسار هو الماركسية أو الاشتراكية العلمية وأنا لست ماركسيا ولست مقتنعا بالاشتراكية العلمية ! ثم يقولون : إن الوسط بين بين وأنا لا أريد أن أعيش بفكرى بين بين !. لا فوق ولا تحت .! لا أريد أن أرقص على السلم .. أين أذهب إذن .؟ لا أدرى .!

قال العجوز وهو يلتفت إلى الشاب كأنه يهم أن يلقى محاضرة طويلة:

– يا بنى . هذه التقسيمات بين اليمين واليسار والوسط لا ترمز إلى مذاهب أو نظريات مختلفة . ولكنها ترمز إلى دلالات أخرى متعددة :

فـقد تكون مـجرد تقـسيم بـين الأحزاب بعـضهـا وبعض : أى أن هذا الحزب يعـتبر يمـينا بالنسبة للحـزبين الآخرين حتى لـو لم يكن يمينا رأسماليا ! وهذا يسار بالنسبة للآخرين حتى لو لم يكن يسارا شيوعيا! وهكذا .. حتى فى داخل الحـزب الواحد كالحـزب الشيوعى السوفـيتى تجد يمـينا ويسارا ووسطا بالنسبة لاخـتلاف وجهة نظر الأعـضاء فى تفسيـر الشيوعية ! وهناك مـفهوم آخر لهـذا التقسيم . مفـهوم يحدده الموقف الدولى : كأن يعـتبر اليـمين هو التبعـية لأمريكا . واليـسار هو التبعيـة لروسيا . والوسط هو الوقوف على الحياد بيـن أمريكا وروسيا.. وهكذا .. دلالات متعددة .. فلا تبدأ بالاختيار بين اليمين واليسار والوسط، ولكن لتبدأ باختيار المذهب أو الفلسفة السياسية التى تؤمن بها .

وقال الشاب فى يأس :

– اخـتـرت المذهب والفلسـفة ، ولـكنى لا أجـد الحزب الذى يعـبـر عنهما.!

وقال العجوز فى دهشة :

– لمـــاذا ؟

قال الشاب وهو مستسلم ليأسه :

– لأن الفلسفـة التى أومن بها تقول : إن الأحـزاب لا يمكن أن تقوم بقرار من الدولـة ولا يمكن أن يعين رئيس حزب بـقرار من الدولة ! إن الحزب يقـوم نتيـجة معـركة وطنيـة أو فكرية .. فما هـى المعارك التى خاضتها هذه الأحزاب .؟ إن حزب الوفد قام نتيجة معركة ثورة ١٩١٩، وحزب الأحرار الدستـوريين أو السعديين قام نتيـجة معارك فى الرأى السـياسى داخل حـزب الوفد انتـهت بالانفصـال فى أحزاب أخـرى .. وهكذا .. هكذا تقـوم الأحزاب فى كل بلاد العـالم .. ولكن عندما تـقوم الأحزاب بقـرار من الدولة فقـد أصبحت أقـرب إلى المصالح الحكومـية كمصلحة الدمغة أو مصلحة الرقابة من الأمراض الوبائية .!

وقال العجوز متلعثما :

– إن كل دولة تقوم على حزب يحكم ..

وقال الشاب القرفان :

– ولماذا هذا الحزب بالذات .؟

قال العجوز :

– لأنه الحزب الذى انتصر فى معركة الانتخابات ..
وقال الشاب فى حدة :
– لأنه الحزب الذى يمثل الدولة رسميا .. وصحيح أن الانتخابات كانت حرة .. ولكن حزب الوسط كان يملك سلاحا لا يملكه حزب آخر.. سلاح توزيع الوظائف وتحقيق المصالح عن طريق الدولة ..
وقال العجوز وهو لا يزال يتلعثم :
– يا ابنى . إن موقف الوسط أصبح موقف معظم الأحزاب التى تحكم وخصوصا فى دول العالم الثالث .. فاز الوسط فى انتخابات اسبانيا والبرتغال والهند والمغرب .. وأنديرا غاندى سقطت فى الانتخابات وهى تقود أقدم وأقوى حزب فى الهند ، لأنها لم تستطع أن تثبت أنها وسط ؛ لأن الوسط أصبح يعبر عن الشخصية الوطنية بعيدا عن السيطرة الأمريكية والسيطرة السوفيتية .!
وقال الشاب مقاطعا :
– هذا موضوع آخر لا يمس الوضع الداخلى .. وكل الأحزاب المذهبية أصبحت هى أيضا تدعى الوقوف فى الوسط .. الحزبان الشيوعيان الفرنسى والإيطالى أعلن كل منهما عدم ارتباطه بموسكو ، وأن الشيوعية الجديدة لا تعنى الوقوف ضد أمريكا .. هل تذكر تصريح رئيس الحزب الشيوعى الإسبانى بعد الانتخابات التى جرت هناك .؟ لقد قال : إنه لو كان قد أعلن رفضه الارتباط بموسكو قبل الانتخابات لفاز بالأغلبية .. والأحزاب اليمينية أيضا تتعمد إعلان عدم ارتباطها بأمريكا .. كل العالم يعيش الآن فى الوسط .. وقال العجوز مبتسما فى إشفاق :
– المهم .. ماذا ستفعل بنفسك ؟
قال الشاب :
– سأبقى معك على المقهى ..
وقال العجوز :
– ولكنى عجوز .
وقال الشاب كأنه يسخر من نفسه :
– وأنا ولدت عجوزا ..
وصفق بيديه ينادى (الجرسون) وهو يصيح ضاحكا :
« شيشة للعواجيز يا جدع .!» .

٣

قال الشاب وكأنه يتكلم لمجرد الكلام :

– هل تعتقد أن أمريكا ستعود وتحاول من جديد ؟ ولم يرد العجوز.. بقى صامتا وكأنه لم يسمع السؤال .. وعاد الشاب يقول :

– لماذا لا ترد على سؤالى ؟

وتمتم العجوز وهو يحرك حبات مسبحته فى عصبية :

– اللهم إنى صائم ..

وقال الشاب متهكما :

– هل أنت صائم عن الكلام ؟

وقال العجوز :

– إنى صائم عن السياسة ، وسؤالك سياسى ..

وقال الشاب المتهكم :

– لماذا تصوم عن السياسة ؟ إننا أكثر حاجة إليها فى رمضان ؛ لنقطع بها الوقت ونخفف بها عبء الصوم ونتسلى .!

وقال العجوز فى قرف :

– هكذا شباب هذه الأيام .. يتحدثون فى السياسة أو يشهدون مسرحية مضحكة أو يرددون أغنية (يا امه القمر على الباب) لا فرق.. كله ضحك ولهو وضياع .! يا ابنى . السياسة عقل يعمل ويدرس ! وحكمة رمضان هى إراحة كل أجهزة الجسم .. واراحة الأسنان والمعدة والمصارين والكبد والطحال وكذلك إراحة العقل الذى يعمل ويدرس !.

وقال الشاب ساخرا :

– كأنك تطلب أن يعيش المسلمون كلهم فى إجازة طوال شهر رمضان !

وقال العجوز فى هدوء :

– إنهم فعلا فى إجازة .. فى النهار نائمون وفى الليل يهضمون.!

وقال الشاب :

– لا تنس أننا حاربنا فى رمضان ..

وقال العجوز :

– كان تعمدا لتحقيق مفاجأة العدو .. ورمضان يستغل كثيرا فى

الحروب .. العدو يهاجم فى رمضان اعتمادا على أن المسلمين صائمون ويعتبرون الشهر شهر سلام ! والمسلمون يهاجمون اعتمادا على أن العدو لا ينتظر هجومهم معتقدًا أنهم متفرغون لرمضان .!

وقال الشاب كأنه يتعمد أن يثير النقاش مع العجوز :

- لماذا نسميها معركة ٦ أكتوبر ولا نسميها معركة ١٠ رمضان.؟

وقال العجوز كأنه لا يجد ردا :

- لا فرق .. إنها مجرد تواريخ ..

وقال الشاب فى حماس :

- إن إسرائيل تسميها معركة الكيبور أو عيد الغفران .. فإذا كانوا يستغلون المناسبة الدينية التى وقعت فيها المعركة فلماذا لا نستغل نحن أيضا المناسبة الدينية .؟ انتصر المسلمون فى رمضان وانهزم اليهود فى الكيبور .!

وقال العجوز فى هدوء :

- يا ابنى ، هناك فرق كبير : فإسرائيل لا تجد حجة لوجودها إلا اعتمادها على التفسير الدينى لتاريخ المنطقة ، وكأنهم يعترفون بأنهم ليسوا أصحاب الأرض إنما هم فقط يدينون بالديانة التى كانت قائمة على هذه الأرض .. ولذلك فهم هناك يعتمدون على التبرير الدينى فى كل تصرفاتهم . ويطلقون الأسماء الدينية على تحركاتهم .. أما نحن فى مصر فنحن أصحاب الأرض .. أصحاب الأرض قبل الإسلام وقبل المسيحية وقبل اليهودية ؛ ولذلك فشعاراتنا تقوم على أننا أصحاب أرض لا على أننا مسلمون أو مسيحيون فحسب .!

وقال الشاب وكأنه ينبه العجوز إلى خطئه :

- هناك حروب كثيرة قامت ضد الإسلام ..

وقال العجوز :

- كانت ردا على الفتوح الإسلامية التى استمرت حتى عصر الإمبراطورية العثمانية ، وهى فتوح كان هدفها نشر الدعوة .. فإذا شملت الدعوة أغلبية الشعب فقد استقر كما حدث فى مصر وفى معظم بلاد الإسلام .. أما إذا عجزت الدعوة عن الوصول إلى الأغلبية كما حدث فى الهند وفى الفلبين وفى قبرص وفى لبنان وفى فلسطين . فإن المعارك تقوم فيها باسم الدين وتستغلها القوى الخارجية ؛ كما حدث فى الحروب الصليبية وفى الحروب الصهيونية ..

وقال الشاب فى حماس :
– حتى نريح أنفسنا فلنحـتفل بذكرى المعركة مرتيـن .. احتفال فى ١٠ رمضـان واحتفال فى ٦ أكتوبر .!
وقال العجوز مبتسما :
– موافق ..
وقال الشاب وهو يتنهد :
– أتمنى أن يكون احـتفـال عشـرة رمـضان كـاحتـفالات زمـان .. احتفالات شعبية لا حكومية .. احتفالات نضحك فيها ونمرح ونرقص .. كمـا يحتـفلون فى فرنسـا بعيـد ١٤ يوليو . وكمـا كنا نحتـفل بالمولد النبـوى « زمـان » كنا كلنا نـضـحك فـرحـيـن مـهللين بمولـد النبى ولا يجمـعوننا لنجلس كطلبـة المدارس لنتلقى دروسا إضـافيـة كأنهم يعاقـبوننا ! إننى فى الاحـتفـالات الأخيـرة لعيد ثورة ٢٣ يولـيو كنت أهرب من كل ما أسمـعه .. ولا أسمع إلا كلاما .. كلامـا .. كلاما.. حتى الأغانى مجرد كلام .. وكانت إصـبعى أقوى من كل ما تحاول الحكومة أن تفرضه علىّ ، فأمد إصبعى وأسكت بها الراديو أو التليفزيون .. إننا نريد أن نعود الشـعب حرية الفـرح بأعياده الوطنيـة حتى يحس فـعلا بأنها أعياد..
وقال العجوز :
– لك حق يا ابنى ، والآن اسكت ولا تتكلم فى السياسة .. إن حكمة رمـضان أن تجـوع حتـى تحس بجوع الفـقـراء . وعندما تصـوم عن السـياسـة تحس بفقـر الزعـماء .. كلهم فـقـراء سيـاسيـون يا ابنى . فارحمهم واعطف عليهم .!

٤

قال الشاب الحائر :
– لم تقل لى رأيك فـيمـا يقـال عن عودة حـزب الوفد إلى الوجـود السياسى ..
وقال العجوز فى قرف :
– أى حزب يقـوم خارج سلطات الدولة يعتبـر نعمة ديموقـراطية . حتى لو كان حزب الوفـد .! فالأحزاب القائمة هى نعمة رسـمية . لأنها

كلهـا وجدت بقـرارات من الدولة وأى حـزب آخـر لا يصدر بقـرار من الدولة يعتبر نعمة شعبية ..

وقال الشاب :

– ولكن لم أعـش حـزب الوفـد ولا أعـرفـه ولا أعـرف (فـؤاد سـراج الدين) . لم يكن الحـزب مـوجـودا عنـدمـا بلغت سن الرشـد السياسى..

وقال العجوز :

– لم يعد الوفد سوى تاريخ .. ولن يستطيع شبابك أن يعود بك إلى الوراء ويعيش التاريخ !

وقال الشاب :

– ألا يمكن أن يعبر الوفد عن مستقبل .؟

وقال العجوز :

– مستحيل ! إن الأحزاب تعبر عن مراحل سـياسية واجتماعية وقد انتهت المرحلة التى كان يعبر عنها حزب الوفد ..!

وقال الشاب :

– ولكنى أعرف أن كثيرين ينضمون إليه ..

وقال العجوز :

– كلهم مثلى .. عـجائز .. يتذكـرون ماضيـهم كما يتذكـرون المجد الزائل أو قصة الحب الأول ..!

وقال الشاب فى حماس :

– أبدا .. بينهم شـباب .! وقـد أصبح حـزب الوفد يثـير مناقـشات كثيرة .. كل المقهى السياسى كان يتحدث عنه ليلة أمس ..

وقال العجوز ساخرا :

– هكذا ليالى رمضان .. كلها يامـيش وقمر الدين وكنافة وقطايف : أى العودة إلى تقاليد الماضى وأحاديث الماضى .!

وصاح الشاب ساخطا :

– حدثنى حديثا جادا .. لا تهـرب من الموضوع .. إن مجرد الحديث عن إعادة الحـياة إلى حـزب الوفد بـدأ يجذب كـثيرا مـن الشبـان وكثيـرا من المستقلين أعـضاء مجلس الشعب ، بل إن كـثيرين من أعضاء حـزب مصر المعروف باسم حزب الوسط كانوا قد أعلنوا انضـمامهم إلى الحزب الجديد

وإن كانوا قد عادوا وانسحبوا .. فلماذا ؟. ما قوة الجذب التى يملكها حزب الوفد . أو ما هى قوة شخصية الزعيم إذا اعتبرنا أن (فؤاد سراج الدين) هو زعيم الوفد الجديد .؟

وقال العجوز هادئا :

- القوة التى يملكها الوفد هى قوة السخط .. السخط على الخسائر والسلبيات والجرائم السياسية التى حدثت خلال الخمس والعشرين سنة الماضية .. هذا السخط دفع الناس إلى الترحم على القديم .. يترحمون على أيام زمان .. الترام والأتوبيس أيام زمان .. وأرغفة الخبز البيضاء الواسعة أيام زمان .. وزوج الفراخ بعشرة قروش أيام زمان .. والفن أيام زمان .. ويشتد بهم الترحم إلى أن يتمنوا وأن يحاولوا أن يهدموا كل الحاضر ويعودوا إلى أيام زمان وإلى حيث تركوا الماضى قبل الثورة .. كالغنى المليونير الذى بنى عمارة كلفته كل أمواله وبعد أن أتمها تهدمت وأصبحت آيلة للسقوط! فقرر أن يعود إلى بيته القديم ؛ ليبدأ من جديد ! هذا هو ما يشد الناس إلى حزب الوفد ؛ كما يشدهم إلى تنظيم الإخوان المسلمين . وكما يشدهم إلى حزب مصر الفتاة ! منذ شهور قليلة تجمع كل أبناء حزب مصر فى جريدة ثم أخليت منهم الجريدة ..!

وقال الشاب :

- والشيوعيون .؟

وقال العجوز :

- لا ، والشيوعية لم تكن قط ماضيا لمصر ..

وقال الشاب حائرا :

- والنتيجة ؟

وقال العجوز ساخرا :

- لا شىء ..

وقال الشاب ثائرا :

- لا يمكن .. كل هذا ثم لا شىء .!

وقال العجوز فى إشفاق :

- كل هذا يحدث فى حدود النظام السياسى للحكم وهو نظام لا يسمح بقيام أى قوة شعبية أو سياسية تهدد النظام نفسه أو تغتصب منه الحكم أو تفرض اتجاهها عليه .. لن يصل أبدا إلى الحكم أى حزب من خارج الحكم ..

وقال الشاب :
- ولكن هناك أحزابا قائمة فعلا ..
وقال العجوز فى هدوء :
- ليس فى مصر إلا حزب واحد مقسم إلى فروع .!
وقال الشاب فى دهشة :
- أى حزب ؟
وقال العجوز :
- حزب الضباط الأحرار .. إن زعيم اليسار من الضباط الأحرار وزعيم اليمين من الضباط الأحرار وحزب الوسط ينتمى انتماء مباشرا إلى القيادة التى يتولاها أحد مؤسسى حزب الضباط الأحرار .. وقد كان حزب الضباط الأحرار منذ تأسيسه يضم كل الاتجاهات المتناقضة.. اليمين واليسار والوسط .. أى الشيوعيين والرأسماليين والمتدينين والمستقلين .. وبقى التشكيل كما هو حتى اليوم .. تغير إطار التشكيل . ومظهره وتغير الأفراد وتغيرت العناوين والشعارات . ولكن الحزب لا يزال قائما قويا منذ قاد ثورة ٢٣ يوليو .
حزب يحتفظ بالقيادة لنفسه واستطاع أن يفتح صدره للقاعدة العريضة من الشعب ..
وقال الشاب وهو أشد حيرة :
- ليس هناك اليوم حزب يحمل اسم الضباط الأحرار ..
وقال العجوز :
- الثورة تحمل هذا الاسم ، وكل تنظيم بعد هذا تنظيم داخل الثورة حتى لو لم يحمل اسمها .. وأرح نفسك واكتف معى بالجلوس على هذا المقهى ؛ لتتفرج على أحداث الشارع السياسى .. إلى أن ينتهى رمضان.. شهر السلام والمحبة والغفران ..
وقال الشاب فى سخط :
- يخيل إلىّ أن الإفطار أصبح حلالا فى رمضان وخصوصا فى هذا المقهى .. سأبتعد عنك قبل أن أشهر إفطارى .. وقفز يجرى إلى بعيد .!

سبتمبر ١٩٧٧

١

قال الشاب وهو يتحدث بلهجة العالم الخبير :

- إنى أحس كأن الحالة التى نعيشها اليوم هى نفس الحالة التى كنا نعيشها فى الشهور التى سبقت أكتوبر ١٩٧٣ : فقد أصبحنا اليوم فى حالة يأس من إقناع إسرائيل بأى حل سلمى كما كنا قبل ٧٣ .. وبدأنا نشك فى قيمة اعتمادنا على أمريكا أو على روسيا كما كنا عام ٧٣ .! وبدأنا نجمع تأييد الدول العالمية لموقفنا ونستجير بالأمم المتحدة ومجلس الأمن كما كنا نفعل قبل عام ٧٣ .. و .. و ..! بل إنه سبق أن أعلنا قبل الحرب أن عام ٧٢ سيكون عام الحسم ؛ كما أعلنا أن عام ٧٧ سيكون عام مؤتمر جنيف ! وقد فشلنا فى أن نجعل من عام ٧٢ عام الحسم ، وأعتقد أننا سنفشل فى أن نجعل من عام ٧٧ عام مؤتمر جنيف ..

وقال العجوز كأنه يلقى موعظة :

- لا تنس أن موقف أمريكا تغير بعد أكتوبر ٧٣ ..

وقال الشاب وهو يقلب شفتيه امتعاضا :

- لم يبد حتى الآن أى أثر لهذا التغيير حتى أصبحت مقتنعا بأن الذى تغير هو الأسلوب واللهجة السياسية لا الموقف .. أو قد يكون الذى تغير هو العلاقات الشخصية الخاصة بيننا وبين أمريكا لا العلاقات بين أمريكا وإسرائيل : أى أن أمريكا اليوم تساعدنا اقتصاديا وتساعدنا فى التعمير ، وتساعدنا فى إقامة مشروع لتربية الدواجن فى مقابل المزرعة الآلية التى كانت روسيا قد سبق أن تبرعت بها . ولكن أمريكا فى الوقت نفسه مستمرة فى تسليح إسرائيل وفى إعانتها

وإقراضها وفتح باب التبرعات لها ..

وقاطعه العجوز قائلا :

– هل تعرف ماذا تعنى هذه التبرعات التى تجمعها إسرائيل من أمريكا ..؟

وقال الشاب :

– ماذا تعنى ؟

وقال العجوز وهو يزفر فى حسرة :

– معناها أن المواطن الأمريكى بدل أن يدفع الضرائب للدولة الأمريكية يدفعها لدولة إسرائيل سواء كان هذا المواطن يهوديا أو غير يهودى . فالقانون هناك يخصم قيمة التبرعات من مستحقات الضرائب.. وهذا لا ينطبق على التبرعات التى يمكن أن تجمع لمصر : أى لو أن الجالية العربية فى أمريكا جمعت من بينها تبرعات لمصر فلا تخصم هذه التبرعات من مستحقات الضرائب المفروضة على الأفراد المتبرعين .. لأن هذا حق يجب أن يصدر به قرار من مجلس الشيوخ ..

وقال الشاب :

– ربما استطعنا أن نستغل الصداقة الجديدة والعلاقة الخاصة فى إصدار مثل هذا القانون وخصوصا أن فى أمريكا مواطنين من أصل عربى أصبحوا من أصحاب الملايين ..

وقال العجوز :

– من الصعب أن يضع مجلس الشيوخ الأمريكى مصر فى مستوى إسرائيل ..!

وقال الشاب :

– يجب أن يصدر مثل هذا القانون حتى تثبت أمريكا أنها على الحياد ..

وقال العجوز وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :

– إننا نقع فى خطأ جسيم عند تفسير حياد أمريكا .! إننا نعتقد أنها تقف موقف الحياد الإيجابى .. أى الحياد الذى يفرض على الدولة مساندة الحق .. إن حياد أمريكا ليس حيادا إيجابيا إنما هو حياد سلبى.. أى مجرد حياد سياسى يعتمد على اختيار المظهر واختيار الكلمة دون أن يغير شيئا من الموقف .. فأمريكا كانت تقول لنا : « لا » وهى الآن لا تقول « لا » أو « نعم » إنما تلف وتدور بكلماتها حتى

لا تحدد موقفا يفرض عليها أى التزامات مباشرة .. وقد يعرض على مجلس الأمن قرار ضد إسرائيل ولن تستغل أمريكا حق الفيتو ، ولكنها ستلف وتدور حتى لا يؤثر هذا القرار فى إسرائيل وهكذا ..

قال الشاب :

- ولكن أمريكا تؤيد انسحاب إسرائيل وإقامة دولة فلسطين ..

وقال العجوز الساخر :

- إنها تؤيد أيضا حقوق شعب جنوب أفريقيا وشعب روديسيا.. فماذا حدث .؟ لا شىء ! البيض يفرضون القوة على السود كما يفرض اليهود القوة على العرب وأمريكا تكتفى بالكلام .!

وقال الشاب :

- قلت لك إنى أحس كأننا نعيش الشهور التى سبقت حرب أكتوبر عام ٧٣ ، وكأننا على وشك حرب أخرى ..

وقال العجوز وهو ينظر إلى الشاب كأنه يشفق عليه من جهله :

- هل تعتقد فعلا أننا سنحارب .؟

وقال الشاب :

- لم يكن أحد يصدق أننا سنحارب فى أكتوبر عام ٧٣ .. كانت مفاجأة .. وقد تتكرر المفاجأة ..

وقال العجوز المشفق على الشاب :

- المفاجأة نفسها لا يمكن أن تتكرر ؛ لأن العدو اكتشفها وأصبح مستعدا لها .. لقد انتصرنا فى أكتوبر لأن إسرائيل لم تكن تنتظر أن نحارب فعلا وبذلك تحققت المفاجأة .. ولذلك يجب أن نبحث عن نوع جديد من المفاجآت لا تنتظره إسرائيل ، ولا أعتقد أن أى معركة حربية ستكون مفاجأة .. وليست كل المفاجآت تنحصر فى المعارك الحربية .. وقم بنا قبل أن ينطلق المدفع وتبدأ معركتنا مع بطوننا !.

٢

قال الشاب فى براءة :

- ما آخر أخبار وزير الأسعار .؟

ورفع العجوز شفتيه من على مبسم الشيشة وقال فى دهشة :

- ليس عندنا ما يسمى وزير الأسعار .!

وقال الشاب البرىء :

- اقصد « النبوى إسماعيل » .

قال العجوز كأنه ينهر الشاب :

- إنه نائب وزير الداخلية .

وقال الشاب :

- كنت أظن أننا أنشأنا وزارة للأسعار عين لها وزير مختص .! فقد كان النبوى إسماعيل يقضى أربعا وعشرين ساعة فى اليوم يمر بالأسواق ، ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا إذا كان سيادته قد تفرغ تفرغا تاما لمسئولية تحديد الأسعار ! وبما أن تحديد الأسعار ليس من اختصاص وزارة الداخلية فقد ظننت أنهم أقاموا وزارة مختصة بالأسعار عين النبوى وزيرا لها .!

وقال العجوز :

- إنها حملة تنتهى ويعود نائب الوزير إلى مسئولياته فى وزارة الداخلية ..

وقال الشاب فى حدة :

- وبعدها ؟ بعد انتهاء الحملة ماذا يحدث .؟ هل تبقى الأسعار كما تركها نائب الوزير ؟.. إن هذه هى مصيبتنا .. نحل مشاكلنا بالحملات الوقتية .. رئيس الوزراء يمر بنفسه على شوارع العاصمة ؛ ليشرف على نظافتها وتتجمع كل مكانس الدولة وتصبح الشوارع أنظف من نور الشمس ، ونكتب على الصفحات الأولى .. حل مشكلة النظافة .. ثم ما إن يعود رئيس الوزراء إلى مكتبه حتى تعود الشوارع أقذر مما كانت عليه ! وكأن الكناسين يكيدون لرئيس الوزراء ، لأنه تدخل فى شئونهم.! ويجتمع الوزراء ويعلنون أنهم توصلوا إلى حل مشكلة المواصلات .. وترد أتوبيسات جديدة من الخارج .. وتلتقط صورة للوزير وهو يركب الأتوبيس .. ثم لا يكاد الوزراء والكبراء يديرون ظهورهم حتى تعود الأزمة أبشع مما كانت دون أن تظهر صورة للوزير وهو متشعلق على سلم الأتوبيس كبقية أفراد الشعب ! لهذا فإنى أطالب بأن نحصر مسئولية كل وزير فى مشكلة واحدة وننشىء وزارة نسميها وزارة النظافة ، ووزارة نسميها وزارة الأتوبيسات ، ووزارة نسميها وزارة الأسعار.. و ... .

وقال العجوز وهو يتنهد فى حسرة :

- لك حق يا ابنى ، والواقع أن كل النشاط الذى قام به نائب وزير

الداخلية فى الأسـواق كان يمكن أن يكون من اختصـاص مفتش تموين مخصص للسوق وله حق الضبطية القضائية وتحت أمره داخل السوق ضـابط بوليس صـغيـر لا يتـجاوز رتبـة يوزباشى .. كـان هذا يكفى سيطرة الدولة على الأسعـار .. إن الذى يحقق سيطرة الدولة هو النظام الإدارى والحـرص على هذا الـنظام وليس شـخص الـوزير ..! ومع الأسف أضعف ما فى الدولة هو النظام الإدارى .!

وقال الشاب ساخرا :

– لو كنت تقصـد الاعتماد على صـغار الموظفين فكلهم مـرتشون ، لا يمكن أن تطلب من مفتش تموين درجة رابعة أو درجة ثالثة أن يقاوم إغراء تاجر جملة أو تاجر تجزئة لقـد أصبح يقال : إن الرشوة أصبحت حقا ولم تـعد جريمة .! الموظف أصـبح يطالب بحق الرشوة علنا والذى يعـامله أصبح يدفع الرشـوة كأنهـا قانون وإن كـان البعض يعـتبـرها زكاة!. تجار سوق الخضر يدفـعون الرشاوى زكاة عن أرباحهم .. وقد أحل الله الزكاة ..!.

وقال العجوز بعد أن شد نفسـا طويلا من الشيشة كأنه كان يبحث عن كلام يخفف به من حدة هذا الشاب :

– النظام الإدارى كـان يمكن أن يتـغلب على كل ذلـك فهـو يضـمن مراجعة مفتش التموين حتى نضـمن أمانته .. والمراجعة معناها التهديد بالعقاب فإذا خاف الموظف الصغير العقاب خاف أن يرتشى ..

وقال الشاب :

– الحاجة إلى الرشوة أصبحت أقوى من الخوف !

وقال العجوز متهكما :

– والحل يا سيد العباقرة .؟

وقال الشاب :

– الحل هو الارتفاع بمستوى الموظف إلى مستوى الذى يعمل حرا.. إن السكرتير فى الحكومـة يتقاضـى عـشرين جنيهـا والسكرتير فى أى مكتب تصدير يتقاضـى مائتى جنيه .!

وقال العجوز :

– إن زيادة المرتبات تكون نتيـجتها ارتفاع الأسـعار ويبقى الموظف فى حاجـة إلى الرشوة .! والفـرق بين موظف الحكومـة والموظف الحر ليس فى المرتب ، ولكن فى مـقـاييس تقويـم المرتب : موظف الحكومـة

يتقاضى مرتبه ولا يعمل ويرتفع المرتب بحكم الأقدمية برغم أنه لا يعمل ! أما الموظف الحر فمرتبه يقدر على حسب عمله وإذا لم يعمل حرم المرتب ! ولذلك فالحكومة تحتفظ بموظفيها بمرتبات مخفضة لأنهم لا يعملون ، وإذا طبقت الحكومة نظم الإدارة الحرة فإنها ستطرد حوالى ٦٠٪ من الموظفين ، وفى هذه الحالة تستطيع أن ترفع مرتبات الباقين إلى نسبة القطاع الحر.

وحار الشاب فى الرد ! ثم قال كأنه يهرب من الحوار :

– المهم هل سمعت بإشاعة تغيير الوزارة .؟

وقال العجوز فى بساطة :

– لا تصدق .

وقال الشاب :

– إنها إشاعة سمعتها من شخصيات متصلة ..

وقال العجوز :

– لا يمكن ..

وقال الشاب :

– لماذا لا يمكن .؟

وقال العجوز :

– لا يمكن تغيير الوزارة .. يمكن التعديل ولكن التغيير لا يمكن ؛ فرئيس الحكومة هو رئيس حزب الأغلبية والمفروض أن يبقى هذا الحزب فى الحكم إلى انتهاء مدة مجلس الشعب وإجراء انتخابات جديدة ، إلا إذا وجد تفسير أو وضع دستورى لا أعرفه ..

وقال الشاب فى حماس :

– ولكن أن ....

وقاطعه العجوز قائلا :

– أعمل (معروف) دعنى أتم تدخين الشيشة قبل أن يلحقنا مدفع الإمساك .. لا تضيع أنفاسى .! هكذا أنتم يا شباب ! لا تتركون أحدا يتنفس حتى أنفاس الشيشة .!

٣

قال الشاب وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :

– كلما تذكرت موضوع إسرائيل خيل إلى أن العالم العربى كله

جالس معنا فى المقهى .. مائة وأربعون مليون (زبون) عربى يجلسون على المقاعد ويثرثرون .. كلام ! نفس الكلام الذى قالوه أمس ، وقالوه قبل أمس وقبل أمس !. ويقوم من بينهم واحد كأنه عبقرى زمانه ويصيح كأنه المعجزة .. تعالوا نتكلم فى مقهى الأمم المتحدة .. أو فى مقهى الجامعة العربية .. أو فى مقهى مجلس الشعب .. كلام ! . ولا حركة !.

وقال العجوز وهو يشارك الشاب فى ابتسامته الساخرة :

– الحركة لا تبدأ إلا إذا كانت هناك فكرة .. مادام ليس هناك حركة فليس هناك فكرة ..

وقال الشاب فى سخط :

– هذا هو الفرق بيننا وبين إسرائيل !. إسرائيل عندها أفكار تتحرك لتنفيذها .. إنها لا تتكلم أو على الأقل لا تكتفى بالكلام .. إننا لم نسمع إسرائيل قط تتغنى بأمريكا وترسل لها قصائد المديح كما نفعل نحن !. ولم نسمعها تستجدى الأمم المتحدة كما نستجديها !. وبرغم ذلك فأمريكا تعطى إسرائيل وتأخذ من العرب . والأمم المتحدة تجامل إسرائيل فلا تطبق ضدها أى قرار من الخمسمائة قرار .. التى أصدرتها ضدها !.

ورفع العجوز شفتيه من فوق مبسم الشيشة وقال ساخرا :

– العالم ينقسم إلى عالمين : عالم يتحرك وعالم يتكلم باختلاف نسبة الحضارة : فالشعوب التى هى أرقى فى حضارتها هى التى تتحرك . لأن الحركة تحتاج إلى جهد فكرى وحضارى ..

وقال الشاب فى حماس :

– ولكننا يجب أن نرد على حركات إسرائيل بحركات لا بكلام .. إنها تقيم مستعمرات جديدة فى الضفة الغربية وفى الجولان وفى سيناء .. وزعيمهم يقول : إن الاستيطان فى الأرض التى حصلوا عليها أهم من السلام !. فماذا فعلنا نحن .؟ تكلمنا عن السلام .! وإسرائيل تضع أصابعها العشر فوق جنوبى لبنان !. أصبحت هى التى تسيطر وتتحكم هناك . ونحن نتكلم ونسجل كلامنا فى مقهى شتورة ثم نرسله فى خطاب غرامى إلى أمريكا !.

وقال العجوز فى حسرة :

– لم يعد هناك أمل فى أمريكا .. إن إسرائيل تتحرك فى داخلها..

تضـرب .. وهى تضـرب كل رئيـس أمـريكى يحـاول أن يتـحـرر من سيطرتها .. صدقنى أن الصهيونية ـ أى إسرائيل ـ هى التى قتلت جون كنيدى لمجـرد أنه حاول أن يخلق للرئيس الأمريكى شـخصية مـتحررة من سـيطرة مـراكـز القوى !. وهى الـتى أسقـطت نيكسـون بقضـيـة ووترجيت وقد صدر أخيرا كتاب يعترف بهذه الحقيقة .. وأخيرا عندما حاول كـارتر أن يخلق لنفـسه شـخصـية مسـتقلـة عن مراكز الـقوى ويحـاول أن يفرض عـلى إسرائيل رأيه بدأت بـأن أثارت الاتهام ضـد صديقه ومسـتشاره المالى بيرت لانس .. اتهاما يمكن أن يـتسع ليشمل كارتر نفسه وتقوم قـضية أخرى كقضية ووترجـيت . وكان هذا كافيا حتى يبدأ كارتر فى تغيير أسلوب سياسته وأسلوب كلامه !.

وسـأله الشاب :

– ماذا قال أخيرا ؟

وقال العـجوز :

– قـال نفس ما تـقوله إسـرائيل : لا سـلام إلا بعد اسـتكمـال كل العلاقات الدبلوماسية والتجـارية والسياحية و .. و .. وقال : إن أمريكا ستتوقف عن اهتمامها بالقضية إذا لم تتفق الأطراف المعنية بعضـها مع بعض . مـتـجـاهلا أنه لو كـانت الأطراف المعـنيـة تسـتطيع أن تتـفق ما احتاجت أصلا إلى أمريكا !

وسـأل الشـاب :

– وكيف نتحرك ؟

وقال العجوز :

– إذا كنت تقصد التحرك داخل أمريكا فلم يعد لنا أى مجال للحركة هناك ! إن إسرائيل تحتفظ بقوة سيـاسية ضاربة فى داخل أمريكا . أما نحن فقـد نزلنا عن كل ما يمـكن أن يعتبـر قوة ضـاربة داخل الأروقة الأمريكية والسيـاسـة الأمريكية ! . كل البترول العـربى أصبحت أمريكا واثقـة أنه لا يمكن أن يستـعمـل لتهـديدها ، كذلك كل رؤوس الأمـوال العربيـة . وكذلك كل المواقف العربيـة .. حتى الدول العربيـة التى تبدو متـحررة أو ضـاربة لأمريكا لا تخـافها أمـريكا لأنها تسـيطر على كل مقدراتهـا ، فالبترول الليـبى فى يد أمريكا ولو سحبت أمـريكا يدها ما استطاعت ليبـيا أن تدفع ثمن الأسلحة لروسيا .. وعقـدت أمريكا اتفاقا مع الجزائر يعتـبر من أوسع الاتفاقات التى عقـدتها مع بلد عربى .. إن

مصيبتنا هى أننا نعطى كل شىء مرة واحدة ونكتفى بالوعود دون أن نحتفظ بشىء نهدد به فى حالة الإخلال بهذه الوعود !.

وقال الشاب :

– وكيف نتحرك فى مواجهة تحركات إسرائيل داخل الأراضى المحتلة .؟

وقال العجوز وهو يعيد شفتيه إلى مبسم الشيشة :

– لا أدرى ..!

وصرخ الشاب :

– أنا أدرى ! أن نضاعف عشرات المرات العمليات الفدائية داخل إسرائيل .. عمليات كبيرة خطيرة متعددة لا تتوقف أبدا .. إنهم يبنون بيوتهم على أرضنا وكل من يبنى بيتا نقتله .. وإذا لم تتحمل الحكومات مسئولية هذه العمليات فلتتحملها منظمات شعبية .. لقد حاربنا الاستعمار البريطانى بالمنظمات الفدائية الشعبية .. واليهود أقاموا دولتهم بالمنظمات الشعبية الفدائية ، وكانوا يقتلون لمجرد التحرك السياسى ضدهم .. كما قتلوا برنادوت .. وقتلوا .. وقتلوا .. وقتلوا .. لتتحرك المنظمات الفلسطينية تعمل داخل فلسطين ، والمنظمات المصرية تعمل داخل سيناء والمنظمات السورية تعمل داخل الجولان .

وقال العجوز :

– هذه حرب ونحن تعهدنا دوليا بوقف القتال ..

وقال الشاب صارخا وهو يضرب على المائدة بقبضته :

– هذه ليست حربا !. ابتعد عن التعابير الرسمية حتى لا تحرج الحكومات .. ولكنه جهاد وطنى .. والجهاد الوطنى يتحمل مسئوليته الشعب .

وقال العجوز فى برود :

– وهل تسكت إسرائيل .؟

وصرخ الشاب :

– أعرف أنها لن تسكت .. وخير لنا أن نشغلها بالرد على عملياتنا الفدائية من أن نتركها تتفرغ لبناء البيوت على أرضنا !.

وقال العجوز وهو يحاول أن يبتسم :

– انتظر فقد يجد جديد .. « وكل سنة وأنت طيب » .

وقال الشاب :

– لقد انتظرنا حتى أصبحنا نقف على حافة اليأس !. ولن تكون سنة طيبة إذا مضت هى الأخرى فى كلام !.

وقال العجوز مبتسما :

– هل أطلب لك كعكة ؟

وصرخ الشاب متحمسا :

– لا ، وأفضل الغريبة !

٤

قال الشاب فى برود :

– ماذا تتصور أن تنتهى إليه اجتماعات الأمم المتحدة ؟.

وقال العجوز وهو أشد برودا :

– تذكر ما سبق أن انتهى إليه اجتماع الجامعة العربية !

قال الشاب :

– لا أذكر ..

وقال العجوز :

– لا تذكر أو لا تعلم .؟

وقال الشاب وهو يزفر أنفاسه فى زهق :

– لا أعلم ..

وقال العجوز فى قرف :

– لأنك لا تقرأ ..

وقال الشاب فى حدة :

– إنى أقرأ جميع الصحف اليومية ولم أجد فيها ما يثير الاهتمام باجتماع الجامعة العربية ..

وقال العجوز :

– تقرأ الصحف المصرية .. أليس كذلك ؟ لا يكفى يا ابنى !. صحفنا تكتفى بالوقائع والاتجاهات الرسمية . أما ما تحت الرسميات فتستطيع أن تجده فى صحف لا تصدر فى مصر !.

وقال الشاب :

– تقصد الصحف الأجنبية .؟

وقال العجوز :

– وبعض الصحف العربية أيضا ..

وقال الشاب ساخرا كأنه يعاير العجوز بأنه يناقض نفسه ..

– لقد سبق أن قلت لى : إن جميع الصحف العربية أصبحت صحفا رسمية تخضع لسيطرة الحاكم لا لسيطرة القانون .. ليست بينها صحف حرة .. فلماذا غيرت رأيك ؟

وقال العجوز دون أن يغضب :

– لم أغير رأيى .. ولكن هناك اختلافا فى نسبة الحرية الصحفية تبعا لاختلاف اتجاهات كل حاكم وكل دولة عربية : فالصحف المصرية تعتبر أكثر حرية فى بعض المجالات من صحف عربية أخرى ، كما أنها تعتبر أقل حرية فى مجالات أخرى !. وهناك فرق أيضا فى الخدمة الصحفية بين الصحف التى تملكها الدولة والصحف المملوكة ملكية خاصة .. النوع الأول يركز جهده فى خدمة الدولة والنوع الآخر يركز جهده فى خدمة القارئ أى خدمة « الزبون » .. وإلى الآن .. مع الأسف .. فإن الصحف التى أكثر تقدما فى الفن الصحفى وفى بعض البلاد العربية هى الصحف المملوكة ملكية خاصة ..

وقال الشاب فى زهق :

– دعنا الآن من الصحافة .. و ..

وقاطعه العجوز :

– يا ابنى ، الصحافة كالتليفزيون والراديو أصبحت المصدر الرئيسى للثقافة الاجتماعية والسياسية وخصوصا بالنسبة للشباب أمثالك الذين لم يتربوا ولم يتعودوا قراءة الكتب ولا البحث بأنفسهم عن مصادر أخرى للثقافة .. فإذا كانت صحافتنا ناقصة فكل ما يدور فى البلد من أحاديث ومناقشات تعتبر أحاديث ومناقشات ناقصة .. كمناقشات حضرتك !

وقال الشاب فى سخط :

– ارحمنى من فلسفتك واعمل معروفا ! إنى أسألك عن اجتماعات الأمم المتحدة فتحيلنى على اجتماع الجامعة العربية الذى انعقد منذ شهر .. لماذا ؟

وقال العجوز :

– لأن نتائج هذا الاجتماع تنعكس على الاجتماع الآخر .. بل إن اجتماع الجامعة العربية لم يكن إلا لتنسيق الموقف العربى داخل الأمم المتحدة..

وقال الشاب وهو يخفى سخطه :

– إذن فإننى حتى أرضيك أعترف لك بأنى جاهل ! وقل لى : ماذا حدث فى اجتماع الجامعة العربية ؟

وقال العجوز وهو يتنهد فى أسى :

– اختلفوا ! وكان الخلاف هذه المرة حادا عنيفا ، وإن كان حمال المآسى محمود رياض قال بأسلوبه الدبلوماسى : إنه لم يكن خلافا ولكنه كان تعددا فى وجهات النظر !

وقال الشاب فى لهفة :

– اختلفوا على ماذا ؟

وقال العجوز ساخرا :

– على ألف موضوع وموضوع كحكايات ألف ليلة وليلة .. والأساس هو أن كلا منهم مختلف مع الآخر على تقدير نفسه ، كلا منهم يعتبر نفسه معجزة سياسية ثم لا يجد من بين زملائه العرب من يعترف بهذه المعجزة !

وقال الشاب مستمرا فى لهفته :

– أى موضوعات اختلفوا عليها . ؟ اعطنى أمثلة ..

وقال العجوز فى تأفف :

– مثلا .. طالب الممثل الفلسطينى بتغيير المطالب العربية : فبدلا من أن ينص على انسحاب إسرائيل من الأرض التى احتلت عام ١٩٦٧ ينص على تحرير كل الأراضى العربية ، وقام الخلاف .. حتة حتة يا أخى !. ومندوب العراق أعلن إصراره على رفض القرار ٢٤٢ ، الذى تتمسك به دول أخرى وتجد فيه ملجأها .. ملجأ الأيتام !. واقترحت سوريا المطالبة بطرد إسرائيل من الأمم المتحدة ومطالبة الدول بقطع علاقاتها معها .. ولم توافق مصر .. ليس هذا وقته .. وليبيا المسكينة تستجدى عقد مؤتمر القمة فى طرابلس ولا أحد من الرؤساء يثق فى كرم ضيافة القذافى .. و .. و .. وألف ليلة وليلة !

وقال الشاب كأنه يتعلق بقشة تنقذه من الغرق :

– ولكنهم اتفقوا على شىء ..

وقال العجوز :

– لا شىء .. إلا البيان الرسمى الذى صدر عن الاجتماع لأنه بيان فارغ !.

وقال الشاب فى دهشة :

- وهل نشر كل ذلك فى جريدة عربية ..؟

وقال العجوز :

- نشر ..!

وقال الشاب :

- ولماذا لم ينشر فى صحفنا .؟

وقال العجوز الساخر :

- لأن صحفنا هى الدولة .. والدولة ترى عدم نشر الغسيل القذر !

وقال الشاب :

- وما علاقة كل ذلك باجتماع الأمم المتحدة ؟

وقال العجوز :

- كله سينعكس هناك ؟ وسينعكس على مقابلات وزراء الخارجية العرب بكارتر أو بوزير خارجيته فانس .. ثم يجب أن نقدر أن هذه الاختلافات ليست اختلافات فى الرأى . ولكنها اختلافات فى السياسة الخارجية : أى فى الموقف بين أمريكا وروسيا .. ونتيجتها أن لا أمريكا معنا ولا روسيا ! وتمرح إسرائيل فى حرية مهما اتخذت الدول الصغيرة من قرارات فى الأمم المتحدة !

وقال الشاب فى حسرة :

- والنتيجة ؟

وقال الشيخ ضاحكا :

- فى رمضان القادم ننتظر النتيجة . فقد تعودنا أن تأتى النتائج فى رمضان .. أمامنا عام كامل بلا نتائج .. أطلب لى شيشة أقطع بها عام الفراغ !

وقال الشاب اليائس :

- وأنا .؟

وقال العجوز :

- (وكمان شيشة) على حسابى ..!

أكتوبر ١٩٧٧

١

قال الشاب مبتسما :

– عـودتنى أن تـفـصح لى عن كل مـا تفـكر فـيـه . ولكننى أراك الآن تفكر ولا تتكلم .!

وقال العجوز فى عصبية:

لن يهمك ما أفكر فيه .

وقال الشاب فى إلحاح :

– جربنى .. ضعنى تحت الاختبار !

وقال العجوز فى زهق :

– إنى أفكر فى موضوع الصومال ..

وقال الشاب كأنه نكب :

– الصومـال ؟ ماذا ألقى بفكرك إلى آخـر الدنيا ؟ هذه هى المصيـبة التى ورثناها مـنكم !. نهـمل البـيت ونفكر فى بيت الجـيـران !.. بيـتنا يحترق . ولكن ما يشغلنا حريق آخر فى نهاية الشارع ! حرام عليكم .. دعونا نعيش لمصر .. مصر أولا وأخيرا ..

وقال العجوز فى قرف :

– قلت لك : إنه لن يهمك ما أفكر فيه لأنك كبقية الشبان تعيشون على السطح ولا تفهمون ما فى الأعماق ! ويجب أن تعلم أنه كى تنقذ بيتك من الحـريق يجب أن تطفىء الحريق الـذى اشتـعل فى آخر الشـارع.. هكذا أصبـحت السياسة .. وعندمـا اشتعل الحـريق ـ حريق الشيوعـية ـ فى أنجولا على شاطىء المحيط الأطلنطى فى غربى أفـريقيا خرجت سيارات

المطافىء فى المملكة السعودية على الطرف الآخر من القارة .. وما حدث فى الصومال الآن يمس صميم الشارع السياسى فى مصر !

وقال الشاب ساخرا :

- ماذا يحدث هناك .؟

واعتدل العجوز وألقى بمبسم الشيشة من يده كأنه يهم أن يلقى محاضرة وقال :

- سأقول لك متجاهلا غباءك السياسى وأمرى لله !. أنت تعلم أو على الأقل سمعت أن الحبشة والصومال كلتيهما حليفة لموسكو . ووقعت الحرب بين الحليفتين وانحازت موسكو للحبشة وبدأت تمنع عن الصومال الأسلحة التى تحارب بها . فأسرعت الصومال وأعلنت صداقتها لواشنطن . ورحبت واشنطن بهذه الصداقة . وأعلن كارتر بنفسه أنه سيمد الصومال بالأسلحة لتدافع عن نفسها ضد الحبشة ، وأنه حصل على موافقة مجلس الشيوخ ، وردد هذا الكلام كل حلفاء أمريكا كبريطانيا وفرنسا وبعض الدول العربية ، وفرحت الصومال ، ولكنها لم تلبث أن أصيبت بصدمة !. ففجأة غيرت واشنطن موقفها وأعلنت أنها لا تؤيد استمرار القتال فى صحراء أوجادين . وأنها أوقفت تصدير الأسلحة للصومال ! وفى نفس الوقت رفضت انجلترا وفرنسا تصدير السلاح . ورفضت الجامعة العربية تعريب موقف الصومال ! وقال المسئولون العرب : إنهم سيسعون للتوفيق بينها وبين الحبشة .. والصومال فى مصيبة فقد خسر موسكو ولم يكسب شيئا من واشنطن ..!

وقال الشاب وهو مبهور بما يسمعه :

- لماذا تغير موقف أمريكا فجأة ؟

وقال العجوز :

- قيل : إن انتصارات الصومال فى صحراء أوجادين جعلت أمريكا تخاف على جارة الصومال الأخرى وهو كينيا التى تعتبر مركز قيادة أمريكا فى أفريقيا .. فإن أوجادين فيها مجموعة من القبائل الصومالية تطالب بالانضمام للصومال . وفى كينيا أيضا قبائل صومالية تطالب بالانضمام . فإذا استولت الصومال على أوجادين فقد تستولى بعدها على كينيا .. ولذلك عدلت أمريكا عن موقفها حماية لمركز قيادتها رغم

التصريحات السابقة لكارتر ! بل لعل كارتر اتهم بأنه تسرع وأنه لا يزال رئيسا مبتدئا ! ولكن ليس هذا هو أهم ما قيل ..

ومد العجوز يده يلتقط مبسم الشيشة والشاب يتعجله صائحا :

- ما هو الأهم ..؟

قال العجوز وهو ينفث الدخان :

- الأهم هو ما قيل عن اتفاق تم بين واشنطن وموسكو : أن تعدل واشنطن عن موقفها من الصومال وتعدل موسكو عن موقفها من منظمة التحرير واجتماع مؤتمر جنيف .. وقيل : إنه فى نفس الوقت الذى كان فيه الرئيس الصومالى محمد زياد برى حائرا مع أمريكا كان الوزير السوفيتى أندريه جروميكو يقنع « ياسر عرفات » بما كانت موسكو ترفض الاعتراف به وهو أن حل قضية الشرق الأوسط فى يد أمريكا لأنها وحدها التى تستطيع أن تضغط على إسرائيل .. ولوحظ بعدها أن موقف « ياسر عرفات » ومنظمة التحرير بدأ يتخذ اتجاها جديدا بالنسبة لأمريكا ..

وقال الشاب كأنه فهم :

تريد أن تقول : إن قضيتنا تحل على حساب قضية الصومال ؟..

وقال العجوز فى حدة :

- لا . وكل ما أريد أن أقوله هو أن القضايا كلها فى يد واشنطن وموسكو على أساس مصلحة كل منهما ! إن واشنطن هذه الأيام تعيد صداقتها مع كوبا فى نفس الوقت الذى ترسل فيه كوبا قواتها لتحارب دولا صديقة لأمريكا .. مصير الدول الصديقة لا يهم .!

وقال الشاب فى دهشة :

- من أين تحصل على كل هذه المعلومات ؟.

وقال العجوز ساخرا !

- لعلها ليست معلومات .. مجرد إشاعات ..

وقال الشاب كأنه يتفاخر بمعلوماته هو الآخر :

- هل سمعت آخر إشاعة ؟.

وسأله العجوز :

- خير ..

وقال الشاب فى سخرية :

- إشاعة تقول : إن (فؤاد سراج الدين) يستمد جرأته من صداقته للسعودية ولأمريكا وأنه مطلوب ..

وقال العجوز مبتسما :

- قلت لك : إن الناس أصبحت تقحم أمريكا وروسيا في كل شيء حتى الإشاعات !

وقال الشاب ضاحكا :

- إن الإشاعات مثيرة ولذيذة أكثر من الأخبار الحقيقية .. سأطلب (واحد سفن آب) وأدفع خمسين قرشا تحية للإشاعات .. السفن آب تعتبرها الحكومة إشاعة ولذلك فهي لذيذة !

وصفق ينادى (الجرسون) ..

٢

قال الشاب وهو يجلس منتفخ الأوداج وقد رفع ساقا فوق ساق :

- أعتقد أن كل الوزراء يجب أن يشاركونا الجلسة في هذا المقهى حتى يستفيدوا !

وقال العجوز في هدوء :

- لا حديث في هذا المقهى إلا عن السياسة . والوزراء لا دخل لهم في السياسة ، ولا يهمهم الاشتراك في أحاديثها ، وإذا تحدثوا فضحونا وفضحوا أنفسهم !

وقال الشاب في عجب :

- لا يمكن .. إنهم وزراء !

وقال العجوز :

- إنهم وزراء تنفيذيون .. أى إداريون .. وقد اختير معظمهم طبقا لتخصصهم ، لا طبقا لسعة أفقهم السياسي .. وهذا هو ما يفرضه نظام الحكم القائم .. أما إذا كان النظام حزبيا فإن الوزير يختار كممثل سياسي للحزب وتصبح السياسة هي تخصصه ، ولا يتكلم إلا في السياسة ويترك المسائل التنفيذية والإدارية لوكلاء الوزارات ..

وقال الشاب المغرور :

- على كل حال هي خسارة : لأننا هنا في هذا المقهى نسمع ونناقش كل ما سيحدث غدا أو بعد غد .. ربما لأن المستقبل يعيش في

الشارع السياسى لا فى مكاتب الأدوار العليا .. الأدوار العليا تعيش الواقع لا المستقبل ، وتلف وتدور داخل هذا الواقع إلى أن تفاجأ بثقب يستنزف الواقع الذى تعيشه وماسورة تصب عليها واقعا آخر جديدا .. هل تذكر حديثنا فى جلستنا الأخيرة ؟.. كنا كأننا نرى المستقبل ..!

وقال العجوز وهو يشد أنفاس الشيشة :

– أى حديث ؟

وقال الشاب فى حماس :

– لقد تحدثنا عن عملية المقايضة أو عملية « خد وهات » التى تمت بين واشنطن وموسكو : أن تقوم واشنطن بتغيير موقفها من مشكلة الصومال ، وتتوقف عن إمداده بالسلاح فى مقابل أن تعدل موسكو موقفها من منظمة التحرير الفلسطينية ومن قضية الشرق الأوسط ! قلنا هذا الكلام فى الأسبوع الماضى وبعدها بيومين صدر البيان الأمريكى السوفيتى الخاص بمؤتمر جنيف ..

وتنهد العجوز قائلا :

– وخسرنا ..

وقال الشاب فى دهشة :

– ماذا خسرنا ؟.

قال العجوز :

– خسرنا الاعتماد على معارضة السوفيت لنيات أمريكا ومعارضة أمريكا لنيات السوفيت .! هل تذكر القرار ٢٤٢ .؟ لقد قام حوله منذ اليوم الأول خلاف عالمى : هل هو ينص على جلاء إسرائيل عن كل الأراضى التى احتلتها عام ٦٧ أو يعطيها الحق فى أن تحتفظ ببعض هذه الأراضى .؟. والخلاف بالنص العربى يدور حول حرفى « أل » .. هل تجلو إسرائيل عن « الأرض العربية » أى كل الأرض ، أو عن «أرض عربية » أى عن بعض الأرض .. والمقصود طبعا هو الأرض التى احتلت عام ٦٧.. وكان السوفيت يؤيدون الجلاء عن كل الأرض وكنا نسعى لأن نقنع أمريكا بمنطق السوفيت .. إلى أن صدر البيان الأخير .. وكان نكبة ! السوفيت استسلموا لمنطق الأمريكان ، وجاء فى البيان المشترك وبالنص (انسحاب إسرائيل من « أراض عربية » احتلت خلال عام ٦٧) .. وتستطيع أن تبدأ الولولة ولطم الخدين من الآن : فمعنى

هذا النص أن إسرائيل تختار الأرض التى تجلو عنها .. وهى على الأقل ستستولى على شاطىء العقبة الممتد على الأرض المصرية من أول الحدود الشمالية عند إيلات إلى شرم الشيخ فى الجنوب .. وهى منطقة أقامت عليها إسرائيل فعلا عددا من المستعمرات .! خسرنا شاطىء العقبة ، وأصبح الخليج أحد شاطئيه لإسرائيل والشاطىء الآخر للسعودية : أى أننا لن نخسر أرضا فحسب ، بل سنخسرا أرضا وبحراً !. وزد على ذلك المستعمرات التى أقامتها إسرائيل حول العريش .. لن تنزل عنها أيضا .. ثم الأراضى التى أقامت عليها المستعمرات فى الجولان أو فى الضفة الغربية .. كل ذلك ضاع !. وبموافقة أمريكا والسوفيت ..!

وقال الشاب وقد بدأ وجهه يحتقن من الغيظ :

– يجب ألا نسكت ..

وقال العجوز وهو يتنهد الحسرة :

– إن أخطر ما فعلته موسكو هو أنها تخلت عن منظمة التحرير الفلسطينية التى عاشت معها كل هذه السنوات وهما تتبادلان الحماية ، السوفيت يحمون المنظمة والمنظمة تحمى السوفيت .. إلى أن تخلى عنها السوفيت من أجل إرضاء الأمريكان ! فبدلا من أن تصر على تسجيل اشتراك منظمة التحرير فى مؤتمر جنيف خضعت للمنطق الأمريكى وصدر البيان وهو ينص على « تمثيل كل أطراف النزاع بما فيهم الفلسطينيون » .. وموسكو تعلم أن إسرائيل وواشنطن تدعيان أن هناك ممثلين آخرين للفلسطينيين .. وفى آخر تصريح للرئيس كارتر قال : « إن منظمة التحرير تمثل بالتأكيد قسما كبيرا من الفلسطينيين ولكنى لا أعتقد أنها تمثل الفلسطينيين جميعا دون منازع !» .. وإسرائيل وأمريكا لا تريدان المنظمة لأنها الممثل الأقوى لفلسطين ، والممثل الذى يعبر عن مستقبل جديد لا عن العودة إلى ما قبل عام ٦٧ .. وهكذا استطاعت واشنطن أن تفرض منطقها على موسكو فى نظير وقف إمداد الصومال بالأسلحة . أى الشرق الأوسط مقابل القرن الأفريقى .

وقال الشاب فى ثورة :

– والحل ؟

قال العجوز كأنه منهار :

- يا ابني ، لا حل مع أمريكا .. أنت لا تتصور مدى ما وصلت إليه معنا !. إنها الآن لا تتحمل مسئولية الوضع بين العرب وإسرائيل فحسب ، بل أصبحت تتحمل أيضا مسئولية الوضع بين البلاد العربية بعضها وبعض .. وفي تصريح لكارتر قال فيه بلهجة الأخ الأكبر المسئول عن إخوة صغار لم يصلوا إلى سن الرشد السياسي بعد ، قال كارتر : « إننا نحاول أن نحل بعض الخلافات بين الدول العربية وهي خلافات تتعلق بفكرة الوفد العربي الموحد أو الوفود العربية المستقلة إلى مؤتمر جنيف .. و .. و » هكذا قال الأخ الكبير كارتر أو « بابا كارتر» لأبنائه الصغار زعماء الدول العربية .

وقال الشاب كأنه يخفف عن العجوز :

- أنت أبونا ..

وصرخ العجوز :

- لم أعد أباك .. أبوك هو كارتر .. دعه يطلب لك زجاجة كوكاكولا !.

٣

قال الشاب وهو يزفر أنفاسه ويلقي من يده بصحيفة أجنبية :

- نصحتني أن أقرأ صحف العالم ومنذ بدأت أقرؤها ازددت حيرة ، وأكثر ما يحيرني هو تصريحات الرئيس كارتر .. إن تصريح اليوم يناقض تصريح الأمس ، وتصريح الغد يناقض تصريح اليوم .. ولا أدري : هل هو يتعمد هذا التناقض أو أنه يقع فيه عفوا ..؟

وضحك العجوز قائلا :

- إن تصريحات الرؤساء كالحلويات ، وكل (زبون) له نوع خاص من الحلوى .!

وقال الشاب القرفان :

- هل تذكر تصريحاته بعد إعلان البيان الأمريكي السوفيتي الخاص بمؤتمر جنيف .؟ لقد اعتبره يومها نصرا دبلوماسيا هائلا وكأن المشكلة قد انتهت وبعدها بيومين اجتمع هو وسبعة وعشرون يهوديا من أعضاء مجلس الشيوخ . واعتذر عن هذا البيان الأمريكي السوفيتي وقال : إنه أخطأ ، لأنه لم يستأذن فيه مجلس الشيوخ ، أو قال : إنه

اكتشف أن الوقت لم يكن مناسبا لإصداره .. ثم صدر شبه تصريح رسمى يقول ما معناه : إن البيان الأمريكى السوفيتى لا يساوى شيئا وإنه « كلام فاضى ! »

وقال العجوز :

– هل قرأت الكلمة التى قالها يوم اجتماعه بيهود مجلس الشيوخ ..؟

وقال الشاب

– لا أذكرها

وقال العجوز وهو يرفع فنجان القهوة إلى شفتيه :

– قال كارتر .. « إنى أفضل أن أنتحر سياسيا على أن أتسبب فى الإضرار بإسرائيل » !.

وقال الشاب فى سخط

– وطبعا الرقابة منعت نشر هذا التصريح فى صحفنا ..

وقال العجوز :

– ليست هناك رقابة على الصحف ..

وقال الشاب الساخط :

– بدلا من الرقابة صدرت تعليمات !

وقال العجوز الهادىء :

– ولا حتى تعليمات !. إنما هو الذكاء السياسى للمسئولين عن النشر ، وهو ذكاء يوحى بأن يحتفظوا للرئيس كارتر بصورة روميو الذى يذوب صبابة من جوليت العرب ! ويرفضون نشر أى كلمة تجريح لهذه الصورة .. مع أن الكلمة التى قالها كارتر ليس معناها أنه مستسلم لإسرائيل ! فقد قال : إنه لن يتسبب فى ضرر إسرائيل ، ولكن ما الذى يضر إسرائيل ؟ هذا ما يمكن أن يكون مجال خلاف كبير بين كارتر وإسرائيل ..

وقال الشاب فى زهق :

– وأنت الآن فى انتظار انعقاد مؤتمر جنيف .!

وقال العجوز وهو يهز كتفيه بلا مبالاة :

– قد لا ينعقد ..

وقال الشاب وهو يبتسم ساخرا :

- وإذا انعقد ..

وقال العجوز :

- كلام ! كله كلام !. سنة أو اثنتان أو ثلاث وكله كلام .! وهو كلام بدأ فعلا فى الشارع السياسى العالمى .. كلام عجيب !. إن إسرائيل - مثلا - لا تريد سحب المستعمرات التى أقامتها فوق الأرض المصرية حول العريش وعلى طول شاطىء خليج العقبة ، وهى تقول : إننا سنصبح دولتين صديقتين ويمكن اعتبار هذه المستعمرات وسكانها كأنهم ضيوف أصدقاء على مصر ، وتطبق عليهم القوانين المصرية.! أى إن إسرائيل تريد أن تعتبر كل مستعمرة مجرد حارة يهود يستمر سكانها فى استغلالها مدنيا كاستغلال المشروعات السياحية الواسعة التى أقامتها فى شرم الشيخ ومع إخفاء أو تجاهل المركز العسكرى ومخابىء الأسلحة فى كل مستعمرة !. وطبعا سنرفض وإلى أن تقبل إسرائيل هذا الرفض يكون قد مضى على هذه الدردشة عام أو اثنان !.

وقال الشاب وهو يدق على المائدة بقبضة يده :

- لا يمكن أن ينتهى مثل هذا المؤتمر إلى شىء .. إن مؤتمر تصفية الحرب لا يصل إلى شىء إلا إذا فرض القوى إرادته على الضعيف !.. فمن منا القوى ومن الضعيف ؟. العرب أم إسرائيل ؟ كل منهما يعتبر نفسه الأقوى ؟. إن إسرائيل استعادت كل غرورها.. ولن يقنعها إلا ضربة أخرى !.

وقال العجوز الهادىء :

- إن الأقوى هما أمريكا وروسيا وإذا كانتا تريدان الحل فعلا فهما وحدهما تستطيعان تحديده بكل تفاصيله وتفرضانه فرضا على إسرائيل وعلى العرب كما حدث عام ١٩٥٦

وقال الشاب :

- أمريكا وحدها تكفى .

وقال العجوز :

- لا ، إن أمريكا تعيش هذه الأيام فى حالة غزل مع روسيا وتفضل أن تغريها بالوجود معها كأسلوب من أساليب البصبصة ! واطلب لى كوب كركديه إنه يمسك المعدة وأنا فى حاجة إلى الإمساك !

وقال الشاب :

– وأنا سأطلب شيشة لأنى فى حاجة لأن أحس بأنى وصلت إلى الشيخوخة .!

٤

قال الشاب فى سخط :

– ما يجننى أننا نلجأ إلى العالم ليحل المشاكل القائمة بين بعضنا وبعض دون أن نتحمل نحن مسئولية حلها .. كأننا نهرب من هذه المشاكل أو كأننا أضعف من أن نواجهها .!

وقال العجوز الهادئ :

– مثلا .؟

قال الشاب وقد ارتفعت حرارة سخطه :

– مثلا تحديد وضع أو مستقبل الضفة الغربية بين الأردن وفلسطين : فإذا كانت إسرائيل تصر على ألا تفاوض إلا حكومة الأردن وألا تعيد الأرض إلا للأردن فلماذا لا تقبل ذلك منظمة التحرير الفلسطينية ، وبعدها أى بعد أن يسترد الأردن الأرض من إسرائيل فعلا ـ تستطيع المنظمة أن تستولى عليها لنفسها ببساطة وتقيم عليها دولتها بدلا من أن تعتمد على موافقة إسرائيل لإقامة هذه الدولة ..؟

وقال العجوز بعد أن نفخ دخان الشيشة من صدره :

– يا ابنى ، يجب أن تعود إلى القضية من أولها .. إن فلسطين فى الواقع لم تقسم عام ٤٧ بين أهلها اليهود وغير اليهود ، ولكنها قسمت علنا بين ثلاث دول وهى : إسرائيل ومصر والأردن .. وكان هذا ما يريده التخطيط الصهيونى حتى يتم إلغاء الشخصية والوجود الفلسطينى إلغاء تاما وتطمئن إسرائيل إلى وجودها كدولة.. وما نحاوله الآن هو إعادة تقسيم فلسطين بين إسرائيل وأهل فلسطين بلا الأردن ولا مصر ..

وقال الشاب فى حماس :

– حتى هذا يمكن أن نحققه بين بعضنا وبعض دون حاجة لاستجداء إسرائيل : أى أن تسترد الأردن الضفة الغربية وتسترد مصر قطاع غزة ، وبعدها تقوم الأردن ومصر بإعلان قيام الدولة الفلسطينية فى الضفة وفى غزة .!

وقال العجوز من خلال الدخان :

– لا يمكن ..

وصرخ الشاب :

– لماذا لا يمكن ..؟

قال العجوز فى هدوء :

– لأن إسرائيل تريد أن تتحجج بالقرارات الدولية : فإذا كانت هذه القرارات تفرض أن تبقى الضفة الغربية تابعة للأردن فإن أية محاولة لتغيير هذا القرار تعطى إسرائيل الحق فى أن تتدخل وأن تحارب بحجة الدفاع عن نفسها فى ظل القرارات الدولية .! أى إذا حاول الفلسطينيون الثورة على الأردن ليستقلوا عنها حاربتهم إسرائيل ! وإذا حاول الأردن نفسه النزول عن الضفة للفلسطينيين حاربته إسرائيل أيضا !. وإسرائيل تتدخل ضد الفلسطينيين فى كل مكان يمكن أن يقوم لهم كيان فيه !. وهى الآن تحتل فعلا أراضى فى جنوبى لبنان حتى تضمن عدم الوجود الفلسطينى فيه ! وسبق أن تدخلت بطريق غير مباشر فى الأردن حتى تقضى على الوجود الفلسطينى المستقل الذى كان قد قام هناك .! وكل هذا هو الذى يجعل منظمة التحرير تصر على أن تحصل على اعتراف دولى بوجودها فوق أرضها حتى تحتمى بهذا الاعتراف من سيطرة إسرائيل ..

وقال الشاب :

– وهل سيتحقق ذلك ..!

قال العجوز :

– لا أدرى ..!

وقال الشاب :

– ومتى تدرى ؟..

قال العجوز فى بساطة :

– اسألنى بعد خمس سنوات ، فقد نكون وصلنا إلى حالة جديدة أو على الأقل إلى معلومات جديدة !.

وقال الشاب وهو يزفر أنفاسه فى زهق :

– لا يهم ، دعنا ننتقل إلى الموضوع الأهم .. ما رأيك فى التعديل الوزارى ..؟

وضحك العجوز ..
وقال الشاب فى حدة :
– لماذا تضحك ؟
قال العجوز :
– أضحك ، لأنك تصف التعديل الوزارى بأنه الموضوع الأهم من موضوع فلسطين والتحرير !
وصاح الشاب :
– طبعا أهم !. تلفت حولك تجد كل الجالسين فى المقهى لا يتحدثون إلا عن التعديل الوزارى .. وكل من فى الشارع لا يتحدث إلا عن التعديل .. ليس فى مصر كلها اليوم إلا موضوع التعديل الوزارى !
وتنهد العجوز كأنه يتحسر على هذا المنطق السياسى وقال :
– هذا صحيح يا ابنى ، وكل ما كنت أتمناه فى هذا التعديل الوزارى هو أن يقال لنا : لماذا خرج هذا الوزير أو ذاك من الوزارة.؟ لقد عودونا أن يقولوا لنا : لماذا دخل هذا الوزير ؟ وتنشر الصحف قصيدة مديح فى مواهبه الوزارية ، ثم لا يقولون شيئا عندما يخرج هذا الوزير ! وهو ما يترك مجالا واسعا للتخمينات والإشاعات التى قد تظلم الكثيرين والتى قد تؤكد أن الوزراء لا يدخلون ولا يخرجون إلا لأسباب خاصة ..
وقام العجوز منطورا وقال وهو يبتعد :
– إن الموضوعات الهامة عندك هى دائما الموضوعات التافهة ! وأنا تعبت من التفاهة .. سلام عليكم .

٥

قال الشاب وهو يزفر أنفاسه فى زهق :
– إن الجو السياسى الذى يحيط بنا أصبح كمجموعة من السحب تطير فوق رءوسنا دون أن تمطر ودون أن نرى من خلالها شيئا ولا تصب علينا سوى الزهق والملل ! ولا أستطيع أن أهرب من هذا الزهق والملل إلا بالصمت ! . ما رأيك ؟
تعال نطلق على هذا المقهى اسم « مقهى الصمت السياسى » !..
وقال العجوز مبتسما :

– إن الصمت أحيانا أخطر من الكلام !.. المهم أن تكتشف لماذا تصمت ؟ ولماذا تتكلم ؟

هناك – مثلا – امرأة تصمت طويلا لأنها تعتمد على جمالها وتعتقد أن هذا الجمال يغنيها عن الكلام ويدفع كل من حولها إلى أن يتكلموا تعبدا في جمالها !

وهناك امرأة تتكلم كثيرا لأنها تريد أن تنسى الناس أنها قبيحة أو ليست جميلة فربما يغنيهم كلامها عن جمالها . وربما تنال إعجاب آذانهم بدلا من إعجاب عيونهم !.

ولكن هناك نوعا آخر من الصمت . الصمت الذي يمكن أن يكون خطيرا ، وهو الصمت الذي يخفي وراءه خطة تنفيذية .. أو الصمت الذي يوضع لفرض الهيبة والغموض على الحاكم ، فيتخيل الناس أن وراء هذا الصمت أسرارا دفينة ! . فلماذا تريد أنت أن تعلن الصمت ؟. اكتفاء بجمالك أم دفاعا على قبحك ، أم إدعاء لقوة ورهبة شخصيتك أم لأنك تخفي سرا أو متفرغ « لرسم خطة ؟».

وقال الشاب :

– لا هذا ولا ذاك .! أريد الصمت ، لأني زهقت من الكلام !

وقال العجوز :

– تريد أن تكتفي بالاستماع ..

وقال الشاب في سخط :

– الاستماع أيضا زهقت منه .. وما يدهشني أن اليهود يتكلمون الآن أكثر من أي وقت مضى ! . لو أن موشى ديان أطلق من القنابل عام ٧٣ بعدد كلماته التي يذيعها الآن فربما لم يهزم بهذه السهولة.!

وقال العجوز ضاحكا :

– إن ديان وكل الشخصيات الإسرائيلية يتكلمون كثيرا هذه الأيام حتى يطلقوا سحابة تغطية لأعمالهم ، وحتى يشغلوا الناس عن تتبع المستعمرات التي يبنونها على الأرض المحتلة . وعن الخطوط الجغرافية الجديدة التي يرسمونها فعلا على الأرض ، كما فعلوا في لبنان وكما فعلوا في الجولان وسيناء والضفة الغربية . وحتى يكسبوا الوقت لعرقلة مؤتمر جنيف!

وقال الشاب القرفان :

– ونحن أيضا نتكلم كثيرا ولكن يخيل إلى أننا نتكلم بعضنا مع بعض لا مع اليهود ولا مع أمريكا ولا مع روسيا ! إنما كلام كله للاستهلاك المحلى : بعضنا يتكلم رافضا مؤتمر جنيف رفضا تاما .

وبعضنا يتكلم قابلا انعقاد المؤتمر ولكن بشروط . وبعض ثالث يتكلم موافقا موافقة تامة ومستسلما لمؤتمر جنيف إلى حد أنه جمع حقائبه وحملها إلى المطار وهو الآن واقف هناك فى انتظار الطائرة التى تحمله إلى أرض الميعاد .! أقصد جنيف !..

وقاطعه العجوز وهو هادئ :

– هذا الاختلاف فى الرأى وفى الموقف طبيعة أى قضية وطنية أو سياسية : هناك دائما من يتخذ موقف التطرف ، ومن يتخذ موقف الاعتدال بتحفظ ، ومن يؤمن بالاستسلام للأمر الواقع ، والعناصر الثلاثة كلها لها ذات الأهمية بالنسبة للقضية الوطنية .. وأيام الاحتلال البريطانى لمصر كان الحزب الوطنى يمثل أقصى التطرف ، لا مفاوضات إلا بعد الجلاء ووحدة مصر والسودان بما فيها مصوع وهرر ! وكان حزب الوفد يمثل الاعتدال المتحفظ ، فهو يقبل المفاوضات قبل الجلاء ، وهو يضع قضية وحدة مصر والسودان فى صورة أقل تطرفا ولا يصر على استعادة مصوع وهرر !

وقاطعه الشاب مذهولا :

– هل كانت هرر مدينة مصرية .. إنها الآن المدينة التى تدور حولها الحرب بين إثيوبيا والصومال ..

وقال العجوز وهو يتنهد فى حسرة :

– كانت مصرية يا ابنى ،.وصلنا بحضارتنا إلى هناك ! ولكن .. دعنا نتم حديثنا : لقد كان هناك أيضا المستسلمون للأمر الواقع . لا لأنهم خونة ولا لأنهم عملاء ، ولكن لأنهم يؤمنون بأن مصر لا تستطيع أن تنال استقلالها إلا إذا ارتفعت إلى مستوى الاستقلال ، أى بنشر التعليم وسيطرة الوعى الاقتصادى .. و .. و .. وكل هؤلاء يا ابنى كانوا مخلصين ، وكانوا من العمد الأساسية فى تاريخ مصر .. وكل منهم كان عنصرا يدفع الآخر إلى مزيد من العمل والجهد .. ويجعل العدو دائما غير مطمئن إلى وجوده واستمراره فهو لا يستطيع أن يجعل من الأمة كلها وحدة تؤيد هذا الوجود ، إنما هناك دائما من يرفض ..

وقال الشاب صارخا :
- ولكن فلسطين قضية لها كيانها الخاص ، وتفرض الوحدة على كل أبنائها وهم ليسوا متحدين !
وقال العجوز :
- الوحدة الكاملة هى وحدة المبادىء والأهداف العامة وليست وحدة الرأى أو الموقف فى تحقيق هذه المبادىء والأهداف .
وقال الشاب ساخرا فى مرارة :
- كنا نقول : اليهودى التائه ! واليوم نقول الفلسطينى التائه ! وقد وجد اليهودى التائه وطنا أقام فيه ولم يعد تائها لأنه كان مرتبطا بتنظيم متحد باسم الصهيونية .. أتمنى أن يعود الفلسطينى التائه إلى أرضه ووطنه بعد أن يجد التنظيم المتحد .
وقال العجوز وهو يربت كتف الشاب كأنه يخفف عنه آلامه النفسية :
- إن التنظيم الفلسطينى المتحد قائم فعلا . وكما قلت لك : إن الخلافات داخل التنظيم أو من حول التنظيم كلها تعتبر عناصر دافعة للتنظيم : أى أن كل جهة تدفع الأخرى كفقاعات الماء المغلى ما دام يغلى .! اطمئن .. واشرب (شاى) ..
وقال الشاب :
- أفضل مشروبا باردا أبرد به أعصابى .!

نوفمبر ١٩٧٧

١

قال الشاب فى زهق :

– إلى متى سنبقى فى انتظار انعقاد مؤتمر جنيف؟

وقال العجوز وبين شفتيه ابتسامة ساخرة :

– لقد انعقد المؤتمر .. أقصد انعقد فى صورة منه..

وصاح الشاب :

– ماذا تقصد ؟..

وقال العجوز :

– اقصد أن العرب بما فيهم دول المواجهة ومنظمة التحرير عقدوا اجتماعا مع الإسرائيليين ..

– وعلت صيحة الشاب :

– متى ؟.. وأين ؟..

قال العجوز الهادىء :

– فى باريس .. منذ شهر .. انعقد مؤتمر تحت اسم « المؤتمر العالمى من أجل السلام فى الشرق الأوسط » جلس فيه وفد منظمة التحرير بجانب وفد إسرائيل مع بقية الوفود العربية حول مائدة مستديرة ..

وعاد الشاب يصرخ :

– من الذى دعا إلى هذا المؤتمر ؟.. هل هو مؤتمر رسمى ؟..

قال العجوز :

– دعت إليه المنظمات اليسارية . أى الماركسية . وإن كان قد جمع

شخصيات مستقلة ، وكان المفروض أن يقتصر تمثيل إسرائيل فى هذا المؤتمر على حزب « راكاح » الشيوعى الإسرائيلى ، ولكن انضمت إليه شخصيات من خارج الحزب تعتبر شخصيات شبه رسمية وتنتمى إلى الصهيونية ! وهو ما جعل وفد العراق ينسحب من المؤتمر . لأن الشيوعية لا تعترف بالصهيونية أو هى فى خصام معها ..

وصاح الشاب :

– هل كان العراق ممثلا فى المؤتمر ؟..

قال العجوز :

– ومصر وسوريا أيضا ..

وقال الشاب فى دهشة :

– من كان يمثل مصر ؟..

ورد العجوز الهادىء :

– خالد محيى الدين باعتباره الأمين العام لمجلس السلام العالمى، وقد أيد فى حرارة البيان الأمريكى السوفيتى الذى يدعو إلى عقد مؤتمر جنيف !.

وقال الشاب والدهشة لا تزال معلقة بين عينيه :

– إلى ماذا انتهى المؤتمر ؟

وقال العجوز :

– انتهى إلى تأييد كل المطالب العربية .. كان مؤتمر عناق وتبادل قبلات بين العرب والإسرائيليين ! حتى إن فتاة من أعضاء الوفد الإسرائيلى حاولت أن تقاطع رئيس المؤتمر وهو يتعرض للصهيونية ويتهمها بالعنصرية فطردوها . طردوا الفتاة من قاعة المؤتمر !

وقال الشاب وهو مبهور :

– أرجوك أن تحدثنى عن المناقشات التى جرت ..

قال العجوز وهو فرح بانبهار الشاب :

– لا أستطيع .! إنهم لم يكفوا عن الكلام . وكان أعجب ما قيل هو ما قالته مندوبة المغرب وهى يهودية مغربية .. ومعروف أن يهود المغرب الذين يشكلون أكبر عدد من اليهود فى بلد عربى وكثيرون منهم عادوا إلى المغرب أخيرا من إسرائيل ـ معروف عنهم أنهم يبذلون

نشاطا كبيرا فى محاولة حل قضية السلام مع إسرائيل .. وقد قامت مندوبة المغرب واسمها « فاني ماركى » وتحدثت عن التعذيب الذى يلاقيه اليهود العرب فى إسرائيل .. ثم اذاعت ما يمكن أن أعتبره سرا بالنسبة لنا .. وهو أن إسرائيل تحاول أن تعتبر كل يهودى يقيم فى أى بلد عربى لاجئا إسرائيليا لتضعهم فى نفس مستوى اللاجئين الفلسطينيين . فإذا أراد الفلسطينيون أن يعودوا إلى إسرائيل فليعد أيضا اليهود العرب ! وتصرخ الفتاة اليهودية العربية .. لا .. إننا فى بلادنا ولم نطرد منها قط ! لقد خرجنا منها يوما تحت وهم أشاعه الصهيونيون بأننا سنتعرض لمذابح . ثم عدنا إلى وطننا المغرب لنؤيد ونساند عودة الفلسطينيين إلى أرضهم .! وقال الشاب فى دهشة :

– أى إن إسرائيل ستطالب بعودة اليهود العرب إليها إذا أراد الفلسطينيون العودة .!

وقال العجوز :

– هذا ما يفهم من البيان الامريكى الإسرائيلى الذى صدر أخيرا ردا على البيان الأمريكى السوفيتى ..

وقال الشاب :

– لماذا لم تنشر مناقشات هذا المؤتمر فى صحفنا ؟

وقال العجوز :

– لأنه ليس مؤتمرا رسميا ..

وقال الشاب :

– أفلا ينشر فى صحفنا إلا ما هو رسمى ؟

قال العجوز :

– أعتقد . أنها صحف محترمة . اطلب الشاى حتى تنعش أدمغتنا !

٢

قال الشاب فى حدة :

أريد أن أفهم : هل السلام يستجدى أو يفرض ؟

وقال العجوز الهادىء :

– السلام كالحرب كلاهما يفرض .. كل أحداث التاريخ تؤكد أن كل

الحروب فرضت على المتحاربين . والسلام أيضا فرض على من انتهوا إلى السلام .

وقال الشاب وهو لا يزال محتدا :

– ولكن يبدو أن كل ما أصبحنا نفعله وتهتم به هو استجداء السلام !.

وقال العجوز :

– إنه ليس استجداء . إنه أسلوب التخاطب من أجل السلام . لا يمكن أن تطالب بالسلام بنفس اللهجة التى تطالب بها بالحرب .!

وقال الشاب صارخا :

– أنا لا أطيق هذا الأسلوب ! أصبحنا ندلل إسرائيل إلى حد أن نتركها تفرض مطالب تافهة لمجرد أن تثبت للعالم أن ما تريده يجب أن يحدث ! إنها وصلت إلى تحديد شكل الوفود التى تذهب إلى جنيف . وشكل اللجان التى تجتمع . وتشترط أن توافق على الأشخاص الذين يمثلون فلسطين .. وأخشى أن يصلوا إلى حد تحديد الزى الذى يظهر به أعضاء الوفود العربية .! وهل يذهبون إلى هناك وهم بالجبة والقفطان أو بالعباءة والعقال أو بالزى الأفرنجى .؟ وربما وصلوا إلى تحديد أنواع الطعام التى تقدم ! وهل يسمح بتقديم الفتة والملوخية ، أو تحرم باعتبارها استغلالا للمظاهر العربية ضد المظاهر الإسرائيلية ؟

وابتسم العجوز ابتسامة مسكينة كأنه يخاف على الشاب ثورته وقال :

– إن تمسك إسرائيل بالتفاهات معناه أنها تحاول الهرب من السلام .!

وقال الشاب صارخا :

– ولماذا لا نتركها تهرب .؟ أو نفرض عليها السلام فرضا .. نفرضه بالقوة .!

وقال العجوز متنهدا فى أسى :

– إنه موضوع واسع ..

وقال الشاب وهو يقترب بوجهه من وجه العجوز كأنه يتحداه :

– حدثنى عنه ..

وضحك العجوز ضحكة سريعة حتى يخفف من حدة الشاب . وقال :

– لا أستطيع . لقد وصلنا إلى حد أن أصبح الإسرائيليون يستشهدون بالقرآن .! وأصبحنا نرد عليهم مستشهدين بالقرآن .! وأنا لا أستطيع أن أتجرأ وأدخل فى مثل هذا النقاش .! إنه مقصور على المتخصصين.. وقد كنت أتمنى أن يبذل المتخصصون المصريون مجهودا أكبر فى تفسير الاستشهاد وتفسير آيات القرآن . لأن ما نشر لم يكن كافيا .

وقال الشاب :

– أنا لم أقرأ ما نشر ..

وقال العجوز :

–الحمد لله .. الآن اطمأننت عليك ..

وقال الشاب الثائر :

– إنى أسألك لماذا لا نفرض السلام بالقوة .؟

وقال العجوز بعد أن تنحنح كأنه يستعد لمحاضرة طويلة :

– إن القوة لها مظاهر متعددة : إسرائيل تعتبر أن القوة التى يعتمد عليها العرب الآن بما فيهم مصر .. هى قوة البترول .. وأن الذى يمثل هذه القوة هو المملكة العربية السعودية . وهى تستغل قوتها للضغط على الرئيس كارتر الذى يضع مشكلة الطاقة فى الصف الأول من مشاكل أمريكا . ويجد نفسه مضطرا إلى الاحتفاظ بصداقة السعودية ومن ثم صداقة البلاد العربية بالضغط من ناحيته على إسرائيل حتى تستجيب للسلام ومناحم بيجين قال بصراحة وهو فى أمريكا .. لست مستعدا أن أدفع ثمن البترول السعودى بدم أبناء إسرائيل .! والذين يؤمنون بهذه القوة يعتقدون أن السلام لن يتحقق إلا بعد عام ١٩٨٠ : ففى هذا العام سينتهى العقد البترولى الذى يربط السعودية بأمريكا . ويحتاج إلى تجديد ، فيصبح الضغط السعودى له قوة أكبر .. وفى الوقت نفسه يكون الرئيس كارتر قد نجح فى تجديد فترة رياسته ـ قل يارب ـ فيستطيع هو الآخر أن يكون أقوى على إسرائيل !. أما إذا لم يستمر كارتر فى الرياسة فقد نحتاج إلى خمسين عاما أخرى قبل أن نعيد الكلام عن السلام .. هل فهمتنى .؟

وقال الشاب فى عصبية :

– هذا كلام لا يهمنى أن أفهمه .! إن القوة كما أفهمها هى قوة الضرب .!

وقال العجوز :

– هذا احتمال قائم دائما . بل إنه أصبح الاحتمال الأقوى الذى تستعد له إسرائيل : فإسرائيل تعتقد أنها لم تفقد هيبتها الدولية وخصوصا أمام أمريكا ولم يسترد العرب هيبتهم إلا بعد حرب ٦ أكتوبر ولم يعد أمام إسرائيل لتعيد الوضع الدولى كما كان إلا أن تخوض معركة أخرى ترد بها على انتصار ٦ أكتوبر . وفى نفس الوقت تخلق مشكلة جديدة تغطى مشكلة انسحابها من الأرض المحتلة وإعادة حقوق الفلسطينيين .! إنها تتصرف الآن نفس التصرفات التى قدمت بها لحرب ١٩٦٧ : فهى تدعى اعتداءات فى جنوبى لبنان وتدخل وتقيم لنفسها مراكز ثابتة على أرض عربية .. والقصد هو إثارة مصر وسوريا والأردن والقوى العربية لترد على الاعتداء على لبنان : أى تعلن الحرب ! وقد صرح الرئيس الأسد أخيرا بأنه لن يقع فى خديعة إسرائيل لتجره إلى الحرب عندما تريد. وسيبقى دائما محتفظا بزمام المبادرة فى يد سوريا ..

وقال الشاب :

– وهل نحن نحسب حساب ذلك .؟ حساب الحرب .؟ لا شىء من مطالب الحرب يبدو على تصرفاتنا .!

وقال العجوز مطمئنا :

– ثق أن أهم مواهب السادات أنه يحسب حساب جميع الاحتمالات . ولم يكن أحد يصدق أنه يستعد للحرب عام ٧٣ ولكنه حارب .. وقد عبر وزير الخارجية إسماعيل فهمى عن تقدير مصر لاحتمال الحرب فى مؤتمر وزراء الخارجية عندما قدم معلومات على جانب كبير من الأهمية عن الموقف العسكرى بين إسرائيل والعرب ، وطالب بأن يرتفع الجميع إلى مستوى المسئولية ..

وقال الشاب فى دهشة :

– ما هى هذه المعلومات التى على جانب كبير من الأهمية .؟

وقال العجوز :

– لا أدرى .! إنى أنقل لك ما أقرؤه فى الصحف . والصحف لم تذكر شيئا من هذه المعلومات ..

وقال الشاب ضاحكا :

– ربما كانت معلومات مهمة ، ولكنها لا يمكن أن تكون على جانب كبير من الأهمية : أى لا يمكن أن تكون لها صفة السرية التى لا تنشر فى الصحف . وإلا كانت أسرارا عسكرية لا تقال فى مؤتمر عام ولا فى مؤتمر غير متخصص عسكريا ..

وقال العجوز ضاحكا :

– أهنئك على نباهتك السياسية .. وأدعوك إلى فنجان شاى تكريما لك .!

وقال الشاب :

– أشرب كازوزة أنا .. فمادمنا لم نصل إلى السلام أو إلى الحرب فنحن فى حاجة إلى ما نستعين به على الهضم .. هضم ما نسمعه وما نقرؤه .!

٣

قال الشاب وعيناه تائهتان فى حيرة :

– إلى الآن لا أستطيع أن أستقر على منطق يفسر لى ما حدث .. لماذا ذهب السادات إلى إسرائيل ؟. وبماذا عاد السادات من إسرائيل ؟

وقال العجوز فى هدوء :

– دع المنطق يبدأ من معركة أكتوبر ..

وقال الشاب رافضا :

– ما دخل أكتوبر فيما يحدث الآن ..؟

وقال العجوز الهادىء :

– إن كل التصرفات دائما نتيجة لأحداث .. إن عبدالناصر مثلا سبق أن قبل الاعتماد على أمريكا عندما قبل مشروع روجرز .. وكان هذا التصرف نتيجة لهزيمة ٦٧ ثم لموقف الروس من إمدادنا بالسلاح .. وكذلك زيارة السادات لإسرائيل كانت نتيجة لانتصار أكتوبر ..

وقال الشاب الحائر :

– هل تعتبر هذه الزيارة انعكاسا لانتصار ؟.

وقال العجوز :

– إن السادات لم يكن يستطيع أن يذهب إلى إسرائيل إلا وهو يحس بالقوة .. والقوة يستمدها من انتصارنا فى أكتوبر .. إن الضعيف لا يمكن أن يذهب بنفسه إلى ثكنات الأعداء .. لا يذهب إلا مقبوضا عليه كأسير ! . وهو ـ أى الضعيف ـ يغطى ضعفه دائما بالرفض .. لا .. لا.. لأنه أضعف من أن يقول : نعم !. أما القوى فهو يذهب إلى أرض العدو وهو واثق من أنه يذهب ليقول رأيه مطمئنا إلى سلامته اعتمادا على قوته .. إن جولدا مائير طلبت أن تأتى إلى القاهرة بعد انتصارها عام ٦٧ لأنها كانت تطلب وتتكلم من مركز القوة .. ولم يطلب أحد من زعماء إسرائيل أن يأتى إلى القاهرة بعد حرب أكتوبر . لأنهم أصبحوا ضعفاء . ولكن أنور السادات هو الذى طلب أن يذهب إلى إسرائيل لأنه القوى ..

وقال الشاب ساخرا :

– ولماذا يذهب القوى إلى هناك .؟

وقال العجوز فى حماس :

– لأنه أصبح أقوى من الخداع السياسى ومن الاختباء وراء الأسرار ومن التمحك وراء الوسطاء !. وقد كانت هناك دائما اتصالات مستمرة بين العرب وإسرائيل . ولكنها كانت تتم إما فى الخفاء وإما عن طريق وسطاء .. ولا أدرى ما الفرق بين أن يكون كيسنجر أو فانس وسيطا ينقل الكلام بينى وبين مناحم بيجين وبين أن أتكلم مع بيجن مباشرة ؟. لا فرق ! بالعكس إن الحديث المباشر يجعلنى أقوى .. ويضعف دعوى إسرائيل بأننا نرفضهم ونرفض وجودهم .. ثم إن هناك اتصالات مباشرة تتم فى السر . ولا أعتقد أن ما نشر منذ شهرين عن لقاء بين ملك المغرب وموشى ديان أو بين ملك الأردن وأحد الإسرائيليين أو بين أعضاء من منظمة التحرير ومندوبين إسرائيليين ـ لا أعتقد أن كل ذلك كان مجرد إشاعات .. وما فعله أنور السادات هو أنه اعتمد على قوته وجعل هذه الاتصالات علنية يشهد عليها العالم كله ..

وسرح الشاب بعقله وأصبح يبدو عليه أنه على وشك الاقتناع وقال :

– ذكرتنى بشىء غريب : فقد أقيم فى باريس منذ شهر واحد

اجتماع ضم الإسرائيليين والعرب ومثل مصر فيه خالد محيى الدين .. كان اجتماعا تحت قيادة ماركسية .. وقبلها أقيم اجتماع آخر فى لندن ضم الشيوعيين من إسرائيل والبلاد العربية .. والشيوعيون منذ الأزل يدعون إلى لقاءات بين العرب وإسرائيل .. وبرغم ذلك فعندما ذهب السادات إلى لقاء مع إسرائيل قاطعوه وعارضوه .. لماذا ؟

وقال العجوز وهو يبتسم فى مرارة :

– لأن اجتماعاتهم تتم لحساب موسكو .. ويخشون أن يسحب السادات البساط من تحت أقدامهم وتنعزل موسكو عن القضية .

وقال الشاب :

– الأهم من موسكو هى البلاد العربية ، فكلها ضد زيارة السادات لإسرائيل ..

وقال العجوز :

– ليست كلها .. والذين يعارضون يتمسكون بمظهر الغطرسة السياسية الذى انتهى بنا إلى ما أصبحنا عليه !. إنهم أشبه بالرجل العربى الذى يرفض أن يصافح رجلا إسرائيليا . ولكنه يجلس معه على مائدة القمار فى مونت كارلو أو فى البلاى بوى بلندن . ويخسر له ملايين الدولارات ! . ولقد خسرت البلاد العربية كثيرا لأنها بدلا من أن تبحث وتناقش وتفاوض كانت تكتفى بلعب القمار !.

وقال الشاب وقد عادت إليه حيرته :

– ولكن بماذا خرجنا من هذه الزيارة .؟

وقال العجوز :

– لا شيء أكثر من تغيير الأسلوب .. الأسلوب السياسى .. وكما قال السادات : إن الأسلوب والشخصية السياسية بعد ٦ أكتوبر يجب أن تخالف ما كانت عليه قبل ٦ أكتوبر .

وقال الشاب :

– وهل نصل إلى أهدافنا بهذا الأسلوب الجديد .؟

وقال العجوز :

– لا أدرى !. لا أحد يدرى !. دعنى أتفرغ لفنجان القهوة وأنفاس الشيشة !.

ديسمبر ١٩٧٧

١

كانا جالسين فى صمت وفجأة أطلق الشاب ضحكة عالية والتفت إليه العجوز فى ازدراء قائلا :

– ماذا يضحكك ؟

وقال الشاب وهو يبتلع بقية ضحكته :

– تذكرت مؤتمر جنيف ..

وقال العجوز متأففا :

– وماذا يضحك فى مؤتمر جنيف ؟

وقال الشاب :

– ما يضحك هو المأساة .. كان المفروض أن المستحيل هو أن تجمع اليهود والعرب على مائدة واحدة ثم اكتشفنا أن المستحيل هو أن نجمع العرب بعضهم مع بعض !. إن مشروع مؤتمر جنيف ينص على تمثيل العرب فى وفد موحد ، فكيف يمكن أن يقوم وفد موحد بين العرب أو حتى بين الدول الثلاث العربية التى تسمى دول المواجهة ؟. وكيف لا أضحك ؟.

وقال العجوز وهو يبعد عينيه عن الشاب :

– لا شيء مستحيل ! إننا دائما نختلف ويصل خلافنا إلى حد البذاءة وقلة الأدب .. ولكننا دائما ننتهى إلى وحدتنا .. والوفد العربى الموحد سيقوم وسيمثلنا فى مؤتمر جنيف ..

وقال الشاب ساخرا :

– مع احترامى الشديد فإنكم أنتم العجائز تعيشون فى أحلامكم.

أحلام ترسمونها فى شعارات من مجرد كلمات ، ونحن لم نعد نستطيع أن نعيش فى أحلام العجائز ! والواقع يقول : إن الوحدة العربية هى فقط وحدة اللغة وكل ما يخرج عن مجرد الكلام بهذه اللغة ليس له أى مظهر من مظاهر الوحدة : تتبع قضية فلسطين من أولها : فى عام ٤٨ وباسم الوحدة قررت الدول العربية أن تحارب ضد مشروع التقسيم .. فماذا حدث ؟. لم يحارب الجيش الأردنى ولا العراقى ولا السورى ولا اللبنانى برغم أن قواتهم كانت داخل فلسطين !. حاربت مصر وحدها وهزمت .. وهكذا فى كل حرب وفى كل موقف يفرض التحرك ضد إسرائيل .. حتى فى حرب ٧٣ كانت وحدة القرار بين مصر وسوريا هى أساس قوتنا ، ولكن بعد يومين فقط اختلفنا حول وقف القتال أو الاستمرار فيه ! ثم اختلفنا حول فض الاشتباك والفصل بين القوات خلافا وصل إلى حد قذفنا بالشتائم !

وقاطعه العجوز قائلا :

– الخلاف لم يمنعنا عن تحقيق الهدف .. تم فصل القوات فى مصر ثم فى سوريا واستمرت الوحدة بين البلدين ..

وصاح الشاب :

– لا تخدعنى .. فصل القوات لم يتم بالوحدة .. إنما تم بأن تحملت مصر المسئولية وحدها وبعدها قبلت سوريا ما قبلته مصر : أى أن مصر أيامها قبلت ما يسمونه بالحل المنفرد ..

قال العجوز غاضبا :

– لا ، ليس هذا حلا منفردا .. إن الحل المنفرد هو ما يقوم على اتصالات غير معلنة وعلى مفاوضات سرية .. ولكن السادات لا يخفى شيئا ولا يتفاوض سرا .. إنه يتحرك علنا وهو يدعو كل الدول العربية إلى التحرك معه ، ويفاوض بصوت مسموع تسمعه كل الأطراف .. وهذا هو ما تفرضه الوحدة ، والخلافات التى تنشأ مظهر من مظاهر الوحدة .. وكما حدث عند فض الاشتباك فقد كانت سوريا ترفض والتنظيمات الفلسطينية تهاجم . ثم قبلت سوريا ما قبلته مصر وسكتت التنظيمات الفلسطينية ..

وسكت الشاب برهة قصيرة وكأن خياله أخذه إلى بعيد ثم قال :

– أى إن نفس الشىء يمكن أن يتكرر هذه الأيام .. تتحمل مصر

المسئولية وحدها تجاه إسرائيل إلى أن تصل إلى اتفاق بالانسحاب وبقيام دولة فلسطين .. وبعدها .. تقبل سوريا والأردن والتنظيمات الفلسطينية ما قبلته مصر ، دون أن تكون فى ذلك شبهة الحل المنفرد !

وقال العجوز :

– إن مصر دائما هى الدولة القائدة .. كل ما تصل إليه مصر تصل إليه بعدها دول عربية أخرى ..

وقال الشاب :

– ولكن كيف نوقف هذه الحملات المسعورة ضد مصر .. وضد السادات ؟..

وقال العجوز وهو يزفر أنفاسه فى غيظ :

– إنها لن تقف هذه الأيام لأنها مسلطة علينا من موسكو !. كل المشتركين فى هذه الحملة يعملون لحساب موسكو ! . ولن ترضى عنا موسكو إلا إذا غير السادات موقفه ..

وقال الشاب :

– وما هو موقف السادات ؟

وقال العجوز مبتسما :

– إنه ارتفع بنفسه فوق موسكو وواشنطن . وبدل أن يجعل العاصمتين تقومان بدور الوسيط بين مصر وإسرائيل قرر أن يستغنى عن الوسطاء ويعتمد على الاتصال المباشر بإسرائيل .. فغضبت موسكو .

وقال الشاب كأنه يسخر من العجوز :

– ولماذا لم تغضب واشنطن هى الأخرى وقد استغنى عنها السادات كما استغنى عن موسكو ؟..

وقال العجوز :

– لأن ارتباطات واشنطن بالمنطقة ارتباطات ثابتة لن تتأثر . ولكن موسكو تبحث عن ارتباطات لنفسها . وأسهل ما يحقق لها الوصول إلى مثل هذه الارتباطات هو استمرار المصائب فى المنطقة حتى تستمر الحاجة إليها كوسيط أو كمورد سلاح أو كقوة دولية .. ثم إن السادات قد يستغنى عن موسكو فى اتصاله بإسرائيل . ولكنه لا يستطيع أن يستغنى عن واشنطن ، لأنها هى التى تمد إسرائيل بالحياة .

وقال الشاب :
- ولكن كيف يمكن أن نطمئن ؟..
وقاطعه العجوز :
- كفاك .. تعال نبحث عن جرائد عربية ونتسل بقراءة شتائم الصغار .. إن الصغار ليست لهم قوة أمام الكبار إلا قوة اللسان الطويل !

٢

قال الشاب وهو يمصمص شفتيه فى أسى :
- إن ما يحيرنى هو استقالة إسماعيل فهمى وزير الخارجية السابق ومراد غالب وزير الخارجية الأسبق لنفس الأسباب برغم الفارق السياسى الكبير بينهما : أحدهما فى أقصى اليمين والآخر فى أقصى اليسار !.. بل إن كلا منهما اختير وزيرا نظرا لاتجاهه السياسى وبصرف النظر عن كفايته : مراد غالب اختير وزيرا عندما كنا أصدقاء لموسكو وإسماعيل فهمى اختير وزيرا عندما أصبحنا أصدقاء لواشنطن .. فماذا جمع بين الضدين ؟.. وهل معنى ذلك أن اليمين واليسار أجمعا على رفض مبادرة السادات :
وقال العجوز وهو يبتسم فى سخرية مرة :
- لا أظن . وإذا كان الاثنان قد أقاما استقالتيهما على سبب مشترك فإن دوافع الاستقالة قد تختلف بينهما . ربما كان أحدهما قد استقال هربا من تحمل مسئولية موقف خطير ، والآخر استقال إيمانا أو استسلاما لرأى معين .. من يدرى ؟
وقال الشاب فى إصرار :
- لماذا لا تقول : إنه يتم الآن نوع من التحالف بين اليسار واليمين لإحباط مبادرة السادات كما حدث قبل ذلك كثيرا ؟..
وقال العجوز فى هدوء :
- لا تعمم فى أقوالك : أى لا تقل اليمين واليسار . لأنه ليس اليمين كله ولا اليسار كله . إنما هم مجرد مجموعة أفراد من اليمين ومجموعة أفراد من اليسار . وما يربطهم ليس المبادىء ولا المواقف . ولكنها العلاقة الشخصية بين كل منهم وأنور السادات وتأثير تحركات السادات على أهداف ومصالح كل منهم ..

وقال الشاب صائحا :

– هذا يكفى لقيام تحالف بينهم .. تحالف قوى قد يقفل الطريق أمام مبادرة السادات ..

وقال العجوز الهادىء :

– لقد حدث تحالف فعلا أعلن عن نفسه فى اجتماع طرابلس . ولكنه لم يكن تحالفا قويا أو يشكل أى خطر .. وبرغم أن الدول التى اجتمعت تصف نفسها بأنها دول يسارية وبرغم أنها كلها على علاقات طيبة بموسكو – فإن كلا منها ذهبت إلى الاجتماع بهدف يخالف الأخرى : سوريا لها هدف والعراق له هدف ثان وليبيا لها هدف ثالث والجزائر لها هدف رابع ، والفلسطينيون يحملون فى داخلهم مجموعة أهداف متعارضة بعضها مع بعض .. و .. و .. والأهم من كل ذلك أن الاجتماع نفسه لم يكن له هدف : أى هو تحالف بلا هدف معين ! ماذا يريدون ؟. لا أحد يستطيع أن يحدد ما يريد !. ومن له شىء يريده يرفضه الآخرون!. ولهذا فشل اجتماع طرابلس وأدى فشله إلى عكس ما قام من أجله هذا الاجتماع .. أدى إلى تأكيد وتأييد منطق السادات .. لم يعد هناك تحرك آخر إلا تحرك السادات ، ولا مجرد فكرة لتحرك آخر .. ولو تتبعت الصحف التى كانت تطلق لسانها ضد مصر وزعيم مصر لوجدت أنها بعد انتهاء اجتماع طرابلس بدأت تطوى ألسنتها وتخفف من هجماتها ، لأنها استسلمت للفشل فى إقناع الناس بأى حل آخر ..

قال الشاب فى سخط :

– ولكن قد انتهى الاجتماع بأن سحبت مصر سفراءها من الدول المجتمعة : أى قطعت علاقاتها مع خمس دول عربية ..

– وقال العجوز مبتسما :

– ولا يهمك !. إن العلاقات لن تقطع أبدا حتى بعد سحب السفراء .. إن العلاقات بين العرب لا تقوم على التشكيلات الرسمية: لقد كان هناك دائما تشكيل يسمى « اتحاد الجمهوريات العربية » يضم مصر وسوريا وليبيا . وبرغم وجود هذا التشكيل لم يكن هناك قط اتحاد لهذه الجمهوريات !. وكذلك قامت معارك أشبه بالحروب بين مصر وليبيا وبين ليبيا والسودان وبرغم ذلك لم تنته هذه الحروب إلى أى شكل من أشكال الحروب .. وكذلك قطع العلاقات لن ينتهى إلى قطع

العلاقات فعلا .. إنما هو مجرد درس تأديبى للذين أطالوا ألسنتهم !

وقال الشاب وبين شفتيه ابتسامة كأنها ابتسامة انتصار :

– وهكذا فشلت جبهة الرفض !.

وقال العجوز :

– إنى أعترض على وصفهم بجبهة الرفض .. ما هو الرفض ؟. هو رفض الواقع ؟ ولكن كل هذه الدول وهؤلاء الرؤساء لا يرفضون الواقع ولكنهم يستسلمون له !. إن الرفض بلا حركة استسلام .. والدولة « الوحيدة » التى يمكن أن تسمى دولة الرفض هى مصر والزعيم الوحيد الرافض هو السادات . لأن مصر وزعيمها يرفضان الواقع الذى نعيشه .. واقع احتلال أرضنا .. ولا نكتفى بالرفض الشفهى حتى ينقلب إلى استسلام . ولكن مصر تتحرك .. تجازف .. تقامر .. تفرض شخصيتها وتفرض وجودها .. وهذا هو ما يمكن أن يسمى بالرفض .. رفض الواقع .. أما حكومة العراق مثلا فكيف تعبر عن الرفض ؟.. أبدا .. لا شىء أكثر من الكلام كالسجين الذى يتكلم فى زنزانته دون أن يحاول الهرب أو تحطيم الأبواب المغلقة !. وهذا ليس رفضا إنه استسلام !.

وقال الشاب فى اقتناع :

– لك حق .. مصر هى التى ترفض .. ترفض الواقع المفروض بالقوة على العرب .. ومن يرد أن يرفض يجب أن يقف بجانب مصر ويحاول مع مصر .. يحاول التخلص من هذا الواقع .. ولكن هل تعتقد أن عام ١٩٧٨ سيكون عام التصفية النهائية لكل مشاكلنا مع إسرائيل أو قد يتكرر ما سبق أن قلناه من أن عام ١٩٧١ سيكون عام الحسم ولم يحسم خلاله شىء ؟.

وقال العجوز فى إشفاق :

– لا أدرى !. تفاءل ولكن لا تتنبأ .. واطلب لنا شراب الكركديه حتى نحلى شفاهنا . فإن الحديث عن فشل اجتماع طرابلس يستحق الحلاوة !.

٣

كان الشاب يجلس وهو معقد العينين متزمت الشفتين ونظر إليه العجوز فى إشفاق قائلا :

– ماذا بك ؟
وقال الشاب :
– إنى غير مستريح .. بدأ السخط يتسلل إلى أعصابى ..
وقال العجوز :
– لماذا ؟
وقال الشاب :
– لأننا نبالغ .. إننا دائما نقع ضحايا البالغة ..
وقال العجوز :
– أفهمنى .. نبالغ فى ماذا ؟
وقال الشاب وهو يتنهد فى سخط :
– فى التعبير عن علاقاتنا الجديدة بإسرائيل .. أقصد التعبير العاطفى .. أصبح تعبيرا أقرب إلى الارتماء .. إن كل تعبير يجب أن يكون تعبيرا عن رأى أو عن موقف .. وقد خرج الشعب يستقبل السادات بعد عودته من القدس تعبيرا عن موافقته وتأييده لهذه الزيارة.. ثم خرجت المسيرات الشعبية الجماعية تعبر عن تأييدها للسادات ضد اللذين اجتمعوا فى طرابلس ليبيا وتكذيبا لكل ما قالوه أو تصوروه عن رأى شعب مصر فى زعامته وقيادته .. كل هذا كان يجب أن نعبر عنه .. ولكن بعد هذا .. ما هو الداعى لأن يذهب واحد منا ويلقى محاضرة فى اجتماع يهودى عالمى ؟.. و .. و .. لماذا .. إننا لم نصل بعد إلى شىء مع إسرائيل ! إن كل ما حدث عطاء من جانبنا : ذهب الرئيس وزار القدس . ولا يمكن أن يكون ما ننتظره هو رد الزيارة .. إن ما ننتظره هو رد الأرض .. وحتى مع تفاؤلنا فإن إسرائيل إلى اليوم لم ترد الأرض . بل لم تتعهد تعهدا كاملا بردها .. فلماذا نفرح قبل موعد الفرح ؟ ولماذا نسرف فى عواطفنا ونبالغ فى ارتمائنا ؟.. لماذا لا نمسك أنفسنا حتى نصل إلى ما نريده ثم ننطلق ؟
وقال العجوز وكأنه يخفف عن الشاب :
– إنها طبيعة الشعب المصرى .. شعب عاطفى يبالغ فى التعبير عن فرحه أو عن حزنه ..
وقاطعه الشاب فى غضب :
– إن هذه المبالغة فسرت تفسيرا آخر : فسرت على أنها ليست حبا

فى إسرائيل ولكنها كراهية فى العرب !

وقال العجوز فى جدية :

– هذا أخطر ما يمكن أن نصل إليه ! وقد كنا دائما نقول : « مصر أولا » ولم نكن نعنى أن تتجاهل مصر العرب ولكنهم فسروها هكذا !. وقلنا أيامها : إننا عندما نصل إلى بناء مصر أولا فمعنى هذا أننا نجعل منها أمة قادرة على بناء الأمة العربية كلها ، ولكنهم لم يصدقونا أيضا !

وقال الشاب :

– وهم لا يصدقوننا اليوم أيضا ! يعتقدون أننا تركنا الأمة العربية كلها وأصبحنا نحن وإسرائيل وحدنا ! وكل هذا نتيجة المبالغة ، المبالغة فى الانطلاق العاطفى مع الموقف الجديد ..

وقال العجوز :

– لا تنس أن الدول العربية الأخرى قد بالغت أيضا . سوريا وغيرها .. بالغوا فى مهاجمة مصر وزعيم مصر .. والمبالغة تواجه بمبالغة..

وقال الشاب فى أسى :

– لا أفهم لماذا اتخذت دول اجتماع طرابلس هذا الموقف ؟..

وقال العجوز وهو يزفر أنفاسه فى ضيق :

– لأنهم أغبى من أن يخالفوا اتجاه روسيا وأضعف من أن يقنعوا روسيا بأن تغير اتجاهها ! لقد كانوا يستطيعون لو كان لهم كيان أن يقنعوا الاتحاد السوفيتى بأن يؤيد السادات فى زيارته لإسرائيل ! ولكن الاتحاد السوفيتى لم يكن يحسب حساب السادات . بل يحسب حساب أمريكا . فإذا فاوض السادات إسرائيل . وإذا كانت إسرائيل فى يد أمريكا فمعنى هذا أن روسيا قد شطبت من الشرق الأوسط ! فقد كانت تعتمد دائما على أن تكون إسرائيل فى يد أمريكا والعرب فى يدها. فإذا خرج العرب من يدها فلا شىء بقى لها !

وقال الشاب فى حيرة :

– والحل ؟

وقال العجوز :

– لا حل إلا إذا توحد الموقف العربى الخارجى بين روسيا وأمريكا!. وكل المآسى التى عشناها ونعيشها أساسها أن البلاد العربية لها موقف واحد بين روسيا وأمريكا .

وقال الشاب الحائر :

– وكيف نصل إلى هذا الموقف الواحد ؟..

وقال العجوز مبتسما :

– المهم الآن كيف نصل إلى نتائج اجتماع القاهرة بيننا وبين إسرائيل!. أرجو ألا يضيع وقت المؤتمر فى مناقشات تاريخية وسياسية وعسكرية ، فكل طرف يعرف ما سيقوله الآخر فى هذه المناقشات .. المهم أن يحصر كل طرف ما يقوله فيما يريد أن يأخذ وما يستطيع أن يعطى حتى ننتهى بسرعة .. ودعنا نتفرغ الآن لتتبع أخبار ميناهاوس .

وقال الشاب ضاحكا :

– هناك أبو الهول وأبو الهول لا يتكلم ..

وقال العجوز ساخرا :

– ولكننا نعلم كل ما لم يقله أبو الهول .. (الشيشة يا جدع) وقهوة سادة ..

٤

قال الشاب وهو يزفر أنفاسه فى زهق :

– يبدو أنه لم يعد أمامنا إلا أن ندعو قارىء فنجان أو واحدة من محترفات (نبين زين ونشوف الودع) إذا أردنا أن نصل إلى حقيقة نيات إسرائيل وحقيقة ما يمكن أن نقبله وما يمكن أن نرفضه ! إن كل ما يذاع علينا هو المقابلات والاتصالات، ولكن لا شىء مما يجرى فى هذا المقابلات والاتصالات سوى تصريحات عائمة متعارضة !

وقال العجوز وهو يبتسم للشاب فى إشفاق :

– إن ما يتعبك هو أنك تتصور أن المفاوضات بيننا وبين إسرائيل حدث جديد فى التاريخ المصرى .. لا ! . لا شىء جديدا !. إن التاريخ المصرى يكرر نفسه : فإسرائيل دولة تحتل أرضنا كما كانت بريطانيا دولة تحتل أرضنا .. ونحن نفاوض اليوم إسرائيل مطالبين بالجلاء عن أرضنا كما كنا نفاوض بريطانيا ..

وصرخ الشاب فى غضب :

– لا تقارن إسرائيل ببريطانيا .. إسرائيل دولة صغيرة وبريطانيا كانت دولة من الدول العظمى !

وقال العجوز ساخرا :

– إن من أكبر أخطاء العرب ـ أنهم اعتبروا إسرائيل دولة صغيرة ، لا !. إسرائيل ليست دولة صغيرة ولو كانت دولة صغيرة ما استطاعت أن تصل إلى ما وصلت إليه !. وصلت حتى أعناقنا ! والخطأ هو أننا اعتبرنا إسرائيل هى هذه المساحة الجغرافية بعدد سكانها فى حين أن إسرائيل كدولة ـ أقول كدولة ـ لها مستعمرات فى جميع أنحاء العالم بما فيها مستعمرات فى موسكو وواشنطن .. وعدد سكانها هم كل يهود العالم !. وثروتها ومستوى دخلها يحسبان بحساب رأس المال اليهودى فى العالم كله .!

وقال الشاب الغاضب :

– ولكننا عشنا فى حرب مستمرة مع إسرائيل ولم نستسلم لها كما استسلمنا لبريطانيا .. وكان يمكن أن نستمر فى هذه الحرب دون حاجة إلى المفاوضات ..

وقال العجوز فى هدوء :

– إنك تردد نفس الشعار الذى كان يردده الحزب الوطنى أيام الاستعمار البريطانى وهو « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » ! ونحن لم نستسلم للاستعمار البريطانى . ولكننا كنا فى حرب شعبية مستمرة معه ، وبرغم ذلك فقد بدأنا المفاوضات قبل الجلاء .. نفس ما يحدث مع الاستعمار الإسرائيلى ، وإن كانت حربنا مع بريطانيا كانت حربا شعبية وحربنا مع إسرائيل حربا رسمية ..

وقال الشاب :

– والنتيجة .. نتيجة كل هذا الذى نعيشه ؟

وقال العجوز :

– نفس النتيجة لمفاوضات الجلاء مع بريطانيا التى لم يمض عليها أكثر من ثلاث وعشرين سنة .. فإن الذى يحتل الأرض لا يجلو عنها إلا إذا حقق لنفسه مصالح يريدها .. إنه لا يجلو إيمانا بمبدأ أو استجابة لحب أخوى مفاجئ ! وبريطانيا وهى تفاوض جمال عبدالناصر وضعت شروطها التى تحقق مصالحها بل اشترطت أن يكون لها حق العودة بقواتها إلى مصر لو وقع أى تهديد على تركيا .. تصور .. وقد قبل جمال عبدالناصر هذه الشروط !

وقال الشاب القرفان :

– ولكن الوضع مختلف : إن القضية الآن ليست قضية مصر وحدها فالاحتلال الإسرائيلى يمتد إلى سوريا وفلسطين ..

وقال العجوز الهادئ :

– الاحتلال البريطانى أيضا كان يمتد إلى فلسطين وإلى العراق وإلى السعودية والكويت ، وكانت كل دولة تناضل وتكافح لنفسها مع وحدة الهدف بين بعضها وبعض .. وقد تم الجلاء عن كل البلاد. وكانت مصر آخر دولة تم الجلاء عنها .. وهو نفس الوضع القائم الآن.. كل دولة تتكلم عن نفسها وأرجو الله ألا تكون مصر آخر دولة يتم الجلاء الإسرائيلى عنها ..

وقال الشاب :

– ولكن السادات يقول : إنه يسعى إلى حل يشمل كل الدول التى تحتلها إسرائيل ..

وقال العجوز :

– ولكن مسئوليته الواقعية هى مسئوليته عن مصر ، وليس من حقه أن يفرض هذه المسئولية على سوريا مثلا ..

وقال الشاب فى قرف :

– أنت تقول إن إسرائيل لن تتفق إلا إذا حققت لنفسها مصالح ..

وقال العجوز :

– طبعا : مصالح اقتصادية ومصالح سياسية أيضا .. إن جلاءها سيحقق لمصر أيضا مصالح .. وكل شىء بثمنه يا بنى ..

وتنهد العجوز فى أسى ثم استطرد قائلا :

– هل تعرف أن مصر لم تعش طول عمرها وهى محررة من قوات أجنبية على أرضها إلا عشر سنوات فقط .. عشر سنوات فقط منذ انتهاء عصر الفراعنة .. من عام ١٩٥٦ إلى عام ١٩٦٧ .. وبعدها عاد الأجنبى يحتل أرض مصر .. وكان الأجنبى هذه المرة هو إسرائيل !

وقال الشاب :

– كيف عاد ..؟

وقال العجوز ساخرا :

– لأننا أيامها لم نسمع كلام الأمريكان .. أطلب لنا كوكاكولا تحية للأمريكان !

يناير ١٩٧٨

١

كان الشاب ينفث أنفاسه فى زهق وقال له العجوز مبتسما كأنه يخفف عنه :

– قلت لك لا تتعجل .. إن المفاوضات ليست كلمة ورد غطاها ! المفاوضات أخذ ورد .. قد يستمر أسابيع أو شهورا وقد يصل إلى سنوات ! والمفاوضات لا تعنى أن يفرض أحد الطرفين رأيه على الآخر.. فالذى يفرض رأيه هو الأقوى أو المنتصر .. وهذه المفاوضات بدأت على أساس ألا تدور بين قوى وضعيف ولا بين منتصر ومهزوم .

وقال الشاب الزهقان :

– إسرائيل هى الأقوى .

وقال العجوز بسرعة :

– كانت أقوى بأمريكا .. والآن أصبحت أمريكا بيننا نحن الاثنين كمؤشر الميزان يحدد ثقل كل كفة .

وقال الشاب فى حدة :

– إسرائيل هى الأقوى لأنها تحتل أرضنا .

وقال العجوز :

– ونحن الأقوى لأننا نحتل مستقبلها .. وإذا كنا نحن نطالبها بأرضنا فهى تطالبنا بمستقبلها .. مستقبل وجودها .

وقال الشاب الساخط :

- إنها تطالبنا بالكثير لضمان هذا الوجود .

وقال العجوز فى هدوء :

- هذا ما يحدث دائما فى كل مفاوضات ، وقد قلت لك : إن مصر تعودت المفاوضات من أيام الاحتلال البريطانى ، والخطأ الذى تقع فيه إسرائيل أنها تكرر نفس صيغة المفاوضات التى كانت تدور بيننا وبين الإنجليز : كان الإنجليز يرفضون التفاوض مع سعد زغلول كزعيم ثورة ولم يقبلوا التفاوض معه إلا كرئيس حكومة ، وكذلك إسرائيل ترفض التفاوض مع ياسر عرفات كزعيم ثورة ، وربما لو كان عرفات قد استطاع أن يقيم حكومة فلسطينية لتفاوضت معه إسرائيل .. وكان أول ما قدمه الإنجليز لمصر هو الحكم الذاتى بتصريح (٢٨ فبراير) وكذلك تحاول أن تفعل إسرائيل بعرض الحكم الذاتى على عرب الضفة الغربية.. وحتى عندما قرر الإنجليز الجلاء عن مصر صمموا على الاحتفاظ بقواتهم فى منطقة قناة السويس ، وهذا ما تحاوله إسرائيل : أى أن تجلو عن الأرض مع الاحتفاظ بقواعد عسكرية .. وإسرائيل لا تستطيع أن تفهم أن العقلية السياسية التى كانت قائمة أيام الاحتلال البريطانى لم تعد قائمة .. وأن ما كانت تقبله الشعوب بحكم القوة لم تعد تقبله .

وقال الشاب :

- لو كنا قد اتفقنا على الجلاء عن سيناء فلماذا نؤجل هذا الجلاء حتى نصل إلى حل مشكلة الضفة الغربية ؟ لماذا لا نترك إسرائيل تجلو عن سيناء حتى لو بقيت فى الضفة الغربية فتصبح أمامنا مشكلة واحدة بدلا من مشكلتين ؟

وابتسم العجوز ابتسامة يسخر بها من عقلية الشاب :

- إن المشكلة ليست مشكلة سيناء أو الضفة الغربية ، إنما المشكلة هى مشكلة مصر وإسرائيل ، فكيف يتم السلام بينهما إذا كانت إسرائيل تحتل الضفة الغربية ؟ إن المشكلة العربية مرتبطة بالمشكلة الوطنية .. وستبقى المشكلة بين مصر وإسرائيل .

ورد الشاب على الابتسامة الساخرة بابتسامة تحمل مزيدا من السخرية :

- والجولان ؟

وقال الشيخ فى حزم :

– والجولان أيضا .. لا تنس أن مصر كانت تحارب فرنسا فى سبيل تحرير الجزائر برغم أن فرنسا لم تكن تحتل مصر ، ولن يتم السلام بين مصر وإسرائيل إذا ظل هذا السلام مهددا باحتمال أن تحارب مصر فى سبيل تحرير سوريا وتحقيق الجلاء عن الجولان .

وقال الشاب الساخر :

– هذه عقلية العجائز .. إن العقلية الحديثة هى أن تعيش الواقع . فإذا كان الواقع يفرض أن تكون قطعة من الأرض العربية محتلة وقطعة حرة فليس معنى ذلك أن نضحى بالقطعة الحرة دون أن نضمن تحرير القطعة المحتلة .. ثم إن مناحم بيجن قال عن نفسه : إنه فلسطيني .. يهودى فلسطيني .. وفلسطيني معناها عربى . فلماذا لا نعتبر إسرائيل كلها دولة عربية ويصبح الخلاف معها كالخلاف بين الجزائر والمغرب أو كالخلاف بين العراق وسوريا وكل بلد تحل مشاكلها مع الأخرى ؟ .. وهكذا .. نحرر سيناء ونستريح .

وقال العجوز فى سخط :

– إنك تخرف ! إنك تتصور شعارات لا أساس لها من الواقع .. إن إسرائيل نفسها ترفض أن تكون عربية ، وتريد أن تعود بنفسها إلى ما قبل أن يصل الكيان العربى إلى فلسطين ، وأن تبقى دائما دولة قائمة بذاتها وسط الدول العربية .. لا تخرف .. ولا تتماد فى الأوهام .

وقال الشاب فى حماس :

– إن ما يحدث الآن كان يعتبر تخريفا لو طالبنا به منذ عام واحد .. إن ما يعتبره العجائز تخريفا نعتبره نحن واقعا يجب أن نسعى إليه .

وصرخ العجوز :

– إنك لا تسعى ، ولكنك تريد أن تستريح وتهرب من السعى ! وما يحدث الآن طريق جديد فى عالم لم تتغير مبادئه ولا أهدافه ولا واقعه فحاولوا أن تفهموا هذا .. والسلام عليكم ، المقهى لم يعد يحتمل هذا الكلام .. كلام نصفه مفهوم ونصفه فارغ !

٢

قال الشاب ساخرا فى مرارة :

إن التسع والتسعين فى المائة خيبت آمالنا .

وقال العجوز فى دهشة :

- ماذا تقصد ؟

وقال الشاب ساخرا :

- أقصد أمريكا .. إننا نقول : إن تسعا وتسعين فى المائة من أوراق القضية فى يد أمريكا . وقد أعلنت أمريكا أخيرا أنها ترفض قيام دولة فلسطينية ، ثم سكتت على مشروع إسرائيل الذى يفرض الاحتفاظ بمستعمرات وقوات فى سيناء مع احتفاظها بالسيادة على الضفة الغربية .. هذا ما خرجنا به من التسع والتسعين فى المائة !

وتنحنح العجوز كأنه يهم بإلقاء محاضرة وقال :

- إننا ضحايا وهم قديم نرسم به صورة أمريكا . فإننا نتصور أن ما حدث عام ٥٦ يمكن أن يحدث عام ٧٨ . ففى عام ٥٦ تدخلت أمريكا وأجبرت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على الانسحاب من مصر فلماذا لا تفرض على إسرائيل الانسحاب فى عام ٧٨ ؟ ونحن ننسى أو لا نعرف أنه فى عام ٥٦ لم تقف أمريكا ضد إسرائيل ، ولكنها وقفت أساسا ضد بريطانيا وفرنسا حتى تحول بينهما وبين استعادة الامبراطوريات القديمة ؛ فقد كانت أمريكا قد قررت أن تتولى هى القيادة العالمية بدلا من بريطانيا وفرنسا . ولذلك تدخلت وفرضت عليهما الانسحاب من مصر .. ومن يدرى ؟ ربما لو كانت إسرائيل أيامها هى التى استولت على سيناء وحدها لما تدخلت أمريكا ! المهم أن نتخلص من هذا الوهم القديم ، ولا ننتظر من أمريكا أكثر مما تفرضه عليها مصالحها .

وقال الشاب فى حدة :

- ولكن أمريكا تعلن شعارا يردده كارتر كل يوم وهو شعار « حقوق الإنسا » وأقل حقوق الإنسان الفلسطينى هو أن تكون له دولة .

وقال العجوز فى هدوء :

- حتى حقوق الإنسان لا تستطيع أمريكا أن تفسرها خارج المصالح الأمريكية .

وقال الشاب الساخط :

- ما هى المصالح الأمريكية التى تتعارض مع قيام دولة فلسطينية صغيرة ؟

وقال العجوز :

- مصالحها قائمة على عدم الثقة فى الكيان الفلسطينى الذى سيتولى هذه الدولة .. وهى تفترض أنه كيان سيكون مرتبطا بموسكو ، وستكون الدولة مركز ثقل سوفيتى .. وقد تقوم هذه الدولة بعملية انقلاب داخل الأردن لتقيم فيه نظاما آخر ، وتتجه به اتجاها آخر لمصلحة موسكو .. وقد تتحالف هذه الدولة وحزب راكاح الإسرائيلى وهو حزب يتبع موسكو تبعية صريحة علنية ، وبذلك يقوى الحزب الذى يقف ضد أمريكا ، أو قد تبدأ هذه الدولة فى فرض المتاعب على المنطقة كلها مما يتعارض مع مصالح أمريكا.

وصرخ الشاب :

- والحل الذى تريده أمريكا هو أن يحرم الفلسطينيون أن تكون لهم دولة ويعيشوا مشردين كما عاش اليهود قبل أن يستولوا على الأرض !

وقال العجوز الهادئ :

- الحل هو أن تقبل القيادة الفلسطينية ضم الضفة الغربية إلى الأردن ..

وقال الشاب فى دهشة :

- هل هذا هو رأيك ؟

وقال العجوز وهو يهز كتفيه فى يأس :

- إنه ليس رأيى ، إنه خطة عمل ، فقد كانت الضفة الغربية حتى عام ٦٧ منضمة إلى الأردن ، كما كان قطاع غزة منضما إلى مصر. ونحن نطالب بالعودة إلى ما كنا عليه عام ٦٧ ، فلماذا لا نعود كما كنا ثم نتصرف كما نريد ؟ أى نقيم دولة فلسطين بدلا من أن نطلب من إسرائيل أو من أمريكا إقامة هذه الدولة ؟

وقال الشاب :

- هل تعتقد أن هذا يمكن أن يتحقق ؟

وقال العجوز فى أسى :

- إنه كلام قلته هنا فى المقهى منذ أكثر من ثلاث سنوات ولم يتحقق ولن يتحقق .

وقال الشاب فى تساؤل ساخن :

- لماذا ؟

وقال العجوز اليائس :

- لأن الزعماء العرب - تملقا ونفاقا لقوة المنظمات الفلسطينية - فرضوا على الملك حسين أن يعلن تخليه عن فلسطين أى عن الضفة الغربية - ثم هناك السبب الأهم وهو أنه لو فرض وعادت الضفة إلى الأردن وعادت غزة إلى مصر فلن تسمح أمريكا وإسرائيل للأردن ومصر بأن يتخليا عن هذه الأرض ليقيما عليها دولة فلسطينية !

وقال الشاب فى سخط :

- أى أن الوضع دائما للمصالح الأمريكية .

وقال العجوز :

- هذا صحيح .

وقال الشاب وقد احتد سخطه :

- ومصالح أمريكا أقرب إلى مصالح إسرائيل منها إلى مصالح العرب .

وقال العجوز وهو يتنهد :

- هذا صحيح .

وصرخ الشاب :

- إذن لماذا نعلن أننا لن نحارب ؟

وقال العجوز وهو يتنهد مرة أخرى ويمد يده ويلتقط مبسم الشيشة:

- حتى نتفرغ لتدخين الشيشة !

٣

قال الشاب فى سخط وقرف :

- أريد أن أفهم كيف نبدأ المفاوضة مع إسرائيل على حين أن رئيس وزرائها يذيع كل يوم تصريحا يصد النفس ؟ آخر تصريح له هو أنه قرر أن يقضى بقية حياته هو وزوجته فى مستعمرة إسرائيلية يحتفظ بها فى رفح ! أى على أرض سيناء .. لو كان سليم النية لعرف أن المفاوضة تفرض عليه أن يقول الكلام الذى يشجع الطرف الآخر لا الكلام الذى يثيره .

وقال العجوز ضاحكا :

- بالعكس .. إن المفاوضة تدور بين اثنين كل منهما بائع ومشتر في نفس الوقت .. والبائع يرفع في سعر البضاعة حتى وهو يعلم أن المشترى لن يقبله .. إنما هى مساومات .. يبدأ السعر بمائة وينتهى إلى خمسين .. فهكذا بدأ بيجن برفع الأسعار .. نريد المستعمرات .. نريد أن تكون لها قوات في سيناء .. نريد أن يستمر احتلالنا للضفة الغربية .. و.. و.. وهو يعلم أن المشترى سيجادل ويفاصل إلى أن يصل معه إلى اتفاق .. وكذلك نحن .. إننا نبيع نحن أيضا ونبدأ برفع الأسعار .

وقال الشاب ساخرا :

ماذا نبيع ؟

وقال العجوز :

- نبيع السلام .. ونبيع لإسرائيل حق افتتاح دكاكين سياسية واقتصادية وثقافية في بلادنا .. أى قيام علاقات طبيعية بيننا وبينهم كالعلاقة بيننا وبين إنجلترا أو العلاقة بيننا وبين الكويت .

وقال الشاب ساخرا :

معروف عن المصريين أن ليس من طبيعتهم التجارة .. سواء التجارة العادية أو التجارة السياسية .. لذلك فقد بدأنا بتخفيض الأسعار قبل أن نجلس مع الزبون .. تساهلنا .. رضينا بتأجيل موضوع الدولة الفلسطينية .. ورضينا بالمناطق العازلة .. و.. و.. وإسرائيل لم تعلن رضاءها عن أى شىء حتى الآن .. !

وقال العجوز في هدوء :

- يجب أن تحسب حساب العقدة النفسية التى يعانى منها الزبون حتى تستطيع أن تخدعه أو على الأصح تقنعه .. وإسرائيل نتيجة وضعها تعانى من عقدة الغرور .. إنها تريد دائما أن تتكلم على أنها الأقوى .. إنها تعتبر نفسها الآن دولة من دول الذرة .. بل إنها أصدرت إحصائية تثبت بها أنها أصبحت تملك من عناصر التسليح أكثر مما تملكه بريطانيا ! وأنت أمام طريقتين : إما أن تتكلم مع إسرائيل بنفس اللهجة ومن خلال نفس العقدة ، أى عقدة الغرور ، وإما أن تعتبر نفسك طبيبا نفسانيا وتعامل إسرائيل بعقدتها .

وصرخ الشاب :

- إذا تعالت عليّ إسرائيل بغرورها فإن غروري بنفسي يرفعني فوقها .. إني لا أقبل التواضع أمام غرور إسرائيل .

وقال العجوز كأنه يشفق على الشاب .

- إنك لا تتواضع ، ولكنك تستعمل ذكاءك ومهارتك في علم النفس السياسي .. إن ما شهد لنا به العالم اليوم هو أننا عباقرة في علم النفس السياسي .. ثم هناك ناحية أخرى تدل على ذكائك ، أقصد ذكاءنا ، وهو أننا حتى نهرب من غرور إسرائيل فإننا لا نزال نعتبر أن الموضوع موضوع بيننا وبين أمريكا والمسئول أمامنا هو كارتر وليس بيجين .

وقال الشاب ساخرا :

- وإلى أين وصلنا بذكائنا ؟

وقال العجوز مبتسما متفائلا :

- وصلنا إلى الكثير : يجب أن تعلم أن إسرائيل لم تكن تريد السلام .. ليس من مصلحتها السلام ، ولكنها اضطرت أن تتجه إلى السلام تحت الضغط الأمريكي ، وتحت ضغط زيارة السادات للقدس ، إن هذه الزيارة لم تكن نتيجتها إثارة عواطف أهل إسرائيل نحو السلام ، بل نتيجتها الواقعية هي تكثيف الضغط العالمي على إسرائيل لتقبل السلام .. وفي رأيي أن إسرائيل تحت هذا الضغط أعادت تخطيط مستقبلها كله .. فهي الآن مستعدة لأن تنسحب من كل سيناء وتنسحب من كل أرض الجولان تحت شرط واحد وهو أن تبقى مسيطرة على الضفة الغربية للأردن ومعها غزة .. وإنها بهذه الأرض تستطيع أن تستكمل نفسها جغرافيا ـ أصبحت إسرائيل هي كل فلسطين .. أما الحلم الأكبر .. أي إسرائيل من النيل إلى الفرات فيمكن أن يؤجل عشرين أو خمسين عاما أخرى .. ولذلك فكل المشاكل التي تثيرها إسرائيل اليوم هي للضغط على العرب حتى يتنازلوا لها عن أرض فلسطين نظير تنازلها عن أرض سيناء والجولان .

وقال الشاب :

- وهل تستطيع إسرائيل ؟ وهل نقبل نحن ؟

وقال العجوز متأسفا :

- إسرائيل تعتمد على حجج استطاعت أن تقنع بها أمريكا حتى أصبحت تؤيدها .. أصبحت أمريكا تتصور أن أى كيان فلسطينى كامل يمكن أن يقوم سيكون كيانا تابعا لموسكو ، فأصبحت أمريكا تؤيد إلغاء الكيان الفلسطينى الحر .

وقال الشاب فى جزع :

- والحل ؟

قال العجوز وهو يتنهد فى أسى :

- الحل هو ما قلته لك أكثر من مليون مرة وهو أن يتوحد موقف كل الدول العربية ومعها المنظمات الفلسطينية بين أمريكا وروسيا .. أن يجلسوا جميعا على مقهى واحد بدلا من التشتت بين مقهى موسكو ومقهى واشنطن حتى نحل بذلك جميع مشاكلنا .

وصرخ الشاب :

- إن الشخصية العربية يجب أن .....

وقاطعه العجوز :

- لا تبدأ فى إلقاء الخطب والشعارات ، واطلب لى زجاجة كوكاكولا أمريكية أو أفضل أن تطلب لى كأس فودكا روسية حتى أذوق مرارة زمان وأقارنها بمرارة هذه الأيام !

كلمة

الفرق بيننا وبين إسرائيل - هو أننا نفكر بعقلية السلام ، وإسرائيل تفكر بعقلية الهدنة .. ما نطلبه هو مطالب السلام ، وما تطلبه إسرائيل هو مطالب الهدنة المسلحة .

والفرق بين السلام والهدنة كبير .

إحسان

٤

قال العجوز كأنه يجر الشاب إلى حديث ممتع :

– ما رأيك فى آخر التطورات ؟

وقال الشاب بلا مبالاة :

– تطورات ماذا ؟

وقال العجوز دهشا كأنه ليس هناك إلا تطورات فى موضوع واحد.

– طبعا تطورات قضية السلام مع إسرائيل .

وقال الشاب مبتسما كأنه يلقى نكتة :

– هناك تطورات أهم ، تطورات حزب الوفد الجديد !

وقال العجوز ساخطا :

– إنها ليست أهم ، بل إن هذا ليس وقت مناقشة موضوعات داخلية ، ولا وقت إنشاء أحزاب !

وقال الشاب كأنه يفهم أكثر :

– بالعكس : إن هذا هو وقته ، فنحن نواجه قضية وطنية ، قضية الاحتلال الإسرائيلى .. وأية قضية وطنية تتطلب استكمال الأوضاع الداخلية حتى نكون أقوياء .. فنحن مثلا لا نؤجل حل مشكلة الغلاء ، ولكننا نحلها حتى لاتشغلنا وتفتت قوانا المعنوية ، ونحن نفاوض إسرائيل ، وكذلك تكوين الأحزاب : لقد قلنا : إن النظام الأمثل هو النظام الذى تتعدد فيه الأحزاب ووضعنا الشروط المطلوبة فلماذا لا نستكمل هذا النظام الأمثل حتى نكون أقوياء به ونحن نفاوض إسرائيل ؟

وقال العجوز فى قرف :

– هناك أحزاب قائمة فعلا .

وقال الشاب ساخرا :

– أنت تعرف أنها أحزاب رسمية ، أحزاب لم تشكل نفسها ، ولكن شكلها النظام أو شكلتها الدولة .. والبلد فى حاجة إلى حزب يشكل نفسه .

وقال العجوز القرفان :

إذا كان كل ما تريده أن تقوم معارضة فإن بين الأحزاب القائمة حزبا معارضا يصدر جريدة يهاجم فيها الحكومة ورئيس الحكومة .. وهذا يكفى .

وقال الشاب فى زهق :

– يا والدى ، لا تهرب من نفسك .. أنت تعلم أنها معارضة رسمية . وما نحتاج إليه هو تنظيم يعبر عن الرأى المعارض الشعبى .

وقال العجوز :

– إن حزب الوفد لا يمكن أن يعبر عن الشعب ، إنه يضم شخصيات قديمة أشبه بقطع الآثار ! فى حين أن الشعب ولد من جديد منذ أكثر من عشرين سنة .

وقال الشاب :

ليس من حق أحد أن يقول ذلك .

وقال العجوز :

– لمـــاذا ؟

وقال الشاب وهو مغرور بنفسه :

– لأن الحكم للتجربة .. لنترك هذا الحزب يقوم ويتحرك بحرية ، ثم بعد ذلك نكتشف : هل كان شعبيا أو ليس شعبيا ، له قيمة أو ليست له قيمة ؟ هل تعتقد أن اللجنة المركزية ستوافق على قيام حزب الوفد الجديد ؟

وفكر العجوز برهة ثم قال وهو يتنهد كأنه يستسلم :

من مصلحة النظام كله أن يوافق على قيام هذا الحزب ؛ لأنه إذا لم يوافق فكأنه يخافه ! يخاف أن يكتسحه شعبيا .. حتى لو كان يضم شخصيات سياسية قديمة ومبادىء قديمة فيجب أن نتركه حرا حتى نثبت أن التطور السياسى أقوى من القديم .. ولكن ما يحيرنى الآن هو أنك أنت الذى تمثل الشباب تطالب بهذا الحزب .. وأنا العجوز أعارضه !

وقال الشاب فى أدب :

– لأنك شبعت من التطور ، وشبعت من كل ما هو جديد ، أما أنا فإنى مازلت فى حاجة إلى أن أمر فى تجارب .. أجرب كل شىء وكل حزب ..

وقال العجوز :

-- لنجرب أولا السلام مع إسرائيل .

وقال الشاب فى حماس :

- إن إطلاق حرية تكوين حزب جديد يقوى من موقفنا مع إسرائيل سواء كان حزبا مؤيدا أم حزبا معارضا .. إن أقوى ما يسند المفاوض الإسرائيلى هو تعدد الأحزاب هناك .. إننا فى حاجة الآن إلى الديمقراطية الكاملة مادمنا نواجه أخطاء الديكتاتورية الكاملة التى أدت إلى احتلال أرضنا .. وقد أثبت السادات دائما أنه أقوى بالديمقراطية .

وقال العجوز متنهدا :

- إن أضعف ما فى ديموقراطية مصر هو العودة إلى القديم ! العودة إلى الوفد .. وإلى الإخوان .. وإلى الناصرية .. و .. و .. وكأن شبابنا لم يولد بعد ولم يمارس الحياة السياسية بعد .. وارحمنى من دوشتك لأنى لم أياس بعد .. وأرجو أن تمتد بى الحياة حتى أرى جديدا.. اطلب لى كوب نعناع فهو يساعدنى على الحياة .. أو على الأصح ليساعدنى على هدوء أعصابى .

٥

قال الشاب وهو يزفر أنفاسه فى زهق :

- وآخرتها !

وقال العجوز مبتسما فى هدوء :

- إننا فى أولها وليس فى آخرها .

صرخ الشاب :

- بعد كل هذا تقول : إننا مازلنا فى أول الطريق !

وقال العجوز الهادىء :

- إن أول الطريق يبدأ بتجارب ، وكل ما حدث حتى الآن كان مجرد تجارب .

وقال الشاب ساخرا :

- باعتبارك من جيل العباقرة أرجو أن تشرح لى إحدى هذه التجارب .

وقال العجوز جادا :

- مثلا : لقد بدأت مبادرة السادات على أساس تحرير إسرائيل من عقدة الخوف من العرب ومن حاجتهم المستمرة لتامين أنفسهم ضدهم.. لا تخافوا ها قد جئنا إليكم بأنفسنا لنطمئنكم ! وكانت هذه مجرد تجربة انتهت بأن اكتشفنا أن عقدة إسرائيل ليست هى عقدة الخوف ، ولكن عقدتهم نابعة من صميم إيمانهم بالأرض الموعودة وبأنهم شعب الله المختار ! وبدأ مفهومنا للطبيعة الإسرائيلية يتغير : لم نعد نعتبرهم شعبا فى حاجة إلى الأمان ، بل هى دولة تصر على فرض نفسها ، وتغيرت حتى كلمات الرئيس السادات صاحب التجربة وأصبح يتحدث علنا عن الغرور الإسرائيلى والجشع الإسرائيلى .

وقال الشاب الساخر :

- أى إن كل ما خرجنا به من التجربة هو أننا بدأنا نردد كلمات جديدة .

وقال العجوز متحملا سخرية الشاب :

- لا ، إننا كشفنا عن النيات الحقيقية التى ترسم مستقبل إسرائيل ، إنك قد لا تعلم أن المشروع الأول الذى قدمه مناحم بيجين لكارتر سجل فيه « إن أرض سيناء كلها هى تاريخيا أرض إسرائيل كما تنص التوراة » وبرغم ذلك فإنه مستعد أن يتنازل عن أرض إسرائيلية - أى عن سيناء - لمصر .. ثم بعدها تمسكت إسرائيل بمستعمراتها حول رفح وعلى خليج العقبة وشرم الشيخ .. وأسلوب زراعة المستعمرات هو الأسلوب الذى بدأت به إسرائيل بناء كيانها فى فلسطين من قبل أن توجد : مستعمرة بعد مستعمرة إلى أن استعمرت فلسطين كلها ! وهذا هو ما تريد إسرائيل فرضه على أرض سيناء والجولان والضفة الغربية .

وقاطعه الشاب :

- كلنا كان يعرف ذلك ، ولم نكن فى حاجة للدخول فى تجربة حتى نكتشفه .

وقال العجوز وهو يتنهد كأنه نادم :

- لا ، لم نكن نعرف ، لم نكن نتصور أن إسرائيل تسعى للاستيلاء

على سيناء لا إلى مجرد احتلالهـا . وكنا نعتقد أن « إسرائيل الكبرى » مجرد حلم يمكن أن يتبخر لو ضمنا الحياة لإسرائيل الصغرى .. ولكن الآن .. وبعد التجربة العمليـة لا يمكن أن نثق فى إسرائيل .. أصـبحت العقدة هى عقدتنا نحن .. عقدة الخوف .

وقال الشاب وهو يبصق كلماته :

– وبرغم ذلك فإننا نعلن أن باب المفاوضات لا يزال مفتوحا .

وقال العجوز فى سخرية مرة :

– إن مصيبتنا أننا نضحك على أنفسنا ! أو أننا نخدع أنفسنا ونحن نحاول أن نـخدع العالم ؛ فـإننا نقول : إننـا نتفاوض مع إسـرائيل فى حـين أن الواقع هو أننا نتفـاوض مع أمـريكا ! راجع كل ما حـدث فى الأسابيع الماضـية تجد أن القـرارات التى صدرت كلها صـدرت باتفاق بين مـصر وأمـريكا لا بين مصـر وإسـرائيل ! ولذلك فإننا نقـول : إن المفاوضات مستمرة ، لأننا لا نستطيع أن نقطع المفاوضات مع أمريكا .

وقال الشاب :

– ولا حل .

وقال العجوز فى حماس :

– الحل هو أن نخـرج بـأنفـسنا من منطقـــة الخـداع وأن نقـصـر المفاوضات بيننا وبين أمريكا باعتبارها الوكيل الشرعى لإسرائيل .. إننا نكون بذلك أقوى ، لأننا سنلقى المسئولية صراحة على كتفى أمريكا .

وقال الشاب :

– إن أمريكـا ترفض هذه المسئـولية وتقـول : إنها فقط تـقوم بدور الوسيط .

وقال العجوز كأنه يصرخ :

– إنها تكذب ! وهى تـعلم أن كل تحركاتنا قـائمة على ارتبـاطنا بها لا على أملنا فى إسـرائيل ! والفـشل أو النجـاح هو نتـيجـة ارتبـاطنا بأمـريكا لا نتيـجـة لأى شىء آخر .. وهذا يفـرض أن تتـحمل أمـريكا مسئوليتها كاملة أو أن نتحرر من ارتباطنا بأمريكا .

وقال الشاب وهو يتطلع إلى وجه العجوز فى انبهار وإعجاب :

– لك حق .. ولكن .. إلى متـى سيسـتمر هذا الوضع الذى يفـترض

المفاوضات سواء كانت مع إسرائيل أو مع أمريكا ؟

وقال العجوز ضاحكا :

– لقد بدأ سعد زغلول المفاوضات مع بريطانيا عام ١٩١٩ وتم الجلاء عام ١٩٥٤ أى بعد خمسة وثلاثين عاما .. وإسرائيل كإنجلترا تعتبر نفسها دولة أعظم قوية تفاوض دولة فرضت عليها الاحتلال الإسرائيلى : أى بحكم التاريخ ستستمر المفاوضات خمسا وثلاثين سنة وسيتم التحرير فى عام ٥٩٢٦٣ ميلادية ! قل إن شاء الله .

وقال الشاب وهو يخبط المائدة بقبضة يده :

– ليس أمامنا إلا طريق واحد .. الضرب .

وقال العجوز وبين شفتيه ابتسامة ذابلة :

– لا تضرب الآن ، ولكن صفق للجرسون حتى يسرع إلينا بكوب شاى .

فبراير ١٩٧٨

١

قال الشاب ضاحكا :

– إن كلمة السلام أصبحت أشبه بإعلان نعلقه فى الشوارع وفى التليفزيون وفى الصحف .. يذكرنى بإعلان (البقرة الضاحكة لافاش كى رى) .. مع فارق كبير هو أن السلام إعلان عن شىء غير موجود .

وقال العجوز وهو يضحك هو الآخر :

– لا ، إنه موجود .

وقال الشاب :

ـ أين هو هذا السلام ؟

وقال العجوز :

– مادمنا نكتفى بالكلام فنحن نعيش السلام حتى لو لم نكن نملكه .

وقال الشاب وهو يتنهد فى حسرة :

– لقد قلت يوما : إن إسرائيل لا تريد السلام ، ولكنها تسعى إلى اتفاق هدنة مسلحة .

وقال العجوز ساخرا :

– إنها تريد الاثنين معا .. السلام والهدنة المسلحة .. باسم السلام تريد إقامة علاقات طبيعية بينها وبين مصر .. أى تبادل العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والثقافية والسياحية .. و.. و.. و.. وفى الوقت نفسه تطالب بشروط الهدنة المسلحة : أى أن تكون سيناء منطقة

منزوعة السلاح ، وأن تقيم فيها نقاطا للإنذار المبكر ، وتحتفظ على أرضها بمطارات حربية وبمستوطنات يتولى حراستها الجيش الإسرائيلي ! وكل هذا باسم السلام ، وباسم العلاقات الطبيعية ! تصور أن يكون من بين العلاقات الطبيعية أن يكون من حق إسرائيل الاعتراض على تحركات الجيش المصري داخل أرضنا !

وقال الشاب في قرف :

– ولكننا قبلنا ، قبلنا أن تفرض على أرضنا مناطق منزوعة السلاح.

وقال العجوز :

– إذا كنا قد قبلنا فيجب أن نسميها هدنة مسلحة ؛ لأن السلام لا يمكن أن يقوم على تحديد حرية مصر وفرض رقابة على تحركاتها ، السلام هو أن تكون العلاقة بيننا وبين إسرائيل كالعلاقة بيننا وبين تركيا أو اليونان أو إيران ، وليس من حق تركيا أن تفرض علينا أي شرط باسم الحرص على العلاقات الطبيعية أو باسم الحرص على أمنها .

وقال الشاب :

– ولكن لم تكن بيننا وبين تركيا حرب . وكل منا ليس في حاجة إلى ضمان تجاه الآخر ، فماذا يضمن الزمن بيننا وبين إسرائيل ؟

وقال العجوز :

– الثقة .. والتقادم .. ثقة كل دولة في الأخرى وهي معدومة بيننا وبين إسرائيل ، ثم تقادم التعايش السلمي وهو في حاجة إلى مائة مائة سنة قادمة حتى يثبت أثره .

وقال الشاب وهو يهز رأسه في يأس :

– إني دائما أومن بأن لا حل إلا بفرض القوة .. بالحرب .

وقال العجوز في هدوء :

– الحرب لم تتوقف قط إلى اليوم ، ولن تتوقف في الغد القريب .. أقصد الحرب السياسية وهي الحرب التي تقرر الحرب العسكرية .. وقد تطورت الحرب السياسية بيننا وبين إسرائيل في عدة مراحل .. كانت أولا حربا تدور ونحن وإسرائيل نقف في ميدان واحد .. وكان ميدان دول الحلفاء ، ثم أصبحنا نحن نقف في ميدان موسكو

وإسرائيل تقف فى ميدان واشنطن والحرب بين الميدانين ، ثم حدث التطور الأخير وهو أننا انتقلنا لنحارب إسرائيل داخل ميدان واشنطن ، ولقد كنت دائما أقول : إن الحرب الحقيقية بيننا وبين إسرائيل حرب داخل الولايات المتحدة .. داخل دهاليز ومكاتب وعقول واشنطن .

وقال الشاب ساخرا :

– إن إسرائيل أقوى فى واشنطن ، لأنها تستند هناك على قوى الجالية اليهودية ، وهى جالية تسيطر على أقوى الدهاليز هناك .. إلا إذا استطاعت دول البترول أن تثبت وجودها .

وقال العجوز :

– إن الصهيونية تعتمد على قوة التنظيم داخل أمريكا ، والدول العربية برغم حاجة أمريكا إليها ليس لها فى أمريكا تنظيم قوى ولا حتى خارج أمريكا .

وقال الشاب وعيناه تطلان إلى بعيد كأنه يبحث عن المجهول :

– ربما لهذا يتعمد السادات توطيد علاقته الشخصية برؤساء أمريكا ومراكز القوى فيها حتى يتغلب على نقص وجود تنظيم سياسى عربى قوى داخل أمريكا .

وقال العجوز :

– هذا صحيح . اطلب لنا الشاى .

وقال الشاب :

– من الأفضل أن نطلب كوكاكولا حتى نعيش مع ما يجرى فى أمريكا :

وقال العجوز ضاحكا :

– حتى تفهم أمريكا ، اشرب (خروب) .. لا يفهم أمريكا إلا البلدى .

٢

قال الشاب وعلى شفتيه ابتسامة تفاؤل :

– بعد كل هذا الإلحاح وبعد كل هذا العطاء أعتقد أن أمريكا ستقف معنا .

وقال العجوز فى برود :

- إن أمريكا لا تقف معنا ولا مع إسرائيل . إنها تقف دائما مع مصالحها .

وقال الشاب المتفائل :

- لا شك أن نسبة المصالح الأمريكية مع مصر أصبحت أعلى من نسبة مصالحها مع إسرائيل .

وقال العجوز ساخرا :

- هذا ما كنا نعتقده (زمان) منذ قامت (ثورة ٢٣ يوليو) هل تعرف أن أمريكا كانت أول دولة ساندت ثورة ٢٣ يوليو ضد تدخل الإنجليز ؟ وهل تعرف أنه كان لها فضل كبير فى الضغط على بريطانيا حتى تم الجلاء عن مصر عام ٥٤ ؟ وهل تعرف أنها هى - أمريكا - التى حققت انسحاب القوات المعتدية البريطانية ، والفرنسية والإسرائيلية عن مصر عام ٥٦ ؟ لاشك أن صداقة أمريكا كان لها الفضل فى تاريخ مصر ، ولكنها صداقة كانت لها حدود مرسومة ، وعندما حاولت مصر تعدى هذه الحدود (تبخرت) الصداقة الأمريكية وألقت بنا فى المحيط السوفيتى !

وقال الشاب فى تساؤل :

- كيف (تبخرت) هذه الصداقة ؟ ولماذا ؟

وقال العجوز فى حسرة :

- لأننا طلبنا أسلحة ، وقلنا أيامها : إننا نريد الأسلحة لمجرد الدفاع عن أنفسنا ، ولكن كلمة الدفاع عن النفس لم يعد يصدقها أحد ، إن هتلر اجتاح أوربا كلها بحجة الدفاع عن ألمانيا ! ونحن لاشك كنا نريد أسلحة لنضرب بها إسرائيل .. حتى لو كان ضرب إسرائيل هو فى الواقع دفاعا عن أنفسنا وليس اعتداء .. ورفضت أمريكا أن تمدنا بالسلاح .. وكنا أيامها فى حالة نشوة بحريتنا وقوتنا .. نشوة وصلت بنا إلى حد الغرور .. فأدرنا ظهرنا لأمريكا لنشترى السلاح من روسيا .. وياداهية دقى ! انقلبت كل الدواهى الأمريكية على رؤوسنا !

وقال الشاب فى حيرة :

- ولكننا نطالب أمريكا الآن بأسلحة ونقول : إننا نريد الأسلحة لنجدة أصدقائنا فى الصومال وتشاد والدول الأفريقية .

وقال العجوز :

- سيبقى الشك دائما فى أن مصر قد توجه هذه الأسلحة إلى إسرائيل .

وقال الشاب :

- يبقى الشك حتى بعد كل هذه الصداقة التى قدمها السادات ؟

وقال العجوز فى حسرة :

- إذا وثقوا فى السادات فمن يدريهم ماذا يمكن أن يحدث بعد السادات ؟!

وقال الشاب الحائر :

- والنتيجة ؟

وقال العجوز :

- إنهم قد يعطوننا أسلحة تصلح للقتال فى افريقيا ولا تصلح للقتال فى إسرائيل : أى يظلون محتفظين بارتفاع نسبة قوة الضرب الإسرائيلية . وهم يدخلون فى حساب قوة الضرب عدد سكان كل من الطرفين : إسرائيل ٣ ملايين والعرب مائة مليون ، فيجب أن ترتفع نسبة تسليح إسرائيل إلى ٩٧ فى المائة عن نسبة تسليح العرب : مائة مليون بندقية إسرائيلى فى مقابلة مائة مليون مواطن عربى .

وصرخ الشاب :

- لا يمكن ، هذا كلام تخريف ، أنت تتحدث حديث المتشائمين مع كل عناصر التفاؤل التى أصبحت تحيط بنا وآخرها زيارة السادات لأمريكا وكلامه هناك .. وقال العجوز مبتسما فى مرارة :

- إنى أخرف فعلا ، ولكن عذرى أنى أسترجع الماضى عندما كانت الزيارات تتم بيننا وبين موسكو والكلام الحلو نتبادله مع موسكو .. ثم حدث ما حدث بيننا وبين موسكو .. لقد مرت أيام كان أنور السادات يقف وحده متمسكا بصداقة موسكو ضد الشعب المصرى كله .

وبرغم ذلك حدث ما حدث .. إن الصداقة الدولية لا تقوم على الصداقة الشخصية ولا على تبادل الزيارات والكلمات ، ولكنها تقوم على تبادل المصالح . وقد كانت مصالح موسكو معنا أكبر وأوسع من مصالح أمريكا ؛ لأن موسكو جديدة فى المنطقة وهى مضطرة أن تدفع أكثر لاكتساب صداقتنا وبرغم ذلك فقد كان ما تدفعه لا يكفى حل مشكلتنا مع إسرائيل ولا تحرير أرضنا ؛ لأن مصالحها لم تكن تصل إلى هذا الحد .

وقال الشاب فى سخط :

– أى أن ما حدث مع الروس قد يتكرر مع الأمريكان .

وقال العجوز وهو يهز رأسه نافيا :

– وقد لا يتكرر ، ولكننا إلى اليوم يجب أن نعيش على حذر .. قل : (٧٠٪ حذر و٣٠٪ تفاؤل) ولا تستعمل كلمة تشاؤم .

وقال الشاب متململاً :

– إن حديثك اليوم حديث متعب .. يملأ البطن ولا يشبع ! سأنتقل إلى مقهى حزب الوفد ، لعلى أسمع هناك كلاما يريحنى .

وقال العجوز مبتسما :

– من فضلك لا تنس أن اسم الحزب هو « حزب الوفد الجديد » .

وقال الشاب ضاحكا :

– إن كلمة « الجديد » تذكرنى بإعلانات الأدوية المقوية أو فيتامينات استعادة الشباب كفيتامين « هـ ٣ » فليس فى الحزب وجه جديد إلا إذا كانوا يقصدون تجديد الشباب !

وقال العجوز مرددا ضحكة الشاب :

– اذهب إليهم فسترتاح لأنهم كلهم متفائلون :

وقال الشاب :

– ما سر تفاؤلهم ؟

وقال العجوز وهو ينظر إلى الشاب كأنه يتهمه فى ذكائه :

– صداقة أمريكا .. وأنت فاهم وأنا فاهم !

٣

قال الشاب وعلى شفتيه ابتسامة تفاؤل :

– دعنا نعترف الآن بأن مصر أصبحت دولة ديمقراطية فعلا .

وقال العجوز بلا حماس :

– تقصد بعد السماح بإقامة حزب الوفد :

وقال الشاب فى حماس :

– مادام قد سمح بقيام هذا الحزب فهذا يعنى أن كل النظام أصبح نظاما ديمقراطيا .

وقال العجوز :

– إننا نعرف كيف قام حزب الوفد ؟ ولكننا إلى الآن لا نعرف كيف قامت الأحزاب الثلاثة الأخرى ؟ ليس هناك مبدأ قامت على أساسه ! وليس هناك مجرد تاريخ شعبى أو ثورة شعبية فرضت وجود هذه الأحزاب ؟ إنما هى مجرد تشكيلات رسمية : كتشكيل فرق الجيش أو فرق البوليس .. وقد بدأ هذا التشكيل فى صورة ندوات ، ثم قررت الدولة أن تقلب صورة الندوات إلى صورة أحزاب .

وقال الشاب متهكما :

– وكيف قام حزب الوفد الجديد ؟

وقال العجوز فى هدوء :

– قام على أساس القانون الذى صدر بتكوين الأحزاب ، والأهم من ذلك أنه قام على أساس تاريخ سياسى يمثله أعضاؤه المؤسسون ، وهذا التاريخ هو ما يغفر لهم أنهم كلهم من العجائز ، برغم أن معظمه تاريخ يناقض ثورة ٢٣ يوليو .

وقال الشاب :

– إن الأحزاب الثلاثة .. حزب مصر وحزب الأحرار وحزب التجمع هى التى تمثل (ثورة ٢٣ يوليو) فالثورة قامت على وحدة اليمين واليسار والوسط ، وكان أعضاء مجلس قيادة الثورة المؤسسون يمثلون كل المذاهب : يمثلون الماركسية وفى الوقت نفسه يمثلون الإخوان المسلمين ، فالأحزاب الثلاثة تقدمت إلى الانتخابات باسم الثورة .

وقال العجوز فى برود :
– من الذى رشحهم للتقدم للانتخابات ؟
وقال الشاب :
– قيادة الثورة .
وقال العجوز مبتسما :
– وقد أصبحت الثورة دولة : أى أن الذى أقام هذه الأحزاب ورشح أعضاءها هى الدولة .. أحزاب رسمية .. حتى الحزب الشيوعى الذى يرأسه خالد محيى الدين يعتبر ممثلا للماركسية الرسمية .. أو هكذا كان يقال عنه .
وقال الشاب :
– ذكرتنى بمشكلة تحيرنى : إن قانون الأحزاب ينص على أن ينضم للحزب عشرون عضوا من أعضاء مجلس الشعب وحزب التجمع الماركسى لا يضم إلا اثنين أو ثلاثة من أعضاء المجلس ! فما هو وضعه؟ هل يحل ؟
وقال العجوز بعد فترة تفكير :
– لا أظن .. إن شرط العشرين عضوا هو شرط التأسيس ، أو هو أقرب إلى شرط الترشيح : أى أن عشرين عضوا يرشحون هذا الحزب للوجود ، وبعد أن يوجد الحزب فقد يستقيل منه هؤلاء العشرون أو بعضهم وبرغم ذلك يظل الحزب قائما .. أى لو استقال النواب الذين انضموا إلى حزب الوفد لما انحل الحزب وبقى كما هو ، ثم إن حزب التجمع الماركسى قام قبل صدور قانون الأحزاب فلا يمكن أن ينطبق عليه هذا الشرط .
وقال الشاب :
– لماذا تسميه حزب التجمع الماركسى .. إن اسمه التجمع الوحدوى .
وقال العجوز مبتسما :
– إنى أسميه بالاسم الذى يتمناه له أعضاؤه ولا يجرؤون على تحقيق أمنيتهم ، لأن الدولة لا تسمح لهم بها ، وهو حزب قام باسم الدولة .

وقال الشاب المتحمس :

خلاص ! انتهت أحزاب الدولة .. مادام قد قام حزب كون نفسه ولم يعتمد على الدولة فكل الأحزاب ستتحرر مثله من الانتساب للدولة .. مجرد قيام حزب الوفد سيحرر كل الأحزاب .

وقال العجوز :

– ماعدا حزب الأغلبية .

وقال الشاب محتجا :

– ولماذا !

وقال العجوز :

– لأن الأغلبية هى التى تحكم .. والحكم تتغلب عليه الصفة الرياسية .. أى أنه حزب الرياسة .. رياسة الجمهورية فلا يمكن أن يعارض نفسه .. إنما تترك المعارضة للأقليات .. وتبقى دائما معارضة استعراضية لا أمل لها فى تولى الحكم ولا فى إسقاط الحكم .

وقال الشاب :

– أى أن الوفد لن يصل إلى الحكم أبدا .

وقال العجوز الهادىء :

– لا يمكن أن يصل إلا إذا انقلبت الديمقراطية الرياسية إلى ديمقراطية برلمانية ، أو إذا رشح فؤاد سراج الدين نفسه بعد ست سنوات رئيسا للجمهورية .

وقال الشاب فى ذهول :

– هل يمكن أن يحدث هذا ؟

وقال العجوز كأنه يسخر من نفسه :

– لا يمكن ! إن مجلس الشعب هو الذى يرشح رئيس الجمهورية للاستفتاء الشعبى ، وأغلبية المجلس كما قلت لك أغلبية رسمية .

وقال الشاب :

– قد يستطيع الوفد أن يجذب عددا أكبر من أعضاء حزب الوسط والأحزاب الأخرى كما جذب العشرين عضوا المؤسسين ، وفى هذه الحالة يمكن أن يرشح وفدى لرياسة الجمهورية .

وقال العجوز ساخرا :

– لا يمكن ! سيبقى حزب الأغلبية داخل المجلس مجمدا فى قالب الأغلبية ضمانا لاستمرار الاستقرار .. أقصد استقرار الحكم .

وتساءل الشاب :

– ذكرتنى .. لقد قسمت الأحزاب تقسيما رسميا إلى يمين ويسار ووسط فأين يوضع الوفد الجديد بعد أن أضيف إليها ؟

وقال العجوز ضاحكا :

– إنه سحابة تطفو فوق اليمين وفوق الوسط وتمطر فوق رءوس اليسار !

وقال الشاب الحائر :

– لا أفهم .

وقال العجوز ضاحكا :

– لا يهم الفهم ، ولكننا سنعيش كلاما كثيرا ممتعا مسليا .. والمقهى السياسى سيمتلىء بالحركة والنشاط والكلام .. ويصبح لدخان الشيشة طعم جديد ولون جديد .. سنعيش فى دخان .. سنتنفس دخانا.. ناد الجرسون يا ابنى ، فالشيشة فى حاجة إلى نار قبل أن ينطفىء الدخان .

٤

قال الشاب وهو يرفع عينيه الحائرتين إلى العجوز :

– أحيانا يتكرر الحدث الواحد فى بلدين وأتحير : هل هى مجرد صدفة أو أنه تخطيط متفق عليه ؟

وقال العجوز وهو يبتسم فى حنان :

– مثل ماذا ؟

وقال الشاب الحائر :

– مثل ما حدث فى السودان ومصر :

فى السودان فوجئنا بعودة الصادق المهدى إلى ممارسة حريته السياسية وإلى إعلان تضامنه مع الرئيس نميرى وتحقيق ما يسمى « الوحدة الوطنية » حدث هذا فجاة بعد أن كان الصادق المهدى محكوما عليه بالإعدام وهاربا فى لندن ، وبعد المعارك المسلحة العنيفة

التى دارت بين المهدية ونظام الحكم .

وفى مصر أيضا فوجئنا بعودة الوفد مستكملا كيانه الحزبى بعد أن كانت الثورة قد ألغته ، وبدأ فؤاد سراج الدين يمارس كل نشاطه السياسى بعد أن كانت الثورة قد ألغته هو أيضا وحكمت عليه وعلى بقية الأعضاء والمؤسسين بالسجن مددا مختلفة ، بل أيضا بعد أن أكد الرئيس السادات أن الأحزاب القديمة لن تعود .. فماذا حدث حتى يعود حزب الوفد المصرى وحزب الأمة السودانى إلى الحياة السياسية فجأة وفى وقت واحد ؟ هل هى صدفة ، أو هو تخطيط ؟

وقال العجوز مبتسما :

– إنه تخطيط مشترك ، ألم تسمع عن التكامل بين مصر والسودان؟

وقال الشاب الحائر :

– ولكن ما الذى يدعو الآن إلى إقامة الأحزاب وإطلاق حريات الشخصيات السياسية حتى لو افترضنا أن ذلك يتم بحجة التكامل ؟

وقال العجوز :

– إنه نوع من إعادة بناء النظام الداخلى حتى يصبح أكثر تجاوبا مع التطورات التى حدثت فى الارتباطات الخارجية .

وقال الشاب ساخرا :

– ماذا حدث فى الارتباطات الخارجية ؟

وقال العجوز :

– كنا مرتبطين بروسيا ، وأصبحنا مرتبطين بأمريكا .

وقال الشاب محتدا :

– ماذا تعنى ؟ هل تعنى أننا عندما نرتبط بروسيا نعيش النظام الروسى ، وعندما نرتبط بأمريكا نعيش النظام الأمريكى ؟

وقال العجوز فى هدوء :

– تقريبا .. روسيا تستريح فى تعاملها مع نظم تعتمد على حكم التنظيم الواحد ، وإذا لم يكن تنظيم حكم البروليتاريا يكون تنظيم الحكم العسكرى .. وأمريكا تستريح إلى التعامل مع النظم المتعددة الأحزاب والمتعددة القنوات .. ولو كانت مصر والسودان لا تزالان مرتبطتين بروسيا لما ظهر فى الجو السياسى فؤاد سراج الدين ولا الصادق المهدى .

وقال الشاب فى سخط :
- أى أننا نتلقى الأوامر من أمريكا .. وفؤاد سراج الدين والصادق المهدى عادا بناء على طلب أمريكا !
وقال العجوز كأنه يصد كارثة :
- لا تكن بهذه السذاجة وهذه السطحية ! إن أمريكا لا تصدر أوامر ونحن لا نتلقى أوامر ، ولكنه نوع من الانعكاس السياسى على الدول الصغيرة .
وقال الشاب ساخرا :
- على كل حال .. لا أعتقد أن هذه التغييرات كانت فى مصلحة التكامل بين مصر والسودان ، لابد أنك عرفت أول ما ترتب على عودة الصادق المهدى إلى العمل السياسى فى السودان : لقد تمت إعادة العلاقات بين السودان وليبيا وتبادلا الوفود السياسية مع القبلات وقصائد الغرام . فى حين أن مصر وليبيا لا تزالان تعيشان عصر الشتائم الإذاعية والعلاقات بيننا زفت .. والسودان بدأ يقيم علاقات ودية مع الحبشة فى حين أننا نرسل أسلحة إلى الصومال ! وبدأ السودان يقوم بدور وسيط الخير بين تشاد والقذافى فى حين أننا أعلنا استعدادنا لنمد حكومة تشاد بالمعونات العسكرية لنرد على هجمات القذافى ! كل هذه خلافات فى المواقف بين مصر والسودان .. وبعد ذلك نتحدث عن التكامل بين البلدين !
وقال العجوز وهو ينظر إلى الشاب فى رجاء كأنه يتوسل إليه أن يفهم :
- كل هذه التفاصيل لا تمس المبدأ العام الذى يحدد موقف الدولة .. إننا مثلا فى قمة التوافق الدولى مع المغرب : أى أن مصر والمغرب يتخذان اتجاها دوليا واحدا وموقفا واحدا ، ومع ذلك فقد عقدت المغرب أكبر صفقة تجارية عالمية مع روسيا لاستغلال مناجم الفوسفات فى حين أننا لا نستطيع أن نتعامل مع روسيا ولو بمليم واحد .. وبالعكس.. إننا على خلاف مع الجزائر فى موقفنا بين روسيا وأمريكا.. مفروض أن الجزائر تتخذ خطا ضد الاتجاه الأمريكى ، وبرغم ذلك فبينها وبين أمريكا اتفاقيات ضخمة منها اتفاقية استغلال

الغاز الطبيعى التى يعتمد عليها الكيان الاقتصادى الجزائرى ، ونفس الشىء بالنسبة لليبيا .. لا تنس أن الدولارات التى يدفعها القذافى لروسيا ليشترى بها السلاح دولارات تدفعها أمريكا للقذافى ثمنا للبترول ، حتى أصبح العالم يردد نكتة سياسية تقول : إن أمريكا تدفع الدولارات للقذافى ليشترى بها أسلحة من روسيا ، ثم ترد روسيا هذه الدولارات إلى أمريكا بأن تشترى منها القمح ! أى أن القذافى يعيد ثمن البترول إلى أمريكا .. وكل هذه تفاصيل لا تمس الموقف الدولى العام للدولة وليس فى العالم العربى كله دولة تباعدت عن روسيا تباعدا تاما إلا مصر والسودان ، وليس فيه دولة تباعدت عن أمريكا تباعدا تاما إلا اليمن الجنوبية .. وربما بدأ السودان يعيد اتصالاته بروسيا مادام قد أعاد اتصالاته بالقذافى . ومن يدرى ؟ ربما بدأت مصر أيضا تراجع اتصالاتها مع روسيا قل : إن شاء الله .

وقال الشاب وهو يرفع رأسه فى غرور :

– لا تنس أن مصر هى مركز القيادة التأثيرية فى المنطقة .. ومسئولية القيادة تختلف عن مسئولية الدول الأخرى .. إنها مسئولية متعبة قاسية تفرض من التضحيات أكثر مما تجنى من ثمرات !

وقال العجوز متنهدا فى حسرة :

– إن قيادة مصر قدر مكتوب عليها وليست اختيارا .. والخطأ الذى يقع فيه من يحكم مصر هو أن يتصور أنه صنع هذه القيادة لا أنها قيادة فرضت عليه وعلى كل من يحكم مصر .. وهذا الخطأ هو الذى يؤدى إلى كثير من النكبات .. اطلب لى كوب شاى حتى أنسى أنى أحد أبناء مركز القيادة .

وقال الشاب مشفقا :

– إن الشاى لا يساعد على النسيان .

وقال العجوز :

– لم نصل بعد إلى حالة النسيان اعتمادا على الحشيش !!

مـارس ١٩٧٨

١

قال العجوز مقاطعا الشاب :

– إن مسـئولية قبـرص عما جرى ليست أهم ما فى الموضوع .. الأهم هو اكتشاف من هم وراء قبرص ؟ هل وراءها سـوريا أو العـراق أو ليبـيـا أو روسـيـا ؟ ولكى نكتشف من هم وراء حكومة قبرص يجب أن نكتشف أولا من هم وراء الاثنين القاتلين ؟

وقال الشاب فى عصبية :

– ولكن ما هى مصلحـة قبرص لتتخـذ هذا الموقف فى خدمة طرف ثالث ؟

وقال العجوز فى قرف :

– هل تسمع عـن المرتزقة ؟ إن المرتزقة ليـسوا الأفـراد فقط ، ولكن أصبـحت هناك دول تعيش كـدول مرتزقـة ، وأصبـحت هناك سيـاسة تسمى سياسة الارتزاق ، وأشهر دولة مرتزقة الآن هى كوبا : إن كوبا ترسل قواتها لتقاتل فى أفريقيا لا لأن لها مصلحة مباشرة مع أية دولة أفريـقيـة ، ولكن لأن لها مـصلحة مـباشـرة مع روسيـا ، فهى تقـاتل لحسـاب مـوسكو ونظير أتعاب تتقاضـاها من موسكو ! وهذه هى الآن سياسة الدولتين العظميين روسيا وأمريكا سياسة الاعتماد على الدول المرتزقة : فالدولة لا تحارب بقواتهـا ، ولكنها تحارب بقوات تتبع دولة مرتزقـة ؛ كمـا تحارب روسـيا بقـوات كوبا فى الحـبشـة ، وسبق أن حاربت بالقـوات المصرية فى الكونغـو أيام جمال عـبد الناصـر ، كانت

مصر أيامها تحارب كدولة مـرتزقة لحساب موسكو ، وقد بدأت أمريكا فى الاعتمـاد على الدول المرتزقة بعد روسيـا وبعد هزيمتهـا فى فيتنام نتيـجة اعـتمـادها على قواتهـا الخاصـة .. والارتزاق لا يعنى أن تدفع الدولة الكبرى للدولة المرتزقـة اقتصاديا فحسـب ، فكما قلت لك أصبح هناك الارتزاق السياسى كمـا هو الوضع بالنسبة لليبيا مثلا فـإن ليبيا تقف بجـانب مـوسكو فى حـرب الحبـشـة كدولة مـرتزقـة ولكن كل ما ترتزق به هو اسـتمرار حصـولها على السلاح السوفـيتى الذى عن طريقه تسـتطيع أن تحقق أحـلام الرئيس القذافى بالوصـول إلى القوة التى تفرض زعامته على العالم العربى ! وذلك برغم أنها تدفع ثمن هذا السلاح ! وهى تحـافظ على هذا الارتزاق السياسى من مـوسكو ؛ لأنها تخـشى أن تقطع موسكو عنـها السـلاح كمـا فعلت مع مـصر عندمـا تحـررت مـصـر من الارتزاق السـيـاسى مـن مـوسكو واتجـهت إلى واشنطن.

وهناك ما هو أكثر من ذلك : فـقد وصل الارتزاق إلى حد أن أصبح هناك رؤسـاء دول يتقـاضون عـمولات خـاصـة نقدية عن كل مـوقف سياسى أو عسكرى يتخذه وقـيل هذا الكلام عن كثير من الزعماء ! ألم تسـمع عن قـصة الرئيـس الأفريقى الذى اسـتطاع أن يجـمع مـلايين الدولارات ثم ضاعت منه كلها ؟

وقال الشاب وهو مبهور بما يسمع :

– لا ..

وقال العجوز ساخرا :

– إن أحد الزعماء السابقين جمـع أكثر من خمسة ملايين دولار عن طريق الارتزاق السياسى ، وكان يحتفظ بها خارج بلده بواسطة صديق لبنانى يثق فيه ، وفجأة قامت ثورة على الثورة وقتل هذا الزعيم ، وإذا بهذه الملايين تصبح ملكا لهذا الصديق اللبنانى ، ولا أحـد يستطيع أن يطالبه بها لأنه لا أحد يعرف سرها !

وقال الشاب المبهور :

– وماذا فعل الرجل اللبنانى بهذه الملايين ؟

وقال العجوز ضاحكا :

– كـمـا هى العـادة ! إنه الآن أحد كـبـار رجال الأعـمال فى البـلاد

العربية وأحد كبار السياسيين داخل لبنان .. المهم .. نعود إلى قبرص .. قد يكون الرئيس القذافى قد دفع لقبـرص ملايين أغرتها بأن تأخذ هذا الموقف .. وقد تكون سوريا قد أغـرتها بالوقوف بجانبها سيـاسيا ضد تركيا .. وقـد تكون روسيا قد أغـرتها بصفقـة أسلحة .. لا بد أن هناك مصلحة دفعتها إلى أن تتخـذ هذا الموقف حتى لو كانت مصلحة خاصة لواحد من الناس .

وقال الشاب وهو فى شك :

– ما الذى يجعلك متيقنا إلى هـذا الحد من أن قبرص تعمل لمصلحة طرف ثالث ؟

وقال العجوز مؤكدا :

– تفاصـيل العمليـة نفسهـا تؤكد ذلك : فـإن قبرص لم تـكن تهتم بنزول القوات المصـرية على أرضها ، ولم تكن تعـتبر ذلك اعـتداء على سيادتها ولا تدخلا فى شئونها بدليل أنها سمحت للطائرة العسكرية أن تنزل على أرضهـا . ثم سمحت للـطائرة بمن فيهـا أن تبقى على أرض المطار ساعـة ونصف ساعـة .. ولم تتدخل قبـرص وتحرك قـواتها إلا عندما همت القوات المصرية أن تقبض على الإرهابيين .. كان كل ما يهم قبرص ألا تقبض مصر على هذين الإرهـابيـين .. لماذا ؟ .. لماذا تحميهما قبـرص ؟ إنهـما مـجرمان يـحكم عليهـما بالإجـرام فى أى بلد ! ولكن حكومة قبرص لم يكن يهمها الحكم سواء كان بالبراءة أو الإعدام ولكن كان ما يهـمها هو التحقيق الذى يسـبق الحكم فلو حققت مصر مـعهما فقـد تكتشف شخـصية الطرف الثـالث الذى يحركـهما ، وقـد تكتشف العلاقـة بين هذا الطرف الثالث وحكومة قـبرص : أى أن قبـرص كانت تحمـى نفسـها بحـماية هذين الإرهابيـين ، لو قبض عليـهمـا لانكشف سرها !

وقال الشاب فى يأس :

– والنتيجة ؟

وقال العجوز ساخطا :

– النتيـجة أن حكومـة قبرص مـرتزقة ترتزق من عملـية إرهابية كـما يرتزق أى إرهابى .. وقد خسرت قبـرص فى هذه العملية أكثر مما ارتزقت به ؛ لأنه ليـست مـصر وحـدها التى سـتـعرف السـر ، ولكن العـالم كله سيعرفه.. وإلى أن نعرف السر دعنى أستريح بين أنفاس الشيشة.

٢

قال الشاب الحائر :

– ماذا يعنى بالضبط ما يسمى قطع العلاقات الدبلوماسية ؟

وقال العجوز ساخرا :

– يعنى أن تقول لصديقك : أنا مخاصمك ما تكلمنيش !

وقال الشاب فى قرف :

– وقد خاصمنا فى الشهور الأخيرة عددا كبيرا من الأصدقاء .. خمسة أو ستة .. أو ربما أكثر ولا أدرى لماذا نصل إلى حد الخصام ؟

وقال العجوز وهو يبادل الشاب حالة القرف :

– لأننا لا نقدر ولا نفهم مقدرات حالة قطع العلاقات الدبلوماسية .. إننا نقطع العلاقات كصورة من الانفعال النفسى ، أو تعبير عن حالة عصبية قد يكون سببها كلمة قيلت أو عملية لم تعجبنا .. فى حين أن المعنى الحقيقى لقطع العلاقات لا يتأكد إلا فى حالة الحرب أو التمهيد لحالة الحرب .

وقال الشاب فى دهشة :

– أى أن ما حدث بيننا وبين دول الرفض العربية أو بيننا وبين قبرص لم يكن يستحق أن نبدأ من جانبنا بقطع العلاقات الدبلوماسية .

وقال العجوز وهو يدق على المائدة بقبضة يده ليؤكد إصراره على رأيه :

– أبدا .. كلها حركات انفعالية وقد خسرنا فى كل دولة من هذه الدول مركزا هاما يخدم مصالحنا وسياستنا : فالسفارة فى أية دولة هى فى الواقع مركز عمل داخل هذه الدولة .. يمدك بالمعلومات الصحيحة ، ويكسب لك الأصدقاء ويحذرك من الأعداء ، ويصحح أخطاء الماضى ، ويخطط للمستقبل .. إن كيانك كله داخل هذه السفارة ، وهو كيان تحميه القوانين والتقاليد الدبلوماسية ويفتح مجالات أوسع مما يفتحها أى وضع آخر .. فإذا أغلقت هذه السفارة وسحبت رجالك من هذا البلد فقدت كل هذه المجالات وكل هذه التسهيلات التى تكفل لك حرية الحركة .. وأصبحت فى الموقف الأضعف بالنسبة لهذا البلد وبالنسبة لتقديرك الدبلوماسى بين دول العالم .. العالم سيحكم عليك

بأنك دبلوماسى عصبى لا تستطيع أن تحتمل طويلا .
وقال الشاب كأنه يلوم العجوز :
- ولكن هذه الدول التى تسمى نفسها دول الصمود أو دول الرفض اتخذت قرارات تمس كيان مصر وأطلقت كلمات جارحة للقيادات المصرية .
وقال العجوز بسرعة :
- كان يمكننا أن نتخذ قرارات أعنف وأرذل وكان يمكننا أن نطلق كلمات ضد قياداتهم ردا على كلماتهم ونبقى فى الوقت نفسه محتفظين بسفاراتنا عندهم لنتخذ من كل سفارة مركزا لتقديرنا .
وقال الشاب فى تحد :
- وقبرص .
وقال العجوز :
- إن قطع العلاقات الدبلوماسية مع قبرص لن يلغى الجريمة التى وقعت .. وإذا كنا قد بقينا هناك استطعنا تقدير موقفنا أسهل من الاعتماد على الاتصالات الجانبية والتحتية .
وقال الشاب وحماسه يشتد به إلى حد الصراخ :
- لا ، كان يجب قطع العلاقات مع كل هذه الدول حتى نرد الصفعة بصفعتين .
وقال العجوز وهو ينظر إلى الشاب كأنه يرثى غباءه :
- إن قطع العلاقات لا يعتبر ردا للصفعة ولكنه هروب من الصفعة والعلاقات دائما تعود والعاقل هو الذى لا يقطعها حتى لا يضطر أن يعود .. انظر إلى السودان مثلا : كان قد قطع علاقاته مع ليبيا بعد أن قامت حرب مسلحة بينهما ، ثم عادت أخيرا العلاقات لمجرد تدخل شخص ثالث بينهما ، وعادت العلاقات حتى بين ليبيا وتشاد ، لم تعد هناك دولة مقطوعة العلاقات الدبلوماسية مع أكثر من ست دول غير مصر .
وتوقف العجوز عن الكلام وبدأ يضحك بصوت عال .
وسأله الشاب فى دهشة :
- لماذا تضحك ؟
وقال العجوز فى لهجة ساخرة :

– على ذكر السودان تذكرت موضوع الصومال وأثيوبيا .. لقد بدأنا بأن اتخذنا موقفا بجانب الصومال ضد أثيوبيا .. كنا نحارب مع الصومال أو على الأقل كنا نمده بالسلاح .. ولم نكن وحدنا .. كانت معنا إيران والسعودية والسودان .. وقد اتخذنا هذا الموقف بجانب الصومال على اعتبار أننا نقاوم انتشار الشيوعية وامتداد الوجود السوفيتى فى أفريقيا ، ولكن فجأة اكتشفنا أن أمريكا هى أيضا بجانب الحبشة فى معاركها لطرد الصومال من صحراء أوجادين .. فحصلت دهشة .. لا يمكن أن نقاوم روسيا فى الوقت الذى تحالفت فيه مع أمريكا على أرض الحبشة وأوجادين .. وبدأنا نتغير .. كلنا نتغير ! إيران والسعودية والسودان ونحن .. وأصبحنا نقول : إننا نسعى للتوفيق بين الحبشة والصومال وإن الطريق يجب أن يعتمد على المفاوضات بين الطرفين تماما كما نقول عما بين مصر وإسرائيل .

وقال الشاب المذهول :

– ولكن لماذا تتخذ أمريكا موقفا بجانب أثيوبيا ؟

وقال العجوز :

– لحماية كينيا من أى انتصار صومالى .. وهو موضوع سبق أن تحدثنا فيه على هذا المقهى منذ شهور .. ولو كان أصحاب المكاتب يجلسون معنا على مقهى فى الشارع السياسى لعرفوا كيف يتصرفون !

وقال الشاب ساخرا :

– اعذرهم .. إن هذا المقهى متأخر حضاريا لا يبيع السفن آب ولا الكوكاكولا ولا السجاير المارلبورو ولا الهوت دوج ولا الفودكا الروسية ولا سيجار هافانا ، فكيف تطلب منهم أن ينزلوا إليه ؟ لنشرب كوب خروب ..

وقال العجوز :

– أفضل عصير القصب إنه يذكرنى بالمجد القديم .

٣

قال الشاب فى زهق :

– كلنا حائرون ضائعون ! . هل نعيش السلام أو نعيش الحرب ؟

إذا افترضنا أننا مقتنعون بمبادرة السلام التى أعلنها السادات فنحن أيضا مقتنعون بالعمليات الفدائية التى يقوم بها الفلسطينيون داخل إسرائيل .. فهل أقوم من هنا وأفتح كتابا لأدرس فلسفة السلام المصرى الإسرائيلى أو أقوم لأقف فى معسكر تدريب على إطلاق النار ؟

وقال العجوز فى هدوء :

– لا تعارض بين الحرب والدعوة للسلام .. مادام السلام لم يتحقق فالحرب قائمة ومستمرة حتى مع وقف إطلاق النار ! وكما قلت لك : هذا ما كان يحدث خلال حرب فيتنام : كانت المعارك دائرة حين كان الأمريكان والفيتناميون مجتمعين فى جنيف للتفاوض من أجل السلام ! بل إن الحرب كانت تستخدم بينهما كلغة للمخاطبة : فإذا اشتد الجانب الأمريكى فى مطالبه وهو فى جنيف قامت القوات الفيتنامية بعملية عسكرية كبيرة داخل فيتنام ، وبالعكس : إذا تشدد الجانب الفيتامى قام الأسطول أو الطيران الأمريكى بغارة رهيبة على فيتنام ، كأن كلا منهما يهدد الآخر ، ويستعرض عضلاته خلال المفاوضات !

وقال الشاب ساخرا :

– التشبيه مع الفارق : فالمفاوضات بيننا وبين إسرائيل لا تتم فى جنيف : أى لا تتم فى بلد محايد ، بل تتم فى القدس وفى القاهرة وكأن كلا منا قد استسلم للآخر .

وقال العجوز :

– لم يكن استسلاما ، ولكنه كان حصارا دبلوماسيا فرضته مصر بفكرة أن تبدأ المفاوضات فى القدس حتى تضعف حجة إسرائيل القائمة على المقاطعة العربية .

وقال الشاب مستمرا فى سخريته :

– والحرب : لماذا لم تستمر الحرب مع مفاوضات السلام كما حدث فى فيتنام ؟

وقال العجوز :

– الفدائيون الفلسطينيون يحاربون نيابة عنا .

وصرخ الشاب :

- لماذا لا نحارب نحن لأنفسنا ؟ .. إنها ليست أرض فلسطين وحدها هى المحتلة ، ولكن أرضنا نحن أيضا !

وقال العجوز الهادئ :

- لقد حاربنا العمر كله نيابة عنهم ، فدع لهم شرف الحرب نيابة عنا ولو لفترة قصيرة .

وقال الشاب وقد اشتد به الزهق :

- أريد أن أعلم : ما هو وضعنا مع إسرائيل اليوم ؟ هل نحن فى حالة حرب أو فى حالة سلام ؟

وقال العجوز :

- إنك فى حالة الحرب ولم يجد ما يلغى هذه الحالة ، ولكنها حرب مجمدة نتيجة اتفاقية فك الاشتباك الثانى التى تنتهى بعد بضعة أشهر وبعدها إما أن تحارب وإما أن تمد فترة تجميد نفسك واستمرار نومك فى ثلاجة !

وقال الشاب :

- السادات قال : إنه لا حرب بعد أكتوبر ٧٣ .

وقال العجوز برفق :

- قالها على أساس استعادة الأرض ، فإذا لم يستعد الأرض فقد حررته إسرائيل من وعده .

وقال الشاب الزهقان :

- لا أفهم ! لا أفهم شيئا ! أريد أن أفهم إلى أين أدت بنا مبادرة السلام التى بدأت بزيارة القدس .

وقال العجوز وعلى شفتيه ابتسامة إشفاق :

- لكى تفهم يجب أن نقسم هذه المبادرة ثلاثة عناصر : عنصر لم ينته إلى شىء حتى الآن ؛ وعنصر وصل بنا إلى خسارة محدودة ، وعنصر حقق كسبا كبيرا .

وقال الشاب فى سخرية :

- اشرح لى .. لا فض فوك ! ولا لخبطك كما نحن ملخبطون !

وقال العجوز وهو يشد نفس الشيشة كأنه يستجير به من رذالة الشاب :

- اسمع يا سيدى : العنصر الذى لم ينته إلى شىء ولا يبدو فيه

أمل كبيـر لينتهي إلى شيء هو استعـادة الأرض . لا أرض .. والعنصر الذى وصل بنا إلى خسارة محدودة هو ما يسمى التـضامن العربى .. فالـدول العربيـة منقسـمة إلى رافض ، وإلى ســاكت وإلى مؤيـد .. أما العنصر الذى حـقق ربحا كبـيرا فهو اكـتساب الرأى العـام العالمى كله معنا وإضعاف مركز ومنطق إسرائيل .. وإذا كنا نقول : إن الحرب بيننا وبين إســرائيل تدور الآن داخل أمـريكا ـ فـلا شك أننا كـسـبنا داخل أمريكا أكثر من معركة وإن كانت الحرب هناك لم تنته .

وشد الشاب مبسم الشيشة من يد العجوز قائلا :

– آسف .. إنى محتاج لأشد نفسى أكثر منك .. ولن تهدأ أنفاسى إلا إذا اشتركت فى عملية فدائية داخل إسرائيل .. أقاتل هناك وأترككم هنا تتحدثون عن السلام !

وقال العجوز :

– يا ريت ! يا ريت تذهب وتحارب .

وقال الشاب فى دهشة :

– لماذا غيرت رأيك ؟

وقال العجوز ضاحكا :

– حتى تعيد إلىّ مبسم الشيشة وتريح أنفاسى !

٤

قال الشاب وهو يربت على كتف العجوز كأنه يوقظه :

– سرحت طويلا .. إلى هذا الحد شغلتك أحداث لبنان .

وقال العجوز فى صوت بطىء :

– الذى يشغلنى أكثر أحداث إسرائيل .

وقال الشاب متسائلا :

– ماذا تقصد ؟

قال العجوز وهو ساهم :

– أقـصد أن مـا حـدث فى لبنان عـدل من وضع إسـرائيل تعـديلا أساسـيا : فقـد كانت إسرائيل تعـيش تحت عبء وضـغط هزيمتـها فى (معـركة ٦ أكـتوبر) كانت هذه الهـزيمة هى أقـوى حجة ضـد منطق الحدود الآمنة وضد خـرافة الجيش الإسرائيلى الـذى لا يهزم ! وكانت

إسرائيل تحاول منذ اليوم الأول أن تسقط هذه الحجة وأن تتحرر من عار الهزيمة حتى قيل : إنها كانت تعد هجوما حربيا على مصر سبقه الرئيس السادات بمبادرة السلام ، وقد استطاعت أخيرا بغزو لبنان أن تؤكد أن جيشها لا يتردد في اكتساح أي بلد ؛ ليؤكد نظرية الحدود الآمنة وأنه جيش ينتصر دائما .

وقال الشاب مستنكرا :

– إنه لم ينتصر على دولة عربية ، ولكنه دخل معارك مع فدائيين ومع الثورة الفلسطينية .

وقال العجوز في حسرة :

– إن موقف الدول العربية هو الذي حقق انتصار إسرائيل .

وقال الشاب وهو يبتلع ريقه كأنه يبتلع سخطه :

– ولكن لماذا لم تحارب سوريا لتصد الغزو الإسرائيلي ؟

وقال العجوز وهو يبتسم ساخرا :

– لو كانت سوريا تستطيع أن تحارب إسرائيل لحاربت في الجولان لا في جنوبي لبنان !

وقال الشاب صارخا :

– ولكن الجيش السوري يحتل لبنان فعلا .

وقال العجوز الساخر في أسى :

– إن الحكومة السورية أرسلت قوات إلى لبنان لتشترك في معارك عربية : أي بين العرب بعضهم وبعض ، لا بين العرب وإسرائيل ! وقد حذرتها إسرائيل منذ اليوم الأول من الوصول بهذه القوات إلى جنوبي لبنان ، ووضعت لها خطا أحمر يعزل منطقة من الجنوب عن باقي لبنان ، وكأن إسرائيل قد اعتبرت هذه المنطقة تحت سيادتها من قبل المعركة ! وما دامت سوريا لم تتعد هذا الخط الأحمر فإسرائيل لا تعتبر نفسها في حرب مع سوريا وأنها فقط تطهر منطقة سبق أن استولت عليها فعلا باتفاق مع الحكومة اللبنانية وقوات الردع : أقصد القوات السورية ، حتى لو كان مجرد استيلاء رمزي .

وقال الشاب مندهشا :

– أي أن القوة (الوحيدة) في الجنوب كانت القوة الفلسطينية وحدها .

وقال العجوز :

- تقريبا .. وهى منطقة لم تهدأ قط من معارك بين القوات الفلسطينية والقوات اللبنانية الانعزالية المتحالفة مع إسرائيل .

وقال الشاب المبهور بالدهشة :

- أى أن غزو لبنان لم يكن مفاجأة !

وقال العجوز :

- أبدا ، ليس فيه أى مفاجأة .. كانت إسرائيل تهدد بهذا الغزو علنا ولم تكن تنتظر إلا أن تجد حجة أو مبررا لتحركها .

وقال الشاب المدهوش :

- ولماذا أعطتها منظمة التحرير هذه الحجة أو هذا المبرر دون أن تستعد لهذا الغزو بأن تتفق مع الدول العربية على الإعداد لحماية لبنان ؟

وقال العجوز وهو يهز رأسه كأنه يترحم على نفسه :

- إمّا أن المنظمة تحملت المسئولية وحدها منذ أن بدأت العملية داخل إسرائيل ، وإما أنها أبلغت سوريا مثلا أو ليبيا هذه العملية واعتبرها الجميع عملية بسيطة لن تثير القيادة الإسرائيلية إلى هذا الحد.. والنتيجة أن القوات الفلسطينية وحدها هى التى تتصدى للغزو الإسرائيلى وبرغم أنها استطاعت أن تتخذ مواقف بطولية رائعة ـ لن تستطيع أن تحقق المستحيل .

وقال الشاب فى صوت ساخر :

- المستحيل حققه مجلس الأمن .

وضحك العجوز ضحكة مسكينة :

- قرار آخر كقرار ٢٤٢ سيبقى هتافا نهتف به فى المناسبات !

وقال الشاب وهو يمتص ضحكته الساخرة :

- ومبادرة السلام .

وقال العجوز فى أسى :

- يا ابنى، إن السلام فى هذه البلاد هو أن تعيش فى انتظار الحرب.

وقال الشاب :

- بصرف النظر عن موقفنا نحن فى مصر فهل يمكن أن تستسلم أمريكا لفشل قضية السلام ؟

وقال العجوز :

- انتظر الأيام القادمة : فإذا لم تستطع أمريكا أن تجبر إسرائيل على الجلاء عن جنوبى لبنان فهى طبعا لن تستطيع أن تجبرها على الجلاء عن الأراضى التى سبق احتلالها .. عن سيناء والجولان والضفة الغربية .. وبهذا تستسلم أمريكا للفشل . والسلام عليكم .. سأبقى فى بيتى أسبوعا بعيدا عن المقهى وعن الشارع السياسى حتى لا أتكلم ، فإذا مضى أسبوع ولم تترك إسرائيل جنوبى لبنان فسأعود إلى المقهى لا لأتكلم ، ولكن لأصرخ فى وجه كل من ينطق كلمة عن السلام !

أبريل ١٩٧٨

١

قال الشاب وهو ينظر إلى العجوز فى إشفاق

– لقد قلت : إنك ستصرخ فى وجه كل من يتكلم عن السلام لو مضى أسبوع دون أن تنسحب إسرائيل من جنوبى لبنان .. وقد مضى الأسبوع ولم تنسحب إسرائيل .. وأنت لا تصرخ برغم أن أحاديث السلام لا تزال مستمرة بل حتى سوريا بدأت تتحدث عن السلام !

وقال العجوز فى يأس :

– إنى أكتم صرختى فى صدرى !

وقال الشاب فى حدة :

– لماذا لا تطلقها ؟ إن الصراخ الآن مباح فلا تخف .

وقال العجوز كأنه يشفق على نفسه .

– إن الصرخة لا تنطلق قوية إلا إذا كانت تطالب بشىء، وأنا لم أجد بعد ما أطالب به، وفى صدر كل منا صرخة لا تنطلق، لأنه ليس بيننا من يملك الحل ! الصراخ المكتوم ليس فى مصر وحدها، ولكنه فى العالم العربى كله : كل فرد من الشعب العربى يحمل فى صدره صرخة مكتومة، لأن كل واحد من الناس أو كل دولة تعيش مشكلة لاتجد لها حلا !

وصرخ الشاب فى غضب :

– لاتقدنى إلى اليأس ! إنك تردد كلمة سعد زغلول عندما قال

« مافيش فايدة ! » وقد قالها وهو عجوز مثلك، إن العواجيز هم دائما دعاة اليأس .

وقال العجوز وهو يبتسم ابتسامة مسكينة :

– لم يثبت تاريخيا أن « سعد زغلول » قال مافيش فايدة .. وبرغم ذلك فحاول أنت أن تقنعنى بالأمل .

وقال الشاب فى حماس :

– إن الأمل كبير فى موقف أمريكا وفى موقف الرئيس كارتر .. إنى أثق فى الرئيس كارتر !

وقال العجوز وهو يتنهد كأنه يزفر صرخته :

– يا بنى ، حتى الدولة العظمى يمكن أن تهزم : لقد هزمت أمريكا عسكريا فى فيتنام ! وأعتقد أن إسرائيل هزمتها سياسيا ، ونحن نثق فى كارتر كما وثقنا قبله فى نيكسون وفى فورد والثلاثة هزموا سياسيا ..

وقال الشاب وقد بدأ يتعثر فى كلماته :

– أمريكا أجبرت إسرائيل على الانسحاب فى الاشتباك الأول (والثانى) الذى انتهى إلى فتح قناة السويس وإعادة الحياة إلى مدن القناة .

وقال العجوز ساخرا :

– لم تكن هذه معركة سياسية، ولكنها كانت معركة عسكرية، وما وصلت إليه أمريكا هو فرض الهدنة المسلحة بيننا وبين إسرائيل، وبعد هذا بدأت المعركة السياسية ومن يومها والهزائم تتكرر هزائم أمريكا وكل رؤساء أمريكا، هزائم فى مواجهة إسرائيل سياسيا .. ويجب أن نعتبرها هزائم ما دمنا نثق فى الموقف والتصريحات الأمريكية .

وقال الشاب كأنه يتعلق بالأمل :

– لا تنس أن أمريكا استطاعت أن تجبر إسرائيل على الانسحاب عام ١٩٥٦ وصرخ العجوز :

– قلت لك ألف مرة ألا تقيس الوضع الآن بما كان عليه عام ١٩٥٦ .

كانت أمريكا أيامها لا تقف ضد إسرائيل، ولكنها كانت تقف ضد بريطانيا وفرنسا ومحاولة كل منهما استعادة الإمبراطورية القديمة

على حساب الكيان الأمريكى العالمى الذى أعقب الحرب، كانت أمريكا أيامها تدافع عن نفسها لا عن مصر !

وقال الشاب فى حيرة :

- أى أن الأمل فى نظرك لا يتحقق إلا بأن نضع أمريكا فى حالة دفاع عن النفس .

وقال العجوز فى هدوء :

- فعلا .. هذا صحيح .

وصرخ الشاب :

- هذا جنون ! هل تريدنا أن نحارب أمريكا حتى تجبر إسرائيل على الانسحاب ؟

وقال العجوز :

- لا ، لست مجنونا ولا يمكن أن أتصور حربا مع أمريكا، ولكن هناك طريقا آخر، طريق المساومة - إننا إلى الآن نساوم إسرائيل وحدها، نطلب منها الانسحاب فى نظير شىء .. ويجب أن تمتد المساومة إلى أمريكا : أن نساومها على مصالحها فى العالم العربى، وهذه المساومة تعطى السياسيين الأمريكان قوة فى مواجهة إسرائيل .. إن إسرائيل تقول الآن لمن يطالبها بالانسحاب : إن أمريكا لن تخسر شيئا إذا لم ننسحب . وهى بهذا تضع الرأى العام الأمريكى الذى يؤيد الانسحاب فى وضع عاطفى، مجرد وضع عاطفى يتعلق بالرغبة فى السلام، ولكن إذا أحس هذا الرأى العام بأن مصالحه متعلقة بهذا الانسحاب فلن يكون موقفه مجرد موقف عاطفى، ولكن موقف إيجابى يدفع رئيس الدولة إلى التحرك إيجابيا .. هل فهمتنى ؟ إن سر ضعف موقف الرئيس الأمريكى تجاه إسرائيل أنه يتحدث باسم المبادىء لا باسم المصالح : فمصالح أمريكا مضمونة وفى خير حال دون انسحاب إسرائيل حتى لو تخطت إسرائيل حدود لبنان !

وقال الشاب الحائر :

- إنك تحاول أن تدوخنى فى فلسفة سياسية .. دعنى .. إننا نؤمن بأن الوقت فى مصلحتنا .

وقال العجوز وهو يتنهد فى حسرة :

- الوقت لا يكون فـى مـصلحـتنا إلا إذا عـشنـاه فى مـسـاومـات سـياسـية .. ولكن هكذا .. وبلا مـسـاومة .. فـإن مرور الوقت يؤكـد ما نحن فيه .

وانتفض الشاب واقفا :

- دعنى منك قبل أن تقتلنى بتشاؤمك .

وقال العجوز فى هدوء :

- إلى أين ؟

وقال الشاب :

- إلى السينما .. فيلم أمـريكى.. لعـلى أنسى نفسى بضـع ساعات!



قال الشاب وهو ينفث دخان سيجارته كأنه ينفخ فى النار :

- إن ما يحير العقل الآن هو مستقبل الوجود الفلسطينى فى لبنان ! ماهو مـصير الفلسطينيـين الذين يعيشـون هناك ؟ هل يبقون كـما هم وبكل تنظيماتهم وأسلحتهم ؟

وقال العجوز قبل أن يضع مبسم الشيشة بين شفتيه :

- لا أظن .

وصرخ الشاب :

- لماذا لاتظن ؟ يجب أن يـبقـوا كـمـا كـانوا، إنهم القـوة الضـاربة (الوحيدة) الآن .

وقال العجوز وهو يزفر الدخان :

- لقـد كان الوجـود الفلسطينى فى لبنان يتـعـايش أو يتعـامل مع الوجود اللبنانى، أمـا الآن فهناك وجود ثالـث داخل لبنان وهو الوجود الإسرائيلى .. والتنظيـمات الفلسطينية الضاربة لا يمكـن أن تتعايش أو تتعامل مع الوجود الإسرائيلى .

وقال الشاب فى حدة :

- إن إسرائيل لن تبقى فى لبنان .

وقال العجوز فى برود :

- حـتى إن خرجـت إسرائيل من لبـنان فهى لن تـخرج إلا بعـد أن

تصل إلى نزع ريش القوة الفلسطينية هناك ! أن يبقى الفلسطينيون هناك ولكن بغير كيان مستقل كما هم الآن .

وقال الشاب ساخرا :

– إنها لن تستطيع ، لن يبقى الفلسطينيون فى لبنان دائما وحدهم .

وقال العجوز بلا مبالاة :

هذا ما سيحدث حتما، الأيام القادمة كلها أحداث تقرر مصير الفلسطينيين فى لبنان .

وقال الشاب وهو لا يزال ساخرا :

– إنك تتكلم كأنك ترى الغيب وتكشف المستقبل وتفتح الفنجان !

وقالب العجوز وهو ينظر إلى الشاب كأنه يشفق عليه من أحلامه :

– أنا لا أتنبأ ولكنه المنطق الواضح .. إن لبنان هو الدولة الوحيدة على حدود إسرائيل التى تترك للمنظمات الفلسطينية حرية الحركة وحرية الضرب .. ومنذ سنوات طويلة والمحاولات تتكرر للحد من هذه الحرية أو على الأقل إخضاعها للكيان اللبنانى، وكل هذه الماولات فشلت حتى وصلت إلى حد القتال بين الفلسطينيين واللبنانيين، وربما كان. أحد الأهداف الرئيسية من احتلال لبنان هو التدخل لفرض الكيان اللبنانى الانعزالى على المنظمات الفلسطينية .. وأنت تعرف أن المنظمات اللبنانية الانعزالية كحزب الكتائب وغيره ساهمت فى الغزو الإسرائيلى أو على الأقل رحبت به، واعتبرت أن القوات الإسرائيلية هى قوات الحلفاء جاءت لإنقاذهم !

وقال الشاب المتحمس :

– الانعزاليون ليسوا كل شعب لبنان .

وقال العجوز :

– هذا صحيح .. ولكن لا تقسم شعب لبنان إلى مسيحى ومسلم كما يقال، فليس كل المسيحيين انعزاليين وليس كل المسلمين قوميين .. وإسرائيل تنتظر أن تقوم فى لبنان قوة حاكمة تستطيع أن تتحكم فى حرية التنظيمات الفلسطينية كالحكم فى سوريا أو فى العراق أو فى الأردن أو فى مصر، وبذلك تضمن إسرائيل أن تواجه دولا عربية لا تنظيمات ثورية .

وقال الشاب فى حدة :

- التنظيمات الفلسطينية فى لبنان قوة لا تستطيع أية حكومة لبنانية أن تسيطر عليها .

وقال العجوز :

- إنها قوة تعتمد فى وجودها على المجتمع اللبنانى الذى يختلف عن المجتمع فى أى بلد عربى آخر .. إنه مجتمع قائم على طوائف مستقلة لا يستطيع الحكم أن يسيطر على أية طائفة منها ولذلك فإن الحكم الذى يريد أن يسيطر يجب أن يفرض نفسه بالقوة .

وقال الشاب وهو يفتح عينيه كأنه بدأ يرى إلى بعيد :

- تقصد أن تبدأ حرب داخلية أخرى فى لبنان بين التنظيمات الانعزالية والتنظيمات الفلسطينية إذا رفضت هده التنظيمات أن تستسلم .. إن القوى الفلسطينية تستطيع أن تنتصر دائما داخل لبنان .

وقال العجوز وهو يتنهد فى أسى ويخفى شفتيه خلف مبسم الشيشة :

- القوات الفلسطينية تواجه الآن وضعا داخليا جديدا .. فقد كانت قوة واحدة هى قوة التنظيمات الانعزالية اللبنانية .. أما الآن فهى محصورة بين قوتين .. القوة الانعزالية أمامهم وقوة إسرائيل من خلفهم .

وقال الشاب كأنه يتعلق بالأمل :

- هناك قوات الردع التى تضم القوات السورية وهى تستطيع أن تتحرك لتوقف الحرب .

وقال العجوز وهو يبتسم ابتسامة يائسة :

- نفس الحال بالنسبة لقوات الردع .. القوات الإسرائيلية من خلفهم : فإما أن يحققوا ما تريده إسرائيل، وإما أن يبدأوا معركة مع إسرائيل .

وقال الشاب كأنه يكافح حتى لا يفقد الأمل :

- هناك القوات الدولية .

وقال العجوز ساخرا :

- القوات الدولية مهمتها الوقوف على الحدود المرسومة، والمعارك التى نتحدث عنها معارك داخل لبنان أى خارج الحدود المرسومة، ثم إن الاعتماد على القوات الدولية ليس حلا يطمئن على المستقبل .

وقال الشاب فى غضب :

- إنك تحاول دائما أن تلقى بى إلى هاوية اليأس .

وقال العجوز وهو يبتسم له فى حنان :

- هذا ذنبك لأنك تصر على الحديث فى السياسة .. تعال نتحدث عن الإنتاج والاقتصاد .. إنى أرى أنه إذا كانت زراعة القطن أصبحت تعانى الإهمال فلنبدأ فى زراعة الدخان حتى أطمئن على تغذية الشيشة.

وقال الشاب ساخطا :

- إننا فى حاجة أكثر إلى زراعة الحشيش .. حتى نسكت !

٣

قال الشاب كأنه يصرخ :

- إن ما يجننى هو أننا لا نستفيد من تجاربنا ولا نتقدم ، ولا نحاول أن نعدل أو نبدل من أسلوب تعاملنا السياسى بعضنا مع بعض ! إننا مثلا نطالب الآن باجتماع الملوك والرؤساء العرب، وقد سبق أن عقد مثل هذا الاجتماع عدة مرات، وينتهى كل اجتماع بكلمات حلوة واتفاقيات تبدو كأنها خطيرة، ثم لا تكاد تمر شهور حتى يعود التفتت والتقاذف بالتهم بين الملوك والرؤساء ! لماذا لا نتعلم ونعرف أن كلمات الرؤساء والملوك ليست مقدسة وليست دستورا يرسم ويضمن أى مستقبل، ثم نبحث عن أسلوب آخر أو وسيلة أخرى نصل بها إلى خطوط سياسية عربية ثابتة لا تتغير ؟

وقال العجوز فى هدوء :

- إن السر فى الدعوة إلى اجتماع الملوك والرؤساء هو أن الخلافات بين الدول العربية قائمة على العلاقات الشخصية بين هؤلاء الملوك والرؤساء : الأسد اختلف مع البكر، وبومدين اختلف مع الحسن .. و.. و.. وهكذا .. وأسس الخلاف هى تضارب الطموح الشخصى بين الملوك والرؤساء، كل منهم يريد أن ينفرد بنفسه ويعلق يافطة خاصة على

صدره، لا خلاف بينهم حول المبادىء العامة ولا حول الأهداف، ولذلك يجب أن يجتمعوا ليتغلبوا على أحاسيسهم الشخصية، ويكفوا عن التقاذف بالتهم، ويتبادلوا القبلات والابتسامات، فتصل بهم إلى موقف واحد ولو لفترة قصيرة إلى أن تعود علاقاتهم الشخصية وتفرقهم من جديد !

وقال الشاب كأنه لن يكف عن الصراخ :

– ولكن إذا كانوا على استعداد للوفاق فلماذا لا يتبادلون الاتصالات الدبلوماسية السريعة ! لماذا نصر على أن يجتمعوا حول مائدة واحدة لتلتقط لهم الصور ؟ إن ما يقال على المائدة يمكن أن يقال بالتليفون ! ثم لماذا لا تحمل حكومة كل دولة مسئولية الاتجاه السياسى بدل أن يحملها رئيس الدولة شخصيا ؟

وقال العجوز وهو يبتسم لحماس الشاب :

– لأن كل النظم العربية تقوم على النظام الرئاسى : أى أن الدولة هى الرئيس .. كما هو النظام فى أمريكا : كارتر يتصل بنفسه لرسم سياسة الدولة .. وإن كان الرؤساء والملوك العرب أوسع فى سلطاتهم من السلطات التى يمارسها كارتر !

وقال الشاب وهو يخبط على المائدة بقبضة يده :

– معنى هذا أن تتجمد السياسة العربية كلها حتى يقتنع كل رئيس بأن يقبل الرئيس الآخر ويأخذه بالأحضان !

وقال العجوز الهادىء :

– هل تدرى سبب الإلحاح فى دعوة الملوك والرؤساء هذه الأيام؟

وقال الشاب فى ضجر :

– لا .

وقال العجوز :

– السبب هو العودة إلى مصر، لقد ثبت لكل الرؤساء أن العالم العربى كله يتجمد بغير مصر، والخلاف الأساسى فى العالم العربى اليوم هو الخلاف مع مصر .. ومنذ وقع هذا الخلاف والعالم العربى لم يستطع الحركة ولا مواجهة الأحداث، والعودة إلى مصر معناها

العودة إلى أنور السادات ، والعودة إلى أنور السادات معناها الاعتراف والاقتناع بمبادرة السلام .

وقال الشاب في دهشة :

هل تقول إن دول الرفض بدأت تقتنع بمبادرة السلام ؟

وقال العجوز وعلى شفتيه ابتسامة كأنها ابتسامة رثاء :

– وبدأت تستسلم لها حتى وإن لم تعترف .. وكان هذا نتيجة الفشل فى الوصول إلى شىء ثم نتيجة العجز أمام الغزو الإسرائيلى للبنان .. حتى القذافى وهو الأشد تطرفا فى الرفض بدأ يطلب العودة إلى مصر : أى إلى السادات .

وقال الشاب وهو يهز رأسه كأنه ينفي :

– إنه يطلب قيادة عسكرية مشتركة .

وقال العجوز :

– إنه يعلم أن القيادة العسكرية المشتركة لا تقوم إلا على وحدة فى الاتجاه السياسى . ويعلم أن أنور السادات لا يمكن أن يبدأ الحرب إلا إذا فشلت مبادرة السلام وهو يعلن أن مبادرة السلام لم تفشل ، أى أن القذافى مستعد أن يقف مع السادات فى انتظار نتيجة مبادرة السلام ، أى أنه يقر ويعترف بالمبادرة .

وقال الشاب المندهش :

– إذن لماذا رفضنا دعوة القذافى ؟

وقال العجوز فى بساطة :

– لانعدام الثقة ! هذا ما يحاوله الذين يدعون إلى مؤتمر القمة.. إعادة الثقة بين الرؤساء بعضهم وبعض .

وقال الشاب وفى صوته رنة فرح :

– وهل هذا يمكن ؟

وقال العجوز :

– على أساس الحالة القائمة لا يمكن ، ولكن لو تصارح رؤساء الرفض، لو أعلنوا صراحة قبولهم لمبادرة السلام ـ فإن الثقة يمكن أن تعود وتعود معها الوحدة ولو كانت وحدة مرحلية .. والسلام عليكم .

وصاح الشاب :

- إلى أين ؟
وقال العجوز :
- سأتمتع بجنة السلام فى بيتى !

٤

قال العجوز وهو يبتسم للشاب كأنه يشفق عليه :
- منذ أيام وأنت تبدو بلا حماس : لا تناقش ولا تصرخ، أين حماسك ؟
وقال الشاب فى برود :
قررت أن أهرب من حماسى ؛ فقد كان ما يثيرنى هو القضية الوطنية، الاحتلال الإسرائيلى، ولكن هذه القضية علقت على الرف ! لم تعد تثير أحدا، بل يبدو أن هناك تعمد إثارة القضايا الداخلية مثل التشكيلات الحزبية وأزمات الغلاء والانفتاح حتى يشغلونا بها عن القضية الوطنية : أى عن الاحتلال الإسرائيلى!
وقال العجوز كأنه يقف على منصة الدفاع :
- ليس هناك تعارض بين قضية الاحتلال وقضايا المشاكل الداخلية : أيام الاحتلال البريطانى كنا نعيش قضية الجلاء وفى نفس الوقت نعيش كل القضايا الداخلية ، وفى أيام الاحتلال البريطانى قامت الحياة السياسية الحزبية وأسست الجامعة المصرية وتمت عشرات المشروعات الزراعية والعمرانية، ولم نفقد أيامها حماسنا فى المطالبة بالجلاء !
وقال الشاب كأنه يسخر من الجيل القديم :
- كان الإنجليز يلهونكم بالمشاكل الداخلية حتى لا تتفرغوا لمحاربتهم، وهذا مادفع الجيل الجديد إلى القيام (بثورة ٢٣ يوليو) لأنه جيل كان متفرغا للقضية الوطنية : أى التخلص من الاستعمار .
وقال العجوز فى غيظ كأنه اتهم فى وطنيته :
- غير صحيح ! لا تظلم جيل العواجيز إننا لم نسكت يوما واحدا عن الاحتلال البريطانى (وثورة ٢٣ يوليو) والثورات التى سبقتها لم تنطلق للمطالبة بالجلاء البريطانى فحسب ، ولكن للمطالبة أيضا بالحقوق الشعبية : كانت ثورات على الاحتلال وعلى الحكام، وكانت

خلافاتنا حادة، كان بعضنا يسعى للمفاوضات وبعضنا يرفض المفاوضة قبل الجلاء، وكان بعضنا رأسماليا وبعضنا اشتراكيا ..و.. ولكننا كنا دائما نعيش القضية الوطنية .

وقال الشاب ساخرا :

– ربما ؛ لأنها لم تعد اليوم قضية وطنية، أصبحت قضية عربية . لا جلاء عن سيناء إلا مع الاتفاق على الجلاء عن الجولان وعن الضفة الغربية .. وكانت النتيجة أن هربنا كلنا من الحماس للجلاء سواء هنا أو هناك .. إن المسئولية العامة تعفيك من المسئولية الخاصة .. ما دامت قضية عربية فلنتركها للرؤساء العرب، أما الشعوب فكل شعب فى حاله، كل شعب عربى أصبح متفرغا للبحث عن لقمة العيش !

وقال العجوز فى حدة كأنه ينهر الشاب :

– إنك لاتهرب من القضية .. القضية فى دمك، ولكنك تتهم نفسك بالهرب حتى لا تواجه نفسك بأنك عاجز عن أن تفهم .

وقال الشاب وهو لا يزال يسخر :

– افهمنى حتى تنتشلنى من عجزى .

وابتلع العجوز ريقه وقال وهو يحاول أن يكون رفيقا :

– يا ابنى ؛ إن ما يتعبك هو اقتناعك بما يجرى .. إنك مقتنع بقيادتك ومقتنع بطريق البحث عن السلام، ومقتنع فى الوقت نفسه بما جد من اتساع حدود الحريات وإطلاق التنظيمات الحزبية، . وما يتعبك هو أن اقتناعك يدفعك إلى المطالبة بالمزيد، المزيد من الحريات، والمزيد من الأحزاب، والمزيد من الخطوات فى طريق السلام حتى تنتهى اليوم أو غدا إلى واقع السلام أو إلى اليأس من السلام، هذا هو ما يتعبك .

وسكت الشاب برهة ثم قال كأنه يخاطب نفسه :

– هذا صحيح .. هذا هو ما يتعبنى .. ولكنه حقى .. حقى أن أطالب بالمزيد .. فكيف أمارس هذا الحق من خلال هذه التنظيمات القائمة ؟ إن مجلس الشعب لا يثير قضية الجلاء إلا فى مناسبات رسمية .. إلا إذا جد ما يتطلب العرض عليه من أحداث القضية .. لم يحدث أن أثار المجلس القضية من تلقاء نفسه .. سواء من ناحية الأغلبية الحاكمة أو الأقلية المعارضة : من هو النائب الذى وقف يوما وحاول أن يحلل تطورات المواقف الأمريكية بعكس ما تحلله الحكومة ؟ ومن هو النائب

الذى وقف ليعلن رأيه فى موقف الاتحاد السوفيتى دون أن تطالبه الحكومة بإعلان هذا الرأى ؟ من هو النائب الذى قرأ تصريحات القادة الإسرائيليين أو قادة دول الرفض ثم قام من تلقاء نفسه للمطالبة بمناقشة هذه التصريحات ؟ أين دور الناس فى كل هذا ؟ لاشىء ! كله من اختصاص الحكومة ! والناس لا تتكلم إلا عن ارتفاع الأسعار حتى اقتنع الناس بأننا لا نريد السلام إلا بسبب ارتفاع الأسعار !

وقال العجوز وهو يلوى شفتيه كأنه ليس مقتنعا :

– هذا هو ذنب الناس وليس ذنب النظام .. لم نسمع عن أحد من أعضاء المجلس حاول أن يتكلم ورفض طلبه أو حاول أن يلقى خطابا فى الجماهير أو يكتب مقالا فى الصحف ولم يستطع .. وكما قلت لك : إنه وضع طبيعى وكما يقولون وضع صحى .. فالثقة فى الحاكم كما تدفع إلى مطالبته بالمزيد تدفع أيضا إلى مزيد من الاتكال عليه .. وهذه الثقة هى أيضا التى تدفع الناس إلى التفرغ لحديث الغلاء والمرتبات والاختلاسات وأكل العيش .

وعاد الشاب صامتا ثم قام بعد برهة يغادر المقهى والعجوز يسأله :

– إلى أين ؟

وقال الشاب وهو يبتعد :

– إلى البقال والجزار لأدرس الحالة الوطنية، ثم أعود إليك بآخر الأخبار .. أقصد آخر الأسعار .. إن الأخبار الآن هى الأسعار !

٥

قال الشاب ساخرا :

– بعد كل التطورات التى حدثت هل نحن نعيش مجتمع الأغنياء أو مجتمع الفقراء ؟

وقال العجوز وبين شفتيه ابتسامة ضعيفة :

– لا أغنياء ولا فقراء إننا نعيش مجتمع الشطار !

وقال الشاب الساخر :

– هل تعتبر نفسك « شاطر » .

وقال العجوز وابتسامته لا تزال معلقة بين شفتيه :

– لا أنا ولا أنت من الشطار !

وقال الشاب محتجا :

- أنا مثقف والثقافة شطارة .
وقال العجوز وهو ينظر إلى الشاب كأنه يشفق عليه :
- ما هى الثقافة ؟ إنها مجموعة من الكلمات تحتفظ بها فى رأسك .. وما هو الكلام ؟ إنه بضاعة، والشاطر هو من يستطيع أن يبيع بضاعته وتختلف نسبة الشطارة مع نسبة الربح من عمليات بيع البضاعة .. بيع الكلام .. أما الخائب فهو الذى يحتفظ بالبضاعة فى دولاب المطبخ الذى يغذى عقله ولا يخرج بها إلى السوق وأنا وأنت من الخائبين ؛ لأننا نقضى الوقت على المقهى نتكلم دون أن أدفع لك ثمنا لكلامك ودون أن تدفع لى ثمن كلامى !
وقال الشاب فى قرف :
- وماذا كنت تريدنا أن نفعل حتى نعتبر من مجتمع الشطار ؟
وقال العجوز بسرعة :
- أن نخرج ببضاعة الكلام إلى السوق، سوق أصحاب النفوذ كيف تتم عملية تساوى مليون جنيه مثلا أو مليون دولار ؟ صاحب الفكرة يجب أن يكون مثقفا مثلنا يذهب إلى صاحب النفوذ ويتكلم .. يبيعه كلاما .. ويشتريه صاحب النفوذ ويقبض الشاطر مليون الجنيه .. ولهذا سمى أصحاب النفوذ بأصحاب الكلمة لأنهم يشترون الكلام، وأصبح الشطار هم الذين ينجحون فى الوصول إلى هؤلاء ليبيعوهم كلاما .
وقال الشاب فى تقزز :
ولكن ما الذى أوصلنا إلى مجتمع يصبح فيه الشاطر هو بائع الكلام ؟
وقال العجوز فى أسى
- نحن الذين أوصلنا أنفسنا إلى هذا الحد ! لأننا نتجاهل القوانين واللوائح والأصول ونكتفى بالكلام .. إننا أطلقنا كلمة الانفتاح، ولكننا لم نصدر القوانين التى تحدد معنى هذا الانفتاح ولم نحدد قيود هذا الانفتاح، على ماذا ننفتح ؟ وماذا نريد إذا انفتحنا ؟ لا تحديد ولا قوانين .. وتركنا السوق كلها للشطار، سوق الانفتاح .. والشاطر هو من يستطيع أن ينفتح على البقرة التى تضحك ويستورد منها الجبنة .. والخائب هو من ينفتح على مصنع يقيمه كما انفتح طلعت حرب على مصانع الغزل والنسيج أيام زمان .

وقال الشاب :

– ولكن أين ذهبت القوانين واللوائح والقيود ؟

وقال العجوز ساخرا :

– تحررنا منها، ثرنا على القوانين التنفيذية وعلى الروتين وعلى اللوائح وقلنا :

إنها تعطل الأعمال وتصد النفس . وصدرت القرارات بالتحرر من كل هذه القيود، ولكننا عندما تحررنا منها لم نضع بديلا عنها .. لم نتحرر من ورقة كانت تطلب إمضاء عشرين موظفا ونضع محلها ورقة لا تحمل أكثر من توقيع واحد أو اثنين ! ولكننا أصبحنا نعيش على أوراق بلا توقيع .. وتركنا الأمر كله للشطار شطار الكلام .

وقال الشاب وهو يلوى شفتيه فى اشمئزاز :

والنتيجة هى ما نحن فيه .

وقال العجوز :

– وألعن ما نحن فيه هو الغلاء .. وغلاء الأسعار لا يمكن أن نترك علاجه لضمير التاجر، الذى يحارب الغلاء هو يد السلطة .. ويد السلطة هى القانون .. والسلطة يجب أن تحدد الأسعار قبل أن تنزل إلى السوق لا أن تتركها تباع ثم تتدخل لإسكات صراخ الناس.. وحتى تحدد الأسعار قبل العرض فى السوق يجب أن تحددها بمجرد أن تصل البضاعة إلى الميناء أو قبل أن تخرج من المصنع .. وكل هذا يتطلب تخطيطا هائلا ولوائح سريعة حاسمة وقوانين تسهل بقدر ما تخيف .. ولكننا لم نفعل شيئا .. اكتفينا بالكلام الذى هو بضاعة الشطار .

وقام الشاب القرفان منصرفا ولاحقه العجوز :

إلى أين ؟

وقال الشاب :

– إلى البيت لأعيش داخل دولاب ثقافتى .

وقال العجوز ساخرا :

– ظننت أنى أقنعتك وأنك فى طريقك لتبحث عن واحد من أصحاب الكلمة حتى تبيع له الكلام وتنتقل إلى مجتمع الشطار !

٤ من يونيو ١٩٧٨

١

وفد الشاب على المقهى ورفع يده تحـية للعجوز وهو يقول ساخرا :

– صباح الديموقراطية .

ونظر إليه العجوز فى تأفف، ثم رد ساخطا وهو يدير وجهه عنه :

– صباح الضياع .

وجلس الشاب بجانب العجوز قائلا وهو لايزال يبتسم ساخرا :

– أنا أحييك بالديموقراطية وأنت تحييني بالضياع !

وقال العجوز كأنه يبصق :

– المعنى واحد : الديموقراطية هى الضياع !

وقال الشاب وهو يفتعل الدهشة :

– لماذا ؟ تكون الديموقراطية هى الضياع ؟

وقال العجوز :

– لأنكم لاتفهـمون الديموقراطيـة . وليست لها صورة مـحددة فى خيالكم السياسى، ولأنكم لاتفهمون فأنتم فى ضياع !

وقال الشاب وقد عادت إليه الرنة الساخرة :

– أفهمنا وأنقذنا من الضياع لافض فوك .

وقال العجوز محتدا :

– قل لى أولا : ماهى الديموقراطية فى نظرك ؟ كيف تفهمها ؟

وسكت الشاب برهة ثم حلت بوجهه علامات جادة وقال :

- هل تريدني أن أقول رأيي، كل رأيي ، أي أن أتكلم بصراحة ؟

وقال العجوز :

- تكلم .. إننا في مقهى .. والصراحة لاتزال مباحة في المقاهي .

وقال الشاب في رنة أسى :

- فقط في المقهى .. ومجلس الشعب ليس مقهى .. للأسف .

وقال العجوز محتدا :

- قل رأيك وخلصني .

وقال الشاب في صوت بطيء كأنه يحل لغزا :

- الديموقراطية كما أفهمها هي حق الوصول إلى الحكم .. لا يكفي في الديموقراطية أن يكون لك حق إبداء رأيك ولكن أن تصل بهذا الرأي إلى أن تحكم البلد .. أن تكون رئيس وزراء أو أن تكون رئيس جمهورية .. وإذا كانت الديموقراطية تقوم على تعدد الأحزاب ، فالأحزاب لا تساوي شيئا إلا محاولة الوصول إلى الحكم ، كل حزب يقضي العمر كله محاولا أن يصل إلى الحكم .. ولكي يصل فمن حقه أن يكون حرا في اكتساب الأنصار والمؤيدين، ومن حقه أن يكشف أخطاء الحكومة القائمة وأن يحذر الناس من الانقياد إليها والاستسلام لها كأنها حكم القدر، وهذه هي الديموقراطية كما أفهمها . هذا المفهوم هو ماتجاهلناه عندما أعلنا الديموقراطية وأبحنا تكوين الأحزاب، كنا نريد من هذه الأحزاب أن تكتفي بحاضرها دون محاولة الوصول إلى مستقبلها : أي إلى الحكم .

وقال العجوز وقد فوجيء بصراحة الشاب :

- ماذا تقصد ؟

وقال الشاب وهو أكثر انطلاقا :

- كيف نبيح إقامة حزب الوفد بكل رجاله القدامى دون أن ننتظر منهم أن يدافعوا عن ماضيهم وأن يضعوا هذا الماضي فوق (ثورة ٢٣ يوليو) ودون أن ننتظر أن يبدأ فؤاد سراج الدين في العمل شعبيا للوصول بحزبه إلى الحكم ؟ ثم كيف نقيم حزبا يساريا تقوم قيادته على الماركسية ثم لاتتصرف هذه القيادة تصرفات ماركسية وتتكلم لغة

ماركسية وتقيم تنظيما ماركسيا ؟ كل هذا كان مفروضا فكيف ندعى أننا فوجئنا به ؟ وكيف نتخذ إجراءات فى إلغاء هذه الأحزاب التى أقمناها نحن بأنفسنا ؟ إذا لم نسمح بقيام الوفد لما قام الوفد، وإذا لم نسمح بإقامة اليسار الماركسى لما قام اليسار الماركسى .. فإذا كان هناك خطأ فهو ليس خطأ الوفد ولا الماركسية .

وقال العجوز وهو يبتسم للشاب حتى يخفف من حدته :

– إنك تفهم الديموقراطية كمبدأ عام، ولكنك لاتحاول أن تفهمها كواقع ! إن الديموقراطية كواقع هى حماية استمرار النظام القائم، ولهذا تختلف صورالديموقراطية باختلاف صور النظم التى تقوم فيها .. إن الديموقراطية فى أمريكا تختلف عن الديموقراطية فى إنجلترا وتختلف عنها فى فرنسا وعنها فى يوغوسلافيا .. وحتى فى روسيا يسمونها ديموقراطية .. وكل ذلك لأن كل نظام له ديموقراطيته الخاصة .. والذى يقلب النظام ليس الديموقراطية ولكنه الثورة .. فإذا كان الوفد أو الماركسية تريد أن تصل إلى الحكم، فهى تريد أن تقلب النظام، ولن تقلبه بالديموقراطية ولا بالدستور، لأن النظام يستطيع دائما أن يحمى نفسه ولكنها تقلبه بثورة .. وربما كان هذا سببا فى كل ما اتخذ أخيرا من إجراءات .

وقال الشاب صارخا :

– يمكن دائما إجراء التغيير من خلال الدستور حتى تغيير النظام، إن دعوة حزب الفابيان فى بريطانيا أدت إلى تعديل النظام من خلال الدستور وبلا ثورة .

وقال العجوز ساخرا :

– إن الفابيان فشلوا فى بريطانيا وتركوا السياسة فى أيدى النقابات العمالية والمهنية وأصبحت بريطانيا تعيش اليوم بلا شخصية سياسية، لا ديموقراطية ولا ديكتاتورية .. فوضى !

وصرخ الشاب :

– إذا كنتم أنتم العجائز تعلمون كل ذلك فلماذا بدأتم بإقامة الأحزاب وإطلاق الحريات السياسية ؟

وقال العجوز كأنه يعتذر :

- هذا خطأ .

وانتفض الشاب واقفا وقال وهو يهم بالابتعاد :

- ومن الخطأ أن أناقش العواجيز أمثالك .. دعنا نتعود نحن الشباب مناقشة أنفسنا .. السلام عليكم ..

٢

كان العجوز يجلس وقد أدار ظهره للشاب يتتبع بعينيه دخان الشيشة كأنه لم يعد فى الدنيا شىء يهمه إلا الشيشة .

وقال الشاب وهو يربت على كتف العجوز برفق :

- هل خاصمتنى ؟ منذ أول النهار وأنت ترفض أن تلتفت إلىّ ..!

وقال العجوز وهو لايزال ينظر وراء دخان الشيشة :

- الخصام هو أسلوب الشباب .. آسف .. أقصد أسلوب العيال .. وأنا لا أخاصم أحدا .. ولكنك أنت الذى أعلنت فى آخر لقاء لنا أن الشباب يجب أن يتحدثوا إلى أنفسهم لا إلى العجائز !

وقال الشاب فى لهجة مهذبة :

- لم أقصد مقاطعة العجائز .. نحن فى حاجة دائما إلى آرائكم التى تنطلق من تجاربكم .. وتذكر نفسك فى شبابك، لقد كنت تتصل أيامها بالعجائز .. عجائز السياسة .. ولكن القرار النهائى كنت تتخذه أنت : أى الشباب لا العجائز .. (ثورة ٢٣ يوليو) قامت بقرار من الشباب .. أيام أن كانوا شبابا .

وقال العجوز فى زهق :

- ماذا تريد من العجوز اليوم ؟

وقال الشاب مبتسما :

- أريد أن أشكو وتسمع شكواى .

وقال العجوز وهو لايزال مديرا ظهره للشاب :

- اسمعنا فلم يعد هناك ما يسمع إلا الشكوى .

وقال الشاب فى رفق كأنه حريص على ألا يثير العجوز :

- إنى أشكو بحر المتناقضات الذى أكاد أغرق فيه !

والتفت إليه العجوز لفتة سريعة وقال :

– أى متناقضات تقصد ؟

وقال وهو يدير مقعده ليواجه العجوز كأنه قرر أن يفتح المناقشة برغم أنفه :

– إننا فى حالة حرب برغم ذلك نعيش السلم ! ونحن نتحدث عن الديموقراطية وبرغم ذلك فالأحكام العرفية لاتزال قائمة ! وكل محافظ فى محافظات مصر له سلطات الحاكم العسكرى .. ثم نقول : إن هناك يمينا ويسارا ووسطا، ثم لانجد إلا الوسط ! ونحن نعلن الانفتاح الاقتصادى والحرية الاقتصادية وبرغم ذلك نتغنى بالاشتراكية وبالقطاع العام ! ونحن نعلن سيادة القانون وبرغم ذلك نعتمد على القرارات لا على القوانين ! إن هناك قوانين صدرت كقانون تحريم الخمر، أوقف تنفيذه بقرار ! ومشروع هضبة الأهرام صدر بقرار وألغى بقرار دون أن يقرىء التحية للقانون ! ونحن نقول : إن الحالة الاقتصادية سيئة وبرغم ذلك تحيط بنا كل مظاهر الغنى : بعضنا يعيش هذه المظاهر وبعضنا يراها بعينيه من بعيد .. الحالة الاقتصادية خربة وبرغم ذلك ترتفع الأجور والمرتبات وتضيق الشوارع بسيارات آخر موديل وآخر فخامة ! وأصبحت كل دكاكين مصر تزدحم بالمستورد بما فيها فساتين وكرفتات كريستان ديور ! حتى أصبحت هناك طبقة تدعو أن يدوم هذا الاقتصاد ! الحزب .. الخراب نعمة ..و..

وقاطعه العجوز قائلا فى حدة :

– كفى .. فهمت ماتعنيه .. ويجب أن تفهم أن هذه المتناقضات مفروضة علينا فرضا وليست من اختيار أحد، الوضع الذى نحن فيه هو الذى يفرضها لأننا فى حالة حرب مع إسرائيل منذ ثلاثين سنة، منذ عام ٤٨ .. حالة حرب معلنة رسميا، وليس هناك شعب يستطيع أن يعيش حالة الحرب بكل ماتفرضه الحرب طوال هذه المدة، ولذلك فأنت مضطر وأنت فى حالة حرب أن تعيش السلم .. إن إسرائيل أيضا تعيش نفس الحالة، إنها فى حالة حرب وتعيش السلم، وتعيش الديموقراطية فى حين أن الأحكام العرفية أو العسكرية معلنة !

نفس الوضع نجده فى كوريا أيضا، لأنها تعيش منذ أكثر من عشرين سنة فى حالة حرب .. وبما أن الأساس يجمع بين النقيضين فكل مايقوم فوقه معرض للتناقض .

وقال الشاب فى هدوء :

– لك حق فيما قلت، كل هذا صحيح، وربما كان ماينقصنا هو أننا نتجاهل الواقع ونعتمد على الشعارات العامة .. الديموقراطية .. الانفتاح .. سيادة القانون ..و..و.. ونحن بذلك نتجاهل التناقض بين الأسس التى نعيش عليها .. نتجاهل أننا نعيش السلم ونحن فى حالة حرب .. فإذا تحدثنا عن الديموقراطية فيجب أن نقول : إنها ديموقراطية ناقصة، لأننا فى حالة حرب .. وإذا تحدثنا عن سيادة القانون فيجب أن نقول : إنها سيادة خاضعة لحالة الحرب .. وهكذا .. وبذلك ننقذ الفكر المصرى والتصرفات المصرية من التناقض .. ونتجنب مايحدث لنا من إصدار قانون ثم وقف تنفيذه أو إصدار قرار ثم إلغائه أو بناء مشروع ثم هدمه .

وقال العجوز :

– إننا نتجاهل حالة الحرب حتى نخفف عن الناس .

وقال الشاب وهو ينظر إلى العجوز باستخفاف :

– هذا خطأ، أنت تعطى الناس رخاء حالة السلم، ويجب فى الوقت نفسه أن تعطيهم متاعب حالة الحرب .. أن يذهب الشباب بعد انتهاء فترة التجنيد ليعيدوا التدريب مرة كل عام، هذا مايحدث فى إسرائيل .. وأن تطلق صفارات الإنذار عن الغارات الجوية مرة كل شهر، حتى لا ينسوا حالة الحرب وحتى نطمئن إلى وجود المخابىء قبل أن نفاجأ بالحرب فعلا ..و..

وقاطعة العجوز فى قرف وزهق وهو يمد يده ويلتقط مبسم الشيشة :

– لسنا فى حاجة إلى كل هذا، السلام الكامل قريب بإذن الله .

وقال الشاب ساخرا :

– إلى أن يأذن الله دعنى أطلب لك تغيير الشيشة حتى أعيش معك بالدخان .

٣

قال الشاب فى عصبية وسخط :

– إلى الآن لا أستطيع أن أحدد بالضبط موقفنا مما يحدث فى أفريقيا .

وفع العجوز مبسم الشيشة من بين شفتيه وقال فى بساطة :

– إذا حددت موقفك من أمريكا ومن روسيا استطعت أن تحدد موقفك من كل ما يجرى فى أفريقيا .

وقال الشاب فى حماس وهو يخبط بقبضته على المائدة كأنه يطلق طلقة مدفع :

– الحياد ! ليس هناك موقف ينقذنا من بلاوى أفريقيا إلا الحياد .

وقال العجوز ساخرا :

– إذا كنت تقصد الحياد الذى يتحدثون عنه هذه الأيام فى المقاهى فهو ليس الحياد بين أمريكا وروسيا، ولكن الحياد بين فلسطين وإسرائيل أو بين العرب واليهود .

وقال الشاب :

– أنا لا أقصد هذا الحياد، ولكنى أقصد الحياد بين روسيا وأمريكا .. لقد جربنا الاثنتين : كنا مع روسيا فجرتنا إلى إرسال قواتنا إلى الكونغو، ثم أصبحنا مع أمريكا فجرتنا إلى إرسال قواتنا إلى زائير .. وحتى نحتفظ بقواتنا لأنفسنا فالطريق الوحيد هو أن نقف على الحياد .

وقال العجوز كأنه يشفق على الشاب من غبائه :

– ليس فى العالم كله دولة يمكن أن تدعى أنها تقف موقف الحياد بين روسيا وأمريكا .

وقال الشاب فى عجلة :

– سويسرا .

وقال العجوز وهو لايزال مشفقا :

– سبق أن قلت لك : إن حياد سويسرا ليس حياد دولة تفرض على العالم حيادها، ولكنه اتفاق تاريخى واقعى بين الدول الثلاث التى تحيط بسويسرا .. فرنسا وألمانيا وإيطاليا ؛ لأن كل دولة من هذه الدول ممثلة بشعبها داخل سويسرا .

وصاح الشاب العصبى :

– لا تدفعنى إلى اليأس ! انظر إلى ما يجرى حولنا نتيجة الصراع بين أمريكا وروسيا : ما حدث فى أنجولا وما حدث فى الكونغو وما حدث فى الحبشة وما يحدث فى زائير وما يحدث فى

إيران وما حدث فى باكستان وأفغانستان وما حدث فى اليمن . وما يحدث فى العراق .. حتى ما يحدث عندنا فى مصر - أصبح منسوبا إلى الصراع الروسى الأمريكى .. لا وسيلة إلا أن نهرب من الاثنتين .. من روسيا وأمريكا .. وطريق الهرب هو الحياد .

وقال العجوز وهو يزفر أنفاسه كأنه ضاق بهذه العقلية :

- هذا الحياد لا تكون له قيمة إلا إذا اعترفت به وأيدته أمريكا وروسيا .

وقال الشاب فى تحد :

- ولماذا لا تؤيده أمريكا وروسيا مادامت كل منهما مطمئنة إلى أننا لاننحاز إلى الأخرى ؟

وقال العجوز :

- لأن الصراع بينهما نتيجة تخطيط داخلى يفرض أن تنفرد كل منهما بالسيطرة على مكان من العالم .. وقد سبق أن قامت جبهة الحياد من دول العالم الثالث بقيادة تيتو ونهرو وعبد الناصر، وفشلت الجبهة وطار الحياد لأن لا روسيا ولا أمريكا تقر أى منهما موقف الحياد !

وقال الشاب وهو يدق بقبضته على المائدة مرة أخرى :

- ستفرض نحن الحياد عليهما !

وقال العجوز فى برود :

- لو فرضت حيادك فسيصبح من السهل ابتلاعك ؛ لأنك ستكون وحيداء لاتجد من يقف بجانبك أو على الأقل يمدك بالسلاح دفاعا عن حيادك .. وتصبح المشكلة بين روسيا وأمريكا هى من يسبق الآخر فى ابتلاعك !

وقال الشاب ساخرا :

- إن روسيا هى الآن التى تسبق دائما، كل مكان تحركت فيه داخل أفريقيا حققت لنفسها النصر .

وقال العجوز فى أسى :

- هذا صحيح .. إن العقلية الروسية أذكى فى السياسة والتحركات الدولية من العقلية الأمريكية . ربما لأن السياسة الروسية تخطط

لتحقيق سيطرة الدولة على العالم الخارجي . أما السياسة الأمريكية فتخطط لسيطرة الشركات الأمريكية أى سيطرة قوة رأس المال الأمريكي .. وإذا نظرت إلى أى بلد مرتبط بأمريكا تجد تقدما رائعا فى الإنتاج لأنه إنتاج يحقق مصالح رأس المال الأمريكي بجانب تقدم البلد نفسه : ولكنك فى الوقت نفسه تجد فى هذا البلد عدم الاستقرار وتجده دائما معرضا لانقلاب داخلى، أما إذا كان هذا البلد مرتبطا بروسيا فإنك لاتجد تقدما يذكر فى الإنتاج لأن رأس المال الروسى ليس له نفس القوة والمصلحة الإنتاجية، على حين تجد البلد فى حالة أقرب إلى الاستقرار، لأن كل مايهم روسيا هو نظام الحكم الذى تعتمد عليه .

وقال الشاب فى قرف وقد بدأ يتعب من حماسه :

– والنتيجة كما تريدها هى اليأس .. لا حل إلا الاستسلام للصراع الأمريكي والروسى .

وقال العجوز كأنه يخفف عن الشاب يأسه :

– هنك حل يتحدثون عنه هذه الأيام وهو أن يتفق الروس والأمريكان على تقسيم العالم بينهما كما سبق أن حدث بينهما فى مؤتمر يالتا بعد الحرب العالمية .. إن مؤتمر يالتا لم يقسم العالم كله إنما اقتصر على تقسيم دول الحرب .. فليقسما الباقى أيضا لنستريح من صراعهما !

وقال الشاب المنهار :

– وإذا لم يتفقا .. أو إذا رفضنا نحن هذا التقسيم !

وقال العجوز وهو يشد ظهره كأنه سيلقى خطابا :

– هناك الحل الأقوى، وهو الوحدة الوطنية، إن الروس والأمريكان لا يتحركان داخل بلد إلا من خلال قوى شعبية، ومن خلال زعامات معينة .. إذا لم يكن الروس قد وجدوا الرئيس منجستو ما استطاعوا أن يفرضوا أنفسهم على الحبشة .. وهكذا : فالمسئولية الرئيسية هى دائما مسئولية القيادات والزعامات المحلية، فإذا قامت وحدة وطنية قوية داخل البلد استطاعت هذه الوحدة أن تحقق الاستقرار وأن تحمى نفسها من الصراع الأمريكي الروسى .

وقال الشاب فى استخفاف :

- إنك تقصد حماية الحكم القائم واستقرار الحكم القائم .
وقال العجوز :
- إن الحكم هو الدولة والدولة هي الوطن .. واستقرار الحكم هو استقرار الوطن .. ولا يمكن أن يستقر أى حكم إلا إذا انعكس استقراره على الوطن .
وانتفض الشاب واقفا وقال منصرفا :
كأنك تهم أن تلقى خطابا وأنا شبعان (خطب) .. سلام عليكم .

٤

قال الشاب وهو يبتسم ابتسامة عريضة فى وجه العجوز كأنه يحاول أن يخفف عنه :
- إنك سارح وكأنك شارد وعلى وجهك تعبير مسكين يبدو وكأنك تتحسر على شىء ! خبرنى .. لا تتركنى حائرا معك وحائرا فيك !
وقال العجوز وكأنه يفيق من حلم :
- أستعيد ذكريات مشكلة مضى عليها خمسة وعشرون عاما ولم تحل بعد .
وقال الشاب :
- أى مشكلة ؟

وقال العجوز وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :
- مشكلة التنظيم السياسى فى مصر .
وقال الشاب :
- إنها مشكلة لم تبدأ إلا بعد حرب أكتوبر ٧٣ ..
وقال العجوز وهو لا يزال يبتسم وكأنه يسخر بابتسامته من نفسه :
- إنها مشكلة بدأت منذ اليوم الأول (ثورة ٢٣ يوليو) .
وقال الشاب فى دهشة :
- كيف ؟
وقال العجوز :

– إنك لاتعرف ! فلم تكن أيامها قد بلغت سن البلوغ السياسى، ولعلك تتصور أن الثورة بدأت ومعها تنظيم الاتحاد الاشتراكى .. أبدا لقد بدأت الثورة كجمعية سرية، وبقيت فترة طويلة وهى تحكم كأنها جمعية سرية برغم أنها تنفرد بالحكم، وكان رجال الثورة يترددون أيامها على هذا المقهى، كلهم بما فيهم عبد الناصر كانوا يجلسون معنا لايتكلمون ولكنهم يسمعون .. وسمعونا نقول : إن الثورة بدأت بتنظيم عسكرى ولا يمكن أن تستمر إلا بتنظيم مدنى .. وكنا نقول : إن كل هؤلاء الذين يهتفون ويصفقون للثورة لايعرفهم أحد معرفة تكفى تحريكهم وضمهم إلى الثورة وحتى نعرفهم فيجب أن نجمعهم فى تنظيم : أى فى حزب .. وربما اقتنعوا ولكنهم ترددوا طويلا .

وقال الشاب وهو مبهور كأنه يشرب من كأس التاريخ :

– لماذا ترددوا ؟

وقال العجوز وهو يهز رأسه فى حسرة :

– كانت صورة الأحزاب السابقة بشعة فأرادوا أن يرتفعوا بأنفسهم فوق الأحزاب .. والأهم من ذلك أنهم كانوا يريدون أن يبعدوا عن أنفسهم شبهة الاستيلاء على الحكم .. ثم تكوين حزب يفرض تحديد الزعامة .. من هو الزعيم ؟ وكانت الزعامة أيامها مختبئة بأسلوب الجمعية السرية وراء محمد نجيب .. ولهذا ترددوا طويلا، ولكنهم تحت إلحاح كلامنا ولأنهم شعروا أن الثورة فى حاجة فعلا إلى تنظيم شعبى أقاموا تنظيما أسموه هيئة التحرير، وكان أول خدعة سياسية عشنا بعدها ونحن ننتقل من خدعة سياسية إلى خدعة سياسية !

وقال الشاب كأنه ضاق بحيرته فى هذا الكلام :

– أى خدعة تقصد ؟ أفهمنى .

وقال العجوز المبتسم :

– قلت إنها خدعة سياسية .. والسياسة تبيح الخدع، وكانت الخدعة أنهم أطلقوا على التنظيم اسم «هيئة» لأنهم خشوا لو أسموه حزبا أن يضطروا إلى إباحة تشكيل الأحزاب .. ثم كما قلت لك : فإن الثورة قام بها تنظيم عسكرى وكان يجب أن تستمر فى تنظيم مدنى .. والذى فعلوه هو أنهم وضعوا التنظيم المدنى داخل التنظيم العسكرى، فأصبح

الواقع هو أن شيئا لم يتغير، وأن التنظيم الوحيد القائم هو تنظيم الضباط الأحرار .. التنظيم العسكرى الذى قام بالثورة .. وظل التنظيم العسكرى يحكم تحت اسم هيئة التحرير، ثم تحت اسم الاتحاد القومى، ثم الاتحاد الاشتراكى مع أنه ليس له إلا اسم واحد وهو الضباط الأحرار .

وقال الشاب كأنه لايريد أن يتعب مخه :

– كان هذا ماضيا .. كل شىء تغير .

وقال العجوز فى هدوء :

– هذا صحيح .. كل شىء تغير .. ولكن الرئيس السادات صادف بعض ما صادفته الثورة فى أول أيامها : فكما أن التنظيمات الحزبية قبل الثورة كان لها سمعة بشعة – فإن الاتحاد الاشتراكى كانت له سمعة أبشع، فأراد أن يرتفع فوقه وألغى وجود هذا الاتحاد الاشتراكى وأقام تنظيمات فى صورة أحزاب . وظل هو بعيدا – فوق .. وهذا لا يمكن، فهو لا يستطيع أن يكون رئيسا رمزيا لأن مصر جمهورية رئاسية .. ولأن أى رئيس جمهورية ليس رئيسا رمزيا يجب أن يمثل تنظيما شعبيا .. ولا شك أن السادات يمثل الشعب كله وقد حقق من الانتصارات ماجعله زعيما وليس مجرد رئيس، ولكن هذا الشعب يجب أن يمثل فى تنظيم، وأن يحكم السادات لا من خلال الحكومة التى تمثل تنظيم الأغلبية بل من خلال الأغلبية نفسها .. من خلال التنظيم نفسه : أى أن يكون هو رئيس التنظيم حتى لو قامت بجانبه تنظيمات أخرى .

تيتو مثلا هو رئيس التنظيم الذى يحكم، وتقوم بجانبة تنظيمات أخرى، والتنظيم الوحيد الذى يمكن أن ينسب إليه الرئيس السادات هو تنظيم الضباط الأحرار .. ومفروض أن هذا التنظيم قد ألغى ولم يعد يحكم وأن الجيش أصبح متفرغا عسكريا لايمارس السياسة .

وقال الشاب كأنه يبحث عن منطق يرد به على العجوز :

– تيتو هو رئيس الحزب الذى قام بالثورة .. ولكن لاحزب مصر ولا أى حزب هو الذى قام بالثورة .. والحزب الذى قام بالثورة هو الذى يحكم فإذا لم يكن يحكم فيجب أن يرتفع فوق الأحزاب .. ليكون الأب والراعى لكل الشعب .

وقال العجوز :

– إن الحكم يعتمد على شخصية الزعيم .. وبرغم أن تيتو هو رئيس الحزب الذى قام بالثورة فإن شخصيته أقوى من شخصية الحزب، ولذلك يخشون على يوغوسلافيا الفوضى السياسية بعد تيتو ؛ بل لولاشخصية تيتو لقامت هناك عدة انقلابات ولا استطاعت المعارضة أن تستولى على الحكم .. وشخصية السادات شخصية مدنية بجانب شخصيته العسكرية، أقصد شخصية سياسية مدنية ساهم بها فى قيام الثورة قبل أن يتحرك بها كشخصية عسكرية .. وهذا هو الفارق الكبير بينه وبين عبد الناصر ! فهو إذن يمثل الثورة مدنيا وعسكريا : أى أنه لو تزعم اليوم حزبا مدنيا فهذا الحزب هو الذى قام بالثورة .. وهو حزب يستطيع أن يتحمل بقية الأحزاب : أى أن يتحمل المعارضة ؛ لأن رئيسه زعيم مدنى له تاريخ مدنى وشخصية مدنية وليس مجرد قائد عسكرى .

وقال الشاب فى زهق :

– ماذا تريد أن تقول ؟

وقال العجوز وهو يائس :

– أريد أن أقول : إن الحل الوحيد لقيام تنظيم سياسى شعبى هو أن يكون حزبا بزعامة ورئاسة أنور السادات .. زعامة مباشرة .. وليست زعامة من خلال طرف ثالث « واعمل معروف يا ابنى » ارحمنى من الكلام .. واطلب لى شيشة وزجاجة سفن أب مصنوعة فى مصر .. إن كلام المقهى له قيمة، فقد استطاع أن يجعل من السفن أب صناعة مصرية أو على الأقل نصف مصرية ..

يوليو ١٩٧٨

١

قال الشاب وعيناه مجمدتان فى نظرة واحدة كأنه يتطلع إلى قرار خطير :

– لن أتردد على هذا المقهى بعد اليوم ! إنى هنا أحس بالاستسلام . والكلام الذى أردده وأعتبره خطيرا هو فى الواقع كلام أرفه به عن نفسى .. إن المقاهى يجب أن تقتصر على العواجيز .

وقال العجوز ساخرا فى رأفة وحنان :

– وأين تذهب بعيدا عن هذا المقهى ..

وصرخ الشاب :

– أعمل .. أتحرك .. أقتل .. أوزع منشورات .. أختبىء فى جمعية سرية حتى لو اصطادتنى سنارة ممدوح سالم من تحت الأرض ! إن النوم فى السجن السياسى أشرف من الجلوس على المقهى السياسى ..

وقال العجوز وهو يزداد رأفة على الشاب :

– هذا كلام الأبرياء ..

وقال الشاب فى غضب :

– من تعنى بالأبرياء ؟

وقال العجوز وهو يبتسم فى حنان :

– أقصد السذج : أى الذين يقعون ضحية السذاجة السياسية ..

وقال الشاب ثائرا :

– لو كنت أنا ساذجا فالعالم كله أصبح ساذجا .. انظر ماذا يحدث

حولنا ؟ وماذا يحدث فى بلادنا ؟ أقصد البلاد العربية .. قتل.. قتل .. لم يعد التعبير عن الرأى يعتمد على القلم أو على اللسان الذى نطلقه فى هذا المقهى .. أصبح الرأى يعتمد على المسدس ! وإذا أردت رأيا أقوى تعبر عنه بقنبلة ! وأقوى من الأقوى تعبر عنه بالحرب الداخلية ! وستجد دائما من يؤيد رأيك ويبيعك المسدس أو يبيعك القنبلة أو يبيعك الحرب !

وقال العجوز الهادىء :

– أعلم ما الذى أثارك ، إنك متأثر باغتيال الغشمى رئيس جمهورية اليمن ، ويجب أن تعلم أنه لم يقتل نتيجة منطق وطنى محلى ، ولكنه قتل نتيجة المنطق السياسى الذى وضعته موسكو منذ أكثر من خمس سنوات! منطق يفرض على القوى الماركسية أن تتحرك بقوة وعنف وأن تعتمد على المسدس والقنبلة ، وقد أعلنت موسكو هذا المنطق حتى فى جرائدها ، وقد احتاجت إلى هذا المنطق لتدع الحزب الشيوعى فى فرنسا وفى إيطاليا يصل إلى الحكم بالقوة بعد أن فشلوا فى الوصول إليه عن طريق الدستور والانتخابات .. لقد قرأت هذا المنطق فى البرافدا منذ سنوات .. إن هذا المنطق هو أساس الوجود الماركسى ، ولولا الحروب والاغتيالات الداخلية التى قام بها لينين ومن بعده ستالين لظل ماركس مجرد فيلسوف كأفلاطون أو سقراط دون أن يصل بأتباعه إلى الحكم .

وقال الشاب وصوته يعلو :

– لماذا تتهم الماركسيين وحدهم بكل المصائب ؟ إن الحرب الداخلية فى لبنان لم يبدأها الماركسيون .. اليمين هناك يقتل بعضه بعضا ، واليسار يقتل بعضه بعضا ، لا كلام إلا بالرصاص ! والذين قتلوا (يوسف السباعى) لم يكونوا شيوعيين ، والذين حاولوا أربع مرات قتل إحسان عبدالقدوس لم يكن بينهم ماركسى واحد ! ونحن هنا قبل الثورة كان القتل هو إحدى وسائل التعبير عن الرأى ، وبعد الثورة كان القتل وخطف الجثث فى« الصناديق إحدى وسائل التعبير عن الرأى الرسمى إلى أن انتهت المرحلة الأولى .. لا تتهم موسكو وحدها ، إن المسدسات والقنابل والحروب الداخلية تباع فى كل الشوارع السياسية فى كل أنحاء العالم .

وقال العجوز دون أن يفقد هدوءه ولا يزال يشفق على الشاب :

– إن القتل والعمليات الداخلية لا يمكن أن تحقق هدفا .. إنها عمليات فردية .. ولكن الذى يحقق الهدف هو الثورة الشعبية .. لم يكن الضباط الأحرار يستطيعون تحقيق الثورة لمجرد أن فى أيديهم بندقية ومدفعا ، ولكن لأنهم كانوا يعبرون عن ثورة شعبية.. حتى فى أنجولا مثلا أو فى الحبشة لم يكن الشيوعيون وحدهم يستطيعون الوصول إلى الحكم إلا لأنهم كانوا يعبرون عن ثورة على حكم فاسد ..

وقال الشاب فى عصبية :

– سأهجر هذا المقهى !

وقال العجوز :

– إن هذا المقهى هو كل ما يحتاج إليه الشعب للتعبير عن نفسه ..

وقال الشاب وقد بدأ يقع فى حيرة :

– بل سأهجر المقهى !

وقال العجوز الهادىء :

– إنك تذكرنى بالشاب المسكين الذى حمل الحقيبة إلى الرئيس الغشمى وقتل بها معه ! إما أنه ضحية وإما أنه ساذج !

وسكت الشاب برهة وهو جالس لا يتحرك ثم قال :

– سأطلب الشاى على حسابك .. ما دمت تقنعنى بمنطقك يجب أن أستفيد من هذا المنطق بكوب شاى ..

وقال العجوز ضاحكا :

– هذا هو المنطق الصحيح .. تقديم الخدمات نظير الاقتناع !

٢

قال الشاب وهو يزفر أنفاسه فى زهق :

– أتمنى لو تغيرت هذه الوزارة .. كلها ..

وقال العجوز كأنه فوجىء :

– لماذا ؟

وقال الشاب فى قرف :

– لا لشىء ! لمجرد أننا زهقنا .. زهقنا من الكلام ومن الوجوه ومن الشىء الذى ينتهى دائما إلى لا شىء !

وقال العجوز مبتسما كأنه يخفف عن الشاب زهقه :

- ومن ترشح للوزارة الجديدة ؟

وقال الشاب بسرعة :

- لا أحد ! كلهم سواء ، ليس عندنا شخصية سياسية قوية قائمة بذاتها ، ويمكن أن تختلف عن غيرها ! كله يكسب ، ولكن التغيير يمكن أن يخفف من زهقنا ويجدد من أحلامنا ويمنينا بشيء جديد .

وقال العجوز ضاحكا :

- إنك تذكرنى أيام جمال عبدالناصر .. كان - الله يرحمه - يغير الوزارات لمجرد شغل الناس بشيء جديد .. لمجرد تجديد أحلامهم ! كصاحب المسرح الذى يغير المسرحية عندما يملها الجمهور حتى يجذبه إلى شباك التذاكر بشيء جديد برغم أنه لم يكن هناك فارق قط بين مسرحية ومسرحية أيام عبدالناصر ..

وقال الشاب دون أن يشارك العجوز فى ضحكته :

- لقد قلت لى مرة : إن الديمقراطية فى عمقها هى حق الوصول إلى الحكم ، فكيف يصل من يريد الوصول إلى الحكم تحقيقا للديمقراطية؟.

وقال العجوز وهو ينظر إلى بعيد كأنه يبحث عن أحلامه :

- بأن يكون قوة ..

وقال الشاب فى دهشة :

- ماذا تقصد ؟ أى قوة ؟

- وقال العجوز :

- أن يكون من يريد الوصول إلى الحكم ممثلا لقوة ، قوة شعبية طبعا ، أن تكون له شخصية سياسية تتجمع حولها الجماهير ، أو يكون حزبا يمكن أن يفوز بالأغلبية فى الانتخابات ، أو يمكن أن يسقط الحكومة القائمة بتأثير قوة الرأى العام ، وهذا ليس عندنا برغم أننا ننادى بتعدد الأحزاب .. والمقصود بتعدد الأحزاب هو تعدد القوى . ولكننا نسمح بتعدد الأحزاب ولا نسمح بتعدد القوى ، كما هو الوضع فى رومانيا وفى يوغوسلافيا وفى العراق وفى المغرب .. و .. و .. كلها دول تتعدد فيها الأحزاب ، ولكن لا تتعدد فيها القوى ولا تقوم فيها إلا قوة واحدة .. قوة زعيم واحد وقوة حزب واحد .. وهذه القوة هى التى

تنفرد بالحكم دون أن تخشى أية قوة أخرى يمكن أن تزيحها وتحكم مكانها حتى لو حاولت ذلك عن طريق الدستور ، لأنه ليس هناك تعدد فى القوى ، ولكن فقط تعدد فى الأحزاب !

وقال الشاب فى حماس :

– الماركسيون فى مصر يمكن أن يكونوا قوة .. والوفد القديم ـ ولا أقول الجديد ـ يمكن أن يكون قوة .. والإخوان المسلمون يمكن أن يكونوا قوة .. والمستقلون يمكن أن يكونوا قوة ..

وقال العجوز فى هدوء :

– لهذا كتمت أنفاس الماركسيين .. وسرح رجال الوفد .. أما الإخوان المسلمون فلا يطالبون بأن يكونوا حزبا سياسيا : أى قوة سياسية ، بل يطالبون بأن يكونوا هيئة دينية ، وحتى كهيئة لم يحصلوا بعد على اعتراف شرعى رسمى بهم ، أما المستقلون فلا يمكن أن يكونوا قوة قائمة بذاتها لأن كلا منهم مستقل عن الآخر ، فقط يمكن أن يكونوا قوة مرجحة ، أى تساهم فى ترجيح عدد أصوات حزب على حزب ..

وقال الشاب متسائلا وهو حائر تائه :

– والقوة التى تحكم ؟

وقال العجوز فى استسلام :

– هى قوة التنظيم الذى أقامه الضباط الأحرار وأصبح يمثله حزب مصر الاشتراكى أو حزب الوسط كما يعرفه الناس ، من خلال الهيئة العليا للاتحاد الاشتراكى ..

والتقط الشاب مبسم الشيشة من أمام العجوز ووضعه بين شفتيه وأخذ يشد فيها وينفث الدخان وهو سارح كأنه تائه مع حيرته ، ثم قال بعد برهة :

– إننا نتعرض الآن لأحداث جديدة تفرض التجديد فى جهاز الحكم.. وما حدث فى اليمن لا شك أنه تمهيد لاستيلاء النفوذ السوفيتى على اليمن كلها ، ومعنى هذا محاصرة السعودية من الجنوب بعد أن حوصرت من الغرب باستيلاء النفوذ السوفيتى على الحبشة ، وذلك بجانب ارتفاع نسبة النفوذ السوفيتى فى ليبيا وفى الجزائر .. وكل هذا

يحدث نتيجة تحرر مصر من هذا النفوذ السوفيتى ، وهو ما حدث فى آسيا .. فبعد سقوط انديرا غاندى التى كان النفوذ السوفيتى يطمئن ويعتمد عليها حدث إنقلاب سوفيتى فى أفغانستان فى شمال الهند.. أى لولا سقوط إنديرا غاندى لما حدث انقلاب فى افغانستان .. ولولا طرد السوفيت من مصر لما حدث ما حدث فى اليمن ولا فى الحبشة ولا فى ليبيا .. فقد كان السوفيت يستغنون بمصر عن كل هذا .

وقال العجوز وعيناه معلقتان على مبسم الشيشة الذى يحتفظ به الشاب :

– ماذا تريد أن تقول ؟

وقال الشاب :

– أريد أن أقول : إننا أصبحنا فى حالة دفاع عن النفس تفرض تجديد أسلوب الحكم ولو بوزارة ائتلافية تجمع كل الجهود وكل الآراء..

وقال العجوز وهو لا يزال يبحلق فى مبسم الشيشة :

– الائتلاف قائم فعلا تحت رئاسة اللجنة العليا للاتحاد الاشتراكى..

وقال الشاب فى زهق :

– إذن ما الحل ؟

وقال العجوز مبتسما فى رجاء :

– الحل هو أن تعيد إلىّ مبسم الشيشة حتى أستطيع أن أفكر لك !

وأعاد الشاب المبسم بسرعة وهو يعتذر قائلا :

– آسف .. ولكن من شدة تعلقنا بكم أصبحنا نحن أيضا عواجيز .. لقد ارتفع الشباب إلى مستوى الشيشة !

٣

قال الشاب وبين شفتيه ابتسامة ساخرة :

– إنى وجدت الكلمة التى يمكن أن نعبر بها عن صورتنا أمام أنفسنا وأمام العالم وهى : أننا شعب متفرج ، كل الشعوب العربية شعوب متفرجة ، نتفرج على الأحداث ، وكأى متفرج : نمر على دكان فى الشارع السياسى ونبحلق فى آخر المعروضات ، ثم ننصرف عنه

وننساه ! انظر لموقفنا مما حدث فى اليمن .. حادث اغتيال غريب لرئيس دولة أعقبه اغتيال رئيس الدولة الأخرى المتهمة باغتيال الرئيس الأول ، ثم أعلنت اليمن الجنوبية أنها ماركسية مائة فى المائة وأنها قررت أن تعيش فى حماية السوفيت. و... و .. ووقفنا نتفرج ونحن مأخوذون بغرابة الحدث ! والصحف تصدر كل يوم تعرض علينا التفاصيل المثيرة، ولو أنها لم تذكر لنا هل الحقيبة التى انفجرت وقتلت رئيس الدولة كانت حقيبة « سامسونيت » أمريكية أو حقيبة « كاردان » فرنسية أو حقيبة من ماركة روسية لم يعرف اسمها بعد ؟ وبعد أيام شبعنا من الفرجة ، وانصرفنا عن الدكان الذى يعرض منتجات اليمن ونسينا ، لم يعد فى اليمن ما يثير انتباهنا أو يتعب ذكاءنا !

ونظر العجوز إلى الشاب نظرة إعجاب وقال :

- لك حق ! إن الشعب يصبح متفرجا عندما يفقد إحساسه بمسئوليته الوطنية ، عندما لا يعيش القضية فيكتفى بالتفرج عليها ، وكل قضايانا سحبت من تحت المسئولية الشعبية وأصبحت مقصورة على المسئولية الرسمية ، ولم نكن دائما هكذا .. مرت أجيال كان الشعب خلالها يحس بمسئوليته عن كل ما يجرى حوله ويمس مصيره ، كانت المظاهرات الشعبية تنطلق لتعبر عن رأى الشعب فى قضية فلسطين ، وكانت الثورة تقوم فى مصر إذا قامت ثورة فى سوريا أو فى العراق ، كان الشعب لا يكتفى بقراءة الأخبار ، بل كان يتحرك معها ، وأذكر أنه فى أواخر الثلاثينيات قال وزير خارجية بريطانيا العظمى : إن الشعب المصرى لا يستحق الدستور ! وكان اسمه « هور » فقامت مظاهرات فى شوارع القاهرة وبقية المحافظات تجمع كل الطلبة وتهتف : « يسقط هور .. ابن التور » ومنذ أسابيع قال مناحم بيجين رئيس وزراء إسرائيل : إنه لن يتنازل عن المستوطنات التى أقامها فى سيناء فلم تنطلق مظاهرات فى الشوارع العربية تهتف « يسقط بيجين » .. و «هور» كان يمثل الاستعمار البريطانى الذى يحس به الشعب ، و «بيجين» يمثل الاستعمار الإسرائيلى الذى لا يحس به الشعب !

وقال الشاب فى سخط :

- ولكن ماذا حدث لنا وللشعوب العربية كلها ؟ لماذا أصبحنا متفرجين بعد أن كنا مسئولين ؟

وقال العجوز وهو يتنهد فى حسرة :

– زمان كانت هناك قوتان : قوة الشعب وقوة الحكومة ، أما الآن فلم تعد هناك وفى كل البلاد العربية إلا قوة واحدة ، وهى قوة الحكومة .. ووجود قوتين يفرض التوازن بينهما فى المسئولية : الشعب مسئول والحكومة مسئولة ، ولكن وجود قوة واحدة يحصر المسئولية فيها ويصبح الشعب متفرجا .. مثلا : إن من أبرز الأحداث التى تمس الإحساس الشعبى هو استغلال إسرائيل لآبار البترول التى اكتشفتها أخيرا فى خليج السويس على شواطىء سيناء ، إنه استعمار وقح والحكومة لا تستطيع شيئا إلا إذا حلت القضية كلها . أما الشعب فهو يستطيع أن يجعل منها قضية وطنية تثير العالم كله ، وتهدد مصير البترول فى العالم كله ، وتقلق مضاجع إسرائيل... ولكن للأسف .. إن الشعب المصرى قرأ الخبر، ووقف يتفرج يوما أو يومين ثم نسى أن إسرائيل تستنزف بتروله برغم كل المجاملات الرسمية التى تتبادلها الحكومتان واللقاءات التى بين الموظفين وتسمى لقاءات من أجل السلام، وليس بينها لقاء لوقف استنزاف البترول المصرى !

وقال الشاب ساخرا :

– إنك لا تزال تعيش فى أيام زمان ! أيام كانت مظاهرات الشوارع لها قيمة ، ويمكن أن تهدد بها بريطانيا وتسقط بها حكومة .. الآن أصبحت المظاهرات موضة قديمة ولا تساوى شيئا.. وقد قامت مظاهرات عالمية ضد إسرائيل حتى تنسحب من الأراضى التى احتلتها : قرار مجلس الأمن ليس أكثر من مظاهرة ، وتصريحات كارتر ومن قبله نيكسون مظاهرات على مستوى عال ، وقد أعلن أخيرا عن قرار جديد تعده الاشتراكية الدولية ولن يكون أكثر من مظاهرة أخرى ! وكل ذلك لم يؤثر فى إسرائيل ولن يضطرها إلى التراجع مترا واحدا عن الأرض التى تحتلها ! وأنت الآن تطالب الشعب بأن يفرض قوته التى ليست أكثر من مظاهرات لن تصل بنا إلى شىء ..

وقال العجوز فى هدوء :

– لقد قامت فى داخل إسرائيل مظاهرات لإسقاط بيجين .

وقال الشاب فى غيظ :

- العالم كله يتظاهر مطالبا بإسقاطه ولم يسقط !

وقال العجوز الهادىء :

- سيسقط بيجين ..

وقال الشاب المغتاظ من هدوء العجوز :

- لن يسقط إلا إذا هددت أمريكا بقطع المعونات عن إسرائيل ، بعدها سيسقط بيجين وتنسحب إسرائيل من الأراضي العربية .. أما إذا اكتفت أمريكا بالمظاهرات فلن يسقط بيجين ولن تنسحب إسرائيل !

وردد العجوز مبتسما :

- سيسقط بيجين .

وصرخ الشاب :

- وماذا الذى يجعلك متيقنا

وقال العجوز وهو محتفظ بابتسامته :

- لست متيقنا ولكنى أحلم ، لقد وصلنا إلى سن الأحلام ، وحتى أحلم أكثر بدأت أدمن الأقراص المنومة حتى أنام أكثر ..

وقال الشاب وقد بلع صرخته واستسلم لليأس :

- كلنا أدمنا الأقراص المنومة سياسيا ..

٤

قال الشاب وهو يتنهد فى ملل وفى زهق :

- إننا نعيش اليوم فى عالم الغيب ، عالم المجهول ؛ والرؤساء والسياسيون والفلاسفة والكتاب والجالسون على المقاهى كلهم أصبحوا منجمين ! كلٌ منهم يقرأ الفنجان أو يفتح الكوتشينة أو يضرب الودع أو يخطط الرمل ! كلهم منجمون يدعون قراءة الغيب ولا يستطيع واحد منهم أن يؤكد أين نقف ؟ ولا أين نسير ؟ إنما يملأون عقولنا بالخيالات والأوهام ، وأقصى ما يستطيع أن يصل إليه أحدهم هو أن يعلن أنه متفائل أو أنه متشائم ! كأن التفاؤل أو التشاؤم فى ذاته حدث كبير وليس حقنة أخرى من حقن الأوهام ، الحقن المخدرة !

وقال العجوز وهو يبادل الشاب الحسرة :

- لك حق يا ابنى .

وعاد الشاب يقول وهو يبصق كلماته :

– لماذا نستمر فى التفاوض مع إسرائيل بعد كل هذا الفشل ؟ الله أعلم .. هل ستعدل أمريكا سياستها بحيث تضمن استجابة إسرائيل لمطالب السلام : أى لمطالب مصر ؟ الله أعلم .. ما هى حقيقة العلاقات بين أمريكا وروسيا التى انتهت بأن حققت روسيا كل هذه الانتصارات فى أفريقيا وآسيا على حين أن أمريكا ساكنة ولعلها راضية ؟ الله أعلم.. ثم الوضع الداخلى : ما هى الديمقراطية ؟ الله أعلم .. ما هى الاشتراكية ؟ الله أعلم .. الله .. الله ..! إن الوسيلة (الوحيدة) التى بقيت لنا هى أن ينقلب مجلس الوزراء ومجلس الشعب والمكاتب والمقاهى السياسية إلى حلقات ذكر تستنجد بالله لعله ينتشل أصحاب الفضيلة مشايخ السياسة المصرية والعربية من عالم الغيب ويفتح عقولهم على نور الواقع الذى يعيشونه ، حتى يفكروا تفكيرا واقعيا ويتحركوا تحركات واقعية ، ويتكلموا كلاما يعبر عن الواقع لا عن أحلام الغيب !

وضحك العجوز وهو يتصور الشخصيات السياسية فى حلقات ذكر ، ثم ابتلع ضحكته وقال وهو يبتسم للشاب كأنه يخفف من حدته :

– إن الفكر والتصرف السياسى دائما إنعكاس لمعركة سواء كانت معركة حربية أو معركة تشكيلات داخلية أو معركة رأى .. والخطأ الذى نقع فيه هو أننا نريد أن نعيش السياسة بلا معارك ! إن الوضع القائم اليوم بين العرب وإسرائيل إنعكاس لمعارك حربية : معركة ٤٨ ثم معركة ٦٧ ثم معركة ٧٣ وتخلل المعارك الثلاث الكبيرة معارك كثيرة صغيرة ، وكل معركة كان لها دائما انعكاس سياسى يحدد موقف وتصرفات كل جانب .. وأنور السادات زعيم سياسى وبرغم ذلك لم يكن يستطيع أن يسترد القناة ولا أن يصل إلى مواقعنا اليوم بالسياسة إنما كان ما وصل إليه إنعكاسا لمعركة ٧٣ حتى العلاقات التى قامت بين مصر وأمريكا كانت انعكاسا لمعركة ٧٣ .. وربما كان ما وصلنا إليه هو آخر ما يمكن أن يصل إليه التقدير السياسى لمعركة ٧٣، فإذا أردنا شيئا أكثر فيجب أن نلجأ إلى معركة جديدة تحقق إنعكاسا سياسيا جديدا ..

وقال الشاب كأنه لم يفاجأ :

– إنى أعرف أن هذا رأيك بالنسبة لإسرائيل .. ولكننا نعيش داخليا أيضا ولا أحد يعرف ماذا يقول ؟ ولا ماذا يطالب به ؟ وعندما يعلن عن خطاب سيلقيه الرئيس السادات يعيش الناس كأنهم فى انتظار حكم القدر ، ويفرش المنجمون مواهبهم ويبدأون فى قراءة الفنجان وضرب الودع : سيشكل الرئيس حزبا جديدا تحت زعامته، سيتولى الرئيس تشكيل وزارة جديدة ، ستطلق حرية تكوين الأحزاب بلا شروط .. و .. و .. إلى أن يتكلم الرئيس .. وأنا أعتبر أن هذا يعتبر محنة سياسية أو لنُسَمِّه التعذيب السياسى !

وقال العجوز بهدوء :

– قلت لك : إن السياسة حتى فى الشئون الداخلية دائما انعكاس لمعارك ، وعندما تريد أن تفهم فى السياسة يجب أن تفهم أين هى المعركة وأن تفهم ما يمكن أن تنتهى إليه هذه المعركة ؟ كل التطورات الداخلية كانت انعكاسا لمعارك : الكيان السياسى القائم الآن هو نتيجة المعركة التى قادتها (ثورة ٢٣ يوليو) والتمصير الكامل الشامل لكل الاقتصاد فى مصر كان نتيجة معركة ٥٦ ، والتأميم وفرض الحراسات وكل التصرفات العنيفة التى لجأت إليها الثورة كانت انعكاسا لتغير الموقف الدولى بين الرأسمالية الأمريكية والشيوعية السوفيتية ، ثم كانت إنعكاسا لحالة الدفاع عن النفس التى أعقبت هزيمتنا فى معركة الوحدة مع سوريا عام ٦١ .. وكان التطور فى نظم الحكم عام ٧١ انعكاسا للمعركة مع مراكز القوى القديمة .. و .. و .. إلى أن وصلت بنا انعكاسات المعارك الداخلية إلى إقامة الأحزاب .. ثم .. قامت معركة بين هذه الأحزاب قادها فى جانب حزب الوفد وحزب التجمع ، ومفروض أن حزب مصر كان يقود الجانب الآخر ، وبدلا من أن تستمر هذه المعركة باعتبارها معركة طبيعية انعكست سياسيا بوضع دستور جديد لتشكيل الأحزاب أسكت به حزب الوفد وحزب التجمع ، وما يمكن أن يحدث اليوم انعكاس سياسى لهذا الدستور : هل يتقرر التمسك به أو العدول عنه ؟

وقال الشاب مقاطعا :

- والنتيجة هى أننا لا نستطيع استرداد الأرض إلا بمعركة حربية ، ولن نستطيع الاستقرار الداخلى إلا بمعركة داخلية : أى بثورة ..

وقال العجوز فى هدوء :

- أبدا .. إن المعركة ليست دائما حربية ، وليست دائما ثورة ، المهم هو أن تستمر دائما روح المعركة : أى تستمر روح المعركة بيننا وبين إسرائيل حتى ننتصر سياسيا ، وتستمر روح المعركة بين بعضنا وبعض حتى نحدد خطوط الديمقراطية وخطوط الاشتراكية ..

وقال الشاب فى استخفاف :

- إن المعركة بيننا وبين إسرائيل معركة بين قوتين ، ولكنك سبق أن قلت : إنه فى الداخل ليس هناك إلا قوة واحدة ، قوة الحكومة ..

وقال العجوز فى هدوء :

- كلامنا قوة حتى لو كان مجرد كلام مقاهى !

٥

قال العجوز وصدره منتفخ وعلى شفتيه ابتسامة غرور كأنه يعلن انتصاره :

- يا ابنى ، إن كلام المقاهى هو الكلام الذى يمكن أن ترى من خلاله مستقبل هذا البلد ، هل تذكر عندما تكلمنا منذ أكثر من ثلاث سنوات حول تشكيل الأحزاب ؟ لقد كان من رأينا أن يتولى أنور السادات زعامة ورئاسة حزب الأغلبية .. وسمع أنور السادات كلامنا وبرغم أنه كان يبدو مقتنعا فإنه اعتذر عن زعامة الحزب حتى يبقى فوق التحزب أبا لجميع أفراد العائلة السياسية ، ولكنه اقتنع أخيرا وأعلن عن توليه رئاسة الحزب ..

وقال الشاب وهو أقل غرورا من العجوز :

- إن ما يحيرنى الآن هو مصير حزب مصر ..

وقال العجوز فى إصرار

- يجب أن يبقى حزب مصر ..

وقال الشاب وهو أكثر حيرة ..

- كيف يبقى ؟ إنه حزب الأغلبية : فهل تنسحب منه الأغلبية لتنضم

لحزب السادات ويصبح حزب مصر من أحزاب الأقلية . أو يحتفظ حزب مصر بالأغلبية ، ويؤلف السادات حزب أقلية ؟

وقال العجوز وهو أشد إصرارا :

- يبقى حزب مصر مع تغيير رئاسته : أى أن يصبح أنور السادات هو رئيس حزب مصر العربى الاشتراكى ..

وقال الشاب الحائر :

- وأين يذهب ممدوح سالم ..؟

وقال العجوز فى ثقة كأنه المسئول عن التخطيط :

- ممدوح سالم يبقى رئيسا للوزارة وعضوا فى الحزب .. إن رئاسة الحزب لا تفرض رئاسة الوزارة : أى يمكن أن يكون هناك رئيس للحزب ورئيس للوزارة من أعضاء نفس الحزب .. بل إن هذا هو الوضع الصحيح لنظام الحكم فى مصر ..

وصاح الشاب فى عصبية :

- إنى لا أفهم فلسفتك السياسية ..

وعاد العجوز يقول فى هدوء :

- حاول أن تفهمنى .. إن الخطأ الذى وقعنا فيه هو أننا فرقنا بين الزعامة الشعبية والرئاسة الحزبية .. ربما لأننا تصورنا أنه يمكن أن تجمع الزعامة بين الأربعين مليونا من المصريين بلا معارض واحد .. وحتى نحتفظ بهذا التصور رفعنا الزعامة فوق الأحزاب .. وبما أنه يجب أن يكون هناك حزب أغلبية ، وبما أننا فصلنا هذا الحزب عن الزعامة فقد اخترنا له رئاسة ، رئاسة تنفيذية لا زعامة شعبية ، ولهذا اخترنا (ممدوح سالم) مرشحا لهذه الرئاسة باعتبار أنه من أقوى وأنظف الشخصيات التنفيذية ، ولأن تاريخه الوطنى كله تاريخ تنفيذى لا تاريخ زعامى .. وكان هذا هو الخطأ الذى وقعنا فيه ، لأنه أعطى حزب مصر صورة الحزب التنفيذى لا الحزب الشعبى .. وهى صورة شوهت المظهر الديموقراطى ؛ وجعلت الحزب عاجزا فعلا عن قيادة الشعب ، لأن زعيم الشعب لا ينتمى إليه .. وكان الحل الوحيد هو أن يمثل الحزب الزعامة والرئاسة معا : أى أن يصبح الزعيم هو الرئيس ..

وقال الشاب وقد عاد إلى حيرته :

– ولكن حـزب مصـر أصبح له مـاض لا يمـثل رئاسة السـادات وأفـضل أن يكون السادات رئـيسـا لحزب آخـر ، حـزب جديد يحـمل السادات مسئوليته كاملة منذ يومه الأول ..

وقال العجوز فى لهجة رفض عنيف :

– هذا سيكون خطأ أكبر من الخطأ الأول !

وقال الشاب فى براءة :

– لمـــاذا ؟

وقال العجوز : .

– لأن حزب مـصر يمـثل الأغلبيـة وأنور السادات تـرتبط زعامـته وهذه الأغلبيـة ، بل إن المعروف أن حزب مـصر فاز بهذه الأغلبـية لأنه حزب السـادات .. لو أن الشعب اعـتقد أن حـزب التجـمع ـ أى الحزب اليسارى ـ هو الذى كـان يمثل السادات لفاز حزب التجـمع بالأغلبية .. فإذا حـدث بعد ذلك أن نقلت هذه الأغلـبية من حـزب مصـر إلى حزب جديد أصـبحت كأنها أغلـبية شخـصية لا أغلبـية مبادىء وتنظيـمات ، أغلبيـة لا رأى لها ، أغلبيـة لا موقف لها ، أغلبـية متـهمة بأنهـا تعيش مستسلمة فى غباء منذ أن انضمت إلى حزب مصر ، ولذلك فمن السهل أن نشـدها من حـزب إلى حزب بحكـم زعامـة السـادات .. إن احتـرام الأغلبية اليوم احترام لحزب مصـر .. فإذا استهنا بحزب مصر كتنظيم فقد اسـتهنا بالأغلبية ، وأنـا لا أقول هذا دفاعا عن حزب مـصر ، إننى الوحـيد من رواد المقـاهى السيـاسيـة الذى لم يتصل به الحـزب ، لأنه يعـرف رأيى فـيه مـنذ يومه الأول ، ولكـنى أتكلم دفـاعا عن احـتـرام التنظيمات والمؤسسـات القائمة وقبل أن تصبح مؤسـسات تقوم بكلمة و « نشوطها » ونستغنى عنها بكلمة !

وقال الشاب وهو ساهم :

– وكيف يتم كل ذلك ؟

وقال العجوز فى عصبية :

– المفروض أن يكون كل ما يحدث هو تعـديل فى رئاسة وتنظيمات حزب مصر وليس انقلابا حزبيا .

وقال الشاب وهو لا يزال ساهما :

- على كل حال لو أصبح السادات رئيسا للجمهورية ورئيسا للحزب فكيف تستطيع المعارضة أن تتكلم أو تتنفس ..؟

وقال العجوز :

- إن المعارضة ليست معارضة لمركز السادات ، ولكنها معارضة سياسية حتى لو عارضت سياسة السادات ..

وقال الشاب الحائر :

- وهل يقبل السادات هذه المعارضة ؟

وقال العجوز مبتسما :

- أعتقد .. إن السادات شخصية أخرى غير شخصية عبدالناصر، لا تنس إنه عاش عمره الطويل معنا فى هذا المقهى ، وبالمناسبة أطلب (شاى) .. إن السادات على أيامنا كان شريب شاى ، وأريد أن أحييه بجلسة شاى .

أغسطس ١٩٧٨

١

كان الشاب جالسا صامتـا وعيناه منطلقتان إلى بعيد وبين شفتيـه ابتسامة ضعيفة .. ولكزه العـجوز فى كتفه وقال ضاحكا :

– لم أتعودك صامتا ! ما الذى أسكت لسانك ؟

وقال الشاب مبتسما :

– إنى أخرف !..

وقال العجوز مداعبا :

– ما الذى يدعوك إلى التخريف ؟

وقال الشاب :

– مللت الكلام .. العالم كله يتكلم مـعنا وعنا ، ولا شىء يتحقق من الكلام ، فـقـررت أن أسكت عن الكلام المبـاح ، وأكـتفى بالتـحـدث إلى نفسى . والحديث إلى النفس يغرى بالتخريف ..

وقال العجوز :

– وإلى أين وصل بك تخريفك ؟

وقال الشاب :

– إلى الصلح المنفرد مع إسرائيل !

وقال العجوز كأنه يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ..

– هذا فعلا تخريف ..

وقال الشاب مبتسما :

- كل الأفكار تبدأ كأنها مستحيلة ، وأنت تعرف أن إسرائيل تتمنى أن تحقق صلحا منفردا مع مصر ، ولكن السادات يرفض .. لماذا يرفض ؟ حتى لا يقال : إنه تخلى عن دول المواجهة أى عن سوريا والأردن .. ولو كانت إسرائيل على مستوى أرقى من الذكاء السياسى لاستطاعت أن تفرض الصلح المنفرد على مصر ..

وقال العجوز فى دهشة :

- كيف تفرض إسرائيل الصلح المنفرد ؟

وقال الشاب وعيناه تلمعان كأنه اكتشف المستحيل :

- بأن تنسحب من سيناء من تلقاء نفسها وبلا مفاوضات . وبهذا تعفى السادات من الحرج أمام الدول العربية الأخرى ، وتكسب التخلص من متاعب الجانب المصرى .. لن تكون لمصر مطالب بعد هذا الانسحاب ولا قضية مباشرة مع اسرائيل .. والسادات لا يمكن أن يرفض هذا الانسحاب .. لا يمكن أن تطلب مصر من إسرائيل البقاء فى سيناء إلى أن تقرر موقفها من الجولان ومن الضفة الغربية ما دامت تنسحب بلا شروط ، تنسحب لمجرد أنها قررت ألا تبقى .

وقال العجوز ساخرا :

- إنك فعلا تخرف ..

وقال الشاب فى حماسة :

- أنا لا أخرف ، ولكنى أرسم صورة جديدة للذكاء الإسرائيلى.. إن إسرائيل لو انسحبت من سيناء بلا مفاوضات وبلا معاهدة فإنها تسترد قيمتها أمام العالم كله ! ستقول : إنها انسحبت من سيناء لأن مصر هى الدولة العربية (الوحيدة) التى دخلت معها مفاوضات مباشرة وأنها تنسحب تقديرا لمبادرة السادات وزيارته للقدس .. ولو زار الأسد القدس لانسحبت من الجولان . ولو زارها حسين لانسحبت من الضفة الغربية .. وهى بذلك فى الوقت نفسه تضمن رفع درجة حرارة الوقيعة بين البلاد العربية بعضها وبعض..

وقال العجوز ساخرا :

- لو كان الذكاء الإسرائيلى كما تتصوره لما وجدت إسرائيل أصلا ! كيف تريدها أن تنسحب بلا معاهدة ؟ كيف تريدها أن تترك الحرية

للقوات المصرية حتى تصل إلى حدودها وتفرض قوتها عليها ؟.

وقال الشاب بسرعة :

– إن القوات المصرية مقيدة باتفاقية الفصل بين القوات ، ولن تطلب إسرائيل إلغاء هذه الاتفاقية . إنها فقط ستأخذ قواتها خارج حدود سيناء ..

وقال العجوز كأنه قرفان من عقلية الشاب :

– ومن يضمن لإسرائيل ألا تتقدم القوات المصرية حتى الحدود، وتلغى من جانبها هذه الاتفاقية ؟..

وقال الشاب بسرعة :

– أمريكا هى الضامنة .

وزفر العجوز أنفاسه فى ضيق وقال :

– يا بنى كن واقعيا .. إن ما تقوله لا يعتبر صلحا منفردا . ولكنه يعتبر من جانب إسرائيل موقف سلام .. مجرد موقف .. وقد قيل : إننا طلبنا من إسرائيل أن تتخذ هذا الموقف وتجلو عن العريش عاصمة سيناء وإن إسرائيل رفضت .. ثم يجب أن تحمى نفسك من عقلية الذين يطالبون بالصلح المنفرد وهم كثيرون فى مصر .. إن الصلح المنفرد معناه أن تقف بجانب إسرائيل فى كل أطماعها وتسكت على احتلالها للجولان وللضفة الغربية .. وإسرائيل لن تترك سيناء بلا ثمن .. مناحم بيجين أعلن هذا وقال : إنه لن يترك شبرا من الأرض بلا ثمن .. والثمن هو أن تستسلم لشهوات إسرائيل ! وبالمناسبة .. فإن اتفاقية الفصل بين القوات تنتهى فى أكتوبر القادم أى بعد شهرين ..

وقال الشاب فى ذعر :

– وماذا يمكن أن يحدث فى أكتوبر ؟

وقال العجوز وهو ينظر إلى بعيد كأنه تائه يبحث عن طريق :

– إما أن تجدد الاتفاقية ، وإما أن تعود حالة الحرب بكل مقوماتها كما كانت قبل عام ٧٣ ..

وقال الشاب فى إلحاح :

– وماذا ترجح ؟

وقال العجوز : إن كل ما أنا مقتنع به هو أن السلام ليس فى

مصلحة إسرائيل ! وستبقى رافضة للسلام حتى لو اجتمع العالم كله عليها مادام العالم يكتفى بالكلام ! ودعنا الآن من هذا الموضوع وتعال نتحدث عن الأحزاب الجديدة .

وقال الشاب وهو يقفز منصرفا :

– تقصد أن نبدأ فى قزقزة اللب حتى ننسى مصيبة أرضنا المحتلة.. لا ، قزفز وحدك ودعنى أعيش فى خيال أفكارى وأحلم بأننا جررنا سيناء ..

٢

قال الشاب وهو يقلب شفتيه فى قرف :

– أتمنى لو أن الدول العربية كلها اجتمعت وقررت تأجيل موضوع إسرائيل ..

وقال العجوز بلا اهتمام :

– ماذا فى موضوع إسرائيل يستحق التأجيل .؟

وقال الشاب وهو أكثر قرفا :

– الموضوع كله : التفكير فى السلام والتفكير فى الحرب والاستعانة بأمريكا أو الاستعانة بروسيا أو الاستعانة بمجلس الأمن .. و .. مجرد التفكير فى الاحتلال الإسرائيلى يجب أن يؤجل..

وقال العجوز فى استرخاء .

– لماذا ؟

وقال الشاب القرفان :

– لأن المعارك السياسية كالمعارك الحربية لا يمكن أن تبدأها إلا إذا كانت الظروف فى مصلحتك .. وكل الظروف الآن فى مصلحة إسرائيل وليست فى مصلحة العرب ..

وقال العجوز وكأنه يتثاءب :

– تقصد الظروف الدولية ؟

وقال الشاب وكأنه يبصق كلماته :

– بالعكس : إن الظروف الدولية فى مصلحة العرب ولكن متى كان العرب يحتفظون بما هو فى مصلحتهم .؟ إنهم متخصصون فى الهرب

من مصالحهم والارتماء فى كل ما يقضى عليهم كأنهم من هواة الانتحار ! ربما طمعا فى الجنة .. الجنة بعد الموت .!

وقال العجوز وكأنه بدأ يهتم :

– لا أفهمك ! إذا كانت الظروف الدولية فى مصلحتنا فلماذا تنادى بتأجيل موضوع إسرائيل .؟

وقال الشاب المغلول :

– لأن ما يجرى داخل البلاد العربية يجعل إسرائيل هى الأقوى.. لا أقصد القوة العسكرية ، ولكنى أقصد قوة المنطق السياسى .. إننا نعطى إسرائيل المنطق الذى تهزمنا به ! مثلا : إننا نقول : إن المشكلة بيننا وبينهم هى مشكلة فلسطين ، وإن الجلاء عن سيناء وعن الجولان لن يحل المشكلة ولكن يجب أولا أن يكون للفلسطينيين دولة ، وتبتسم إسرائيل وهى تستعرض حال الفلسطينيين ..إنهم يقتلون بيد العرب ! ثم يقتل بعضهم بعضا ! وترفع إسرائيل سلاح المنطق السياسى أمام العالم كله : كيف تريدون أن نعطى هذا الشعب دولة وهو لا يستطيع أن يعيش فى سلام بين أهله العرب ؟ فكيف يستطيع أن يعيش فى سلام بين الغرباء من بنى إسرائيل ، وأنور السادات يذيب عمره وهو واقف وحده يطالب بالجلاء عن كل الأراضى العربية المحتلة ؟ وتستند إسرائيل فى راحة على المنطق السياسى وتقول للعالم : إنه وحده فكيف نتفق معه على مصير أرض لا سلطان له عليها ؟. كيف نتفق معه على مصير الضفة الغربية أو على مصير الجولان فى حين أنه ليس مفوضا لا من ياسر عرفات ولا من الملك حسين ولا من الرئيس الأسد .؟ إن كل ما يستطيع التفاوض بشأنه هو الجلاء عن سيناء ولكنه يرفض الجلاء عن سيناء وحدها ، يرفض الصلح المنفرد ، فاعذرونا يا عالم ! ويضعف حماس العالم أمام هذا المنطق ..

وقال العجوز فى بساطة كأنه لم يسمع جديدا :

– ولهذا تريد من كل القيادات العربية أن تؤجل البحث فى موضوع إسرائيل ؟

وقال الشاب فى حماس :

– هذا هو الحل الوحيد حتى نتفرغ لتحقيق السلام بين بعضنا

وبعض ، السلام بين العرب . وإذا لم نستطع أن نحقق السلام العربى فلا يمكن أن نحقق السلام بيننا وبين إسرائيل إذا عجزنا عن تحقيق السلام بيننا وبين ليبيا أو بين الجزائر والمغرب أو بين العراق ومنظمة التحرير أو بين عمان واليمن الجنوبية ؟ وإذا كنا فى هذا المستوى من التأخر السياسى ومن الأخلاق السياسية الذى يجعلنا لا يفهم بعضنا البعض ونحن نتكلم لغة سياسية مشتركة فكيف يمكن أن نتفاهم مع من يتحدث إلينا بلغة سياسية غريبة أجنبية ؟.. لا شك بأنك مقتنع معى أن مواجهة مشكلة واحدة أسهل من مواجهة مشكلتين فى وقت واحد .. والمفروض أن نواجه مشكلتنا داخل العالم العربى أولا ..

وقال العجوز فى هدوء :

– لا ، لست مقتنعا ..

وصرخ الشاب فى سخط :

– لماذا ؟ كيف تفكر ؟

وقال العجوز الهادىء :

– أفكر بحكم الواقع وبحكم التاريخ .. إن هذه الحالة التى نعيشها اليوم هى نفس الحالة التى كنا نعيشها من قبل أن تقوم دولة إسرائيل وتقف على قدميها .. كان الفلسطينيون داخل فلسطين منقسمين على أنفسهم كما هم اليوم ! كان فى فلسطين أحد عشر حزبا فلسطينيا عربيا يتناحرون سياسيا ويتقاتلون بأشد مما يتقاتلون ويتناحرون مع اليهود ! فى حين كان اليهود برغم تعدد تنظيماتهم السياسية والعسكرية موحدين تحت قيادة الوكالة اليهودية التى كانت قائمة أيامها .. وكانت الدول العربية ممزقة كما هى ممزقة اليوم .. كان العراق أيام نورى السعيد يقف نفس الموقف الذى يقفه أيام صدام حسين ، وكانت سوريا تقف نفس الموقف ، والملك عبدالله يقف نفس موقف الملك حسين فى الأردن ، وقرأت أيامها من يقول : « ضاعت فلسطين » وكان ذلك قبل أن تضيع فعلا بأربع سنوات !

وقاطعه الشاب صائحا فى عصبية :

– لو أننا تفرغنا أيامها لحل مشكلتنا وحدها لما ضاعت فلسطين!

وقال العجوز فى استرخاء :

– أبدا ، كانت قد ضاعت بلا ضجة .. كل ما كسبناه هو الضجيج وهو أفضل من الصمت فالصمت هو الموت ..

وقال الشاب ساخطا :

– إن هناك بين العرب من يستغل هذا الضجيج لتحقيق أطماع شخصية سافلة ..

وقال العجوز فى استسلام :

– وهناك أيضا من يعمل جادا وسط هذا الضجيج .. فإذا أسكتنا الضجيج فما وجدنا السافل ولا الجاد .. بل إن نسيان مشكلة إسرائيل ينسيك مشكلتك .. إن ضغط وقوة المأساة هى التى تدفعك إلى إصلاح نفسك كالمريض إذا نسى مرضه فلن يداويه ..

وقفز الشاب وانطلق يجرى مبتعدا وهو يصرخ :

– هذا كلام عواجيز ! يجب أن نحمى أنفسنا أولا من العواجيز ..

٣

قال الشاب وهو يفتح شفتيه عن ابتسامة واسعة :

– إنى متفائل ..

وقال العجوز وهو ينظر إليه فى استهانة :

– قلت لك : إن التفاؤل والتشاؤم هما الاعتماد على الغيب أو على الحظ : أى على مواهب التنجيم وقراءة الفنجان وضرب الودع واستقراء الكوتشينة .. فعود نفسك أن تفكر بلا تفاؤل ولا تشاؤم ..

وقال الشاب وهو لا يزال مبتسما :

– إن الفكر السياسى يقوم على الترجيح بين النتائج ، فإذا رجحت النتائج التى فى مصلحتك فهذا هو ما يدفعك إلى التفاؤل .. وأرجوك : دعنى أتمتع بتفاؤلى ..

وقال العجوز فى إشفاق :

– لقد تعودنا التمتع بالأوهام كمدمنى الحشيش ! فتمتع بأوهامك ..

وقال الشاب فى حماس :

– إنها ليست أوهاما .. إنها أحداث ..

وقال العجوز :

– أى حدث تقصد ؟

وقال الشاب المتحمس :

– اجتماع كامب ديفيد ، إنها المرة الأولى التى يعلن فيها كارتر مسئوليته ومسئولية أمريكا كشريك فى الموقف .. شريك كامل ..

وقال العجوز فى استخفاف :

– شريك من : شريك مصر أم شريك إسرائيل ؟

وقال الشاب وقد بدأ يضيق بمقاطعة العجوز له :

– طبعا شريك إسرائيل ، وقد اختلف الشريكان : أمريكا تريد السلام وإسرائيل ترفضه ، وكانت أمريكا تردد أنها لا ذنب لها فإسرائيل هى التى ترفض . ولكنها اليوم لا تستطيع أن تتهرب من المسئولية .. إن الذنب ذنبها ، فإذا رفضت إسرائيل السلام فعلى أمريكا أن تفرضه .. إن كارتر بنفسه هو الذى سيشترك فى المفاوضات ..

وقال العجوز فى هدوء :

– صدقنى : لو كان لدى كارتر حل نهائى لاستطاع أن يصل إليه عن طريق مندوبه فانس أو أثرتون ، وعندما يجلس كارتر بين السادات ومناحم بيجين فإنه يقدر أنه يجلس بين قوتين ، وعليه أن يرجح موقفا لأمريكا بين القوتين اللتين ثبت أنهما لا يمكن أن تصلا إلى اتفاق بينهما .. إلا إذا فرضت أمريكا نفسها على إحداهما : فهل يفرض كارتر نفسه على بيجين أو يفرض نفسه على السادات ، وهو لا يستطيع أن يفرض نفسه على بيجين إلا بالتهديد بمصالح إسرائيل ، لأن إسرائيل تعتمد اعتمادا كاملا على أمريكا ، أما إذا خيب أمل السادات فهو لا يملك إلا الاعتذار ، لأن السادات لا يمثل القوة المعتدية ؟

وقال الشاب فى حيرة :

– وماذا ترجح ؟

وقال العجوز وهو يشد أنفاس الشيشة :

– لا أستطيع أن أرجح موقفا لأمريكا : فظروف المصالح الأمريكية متعارضة : أولها موقف أمريكا فى مواجهة التسلل الروسى داخل أفريقيا وآسيا . وإسرائيل لا تزال تعتبر مركز القوة الضاربة الأمريكية فى المنطقة : أى أن أمريكا تستطيع أن تعتمد على إسرائيل فى مواجهة

روسيا ، وفى الوقت نفسه فإن مصر من ثم تمثل قوة ضاربة أكثر حرية من قوة إسرائيل : أى أنها قوة تستطيع أن تتحرك لتضرب فى الصومال أو فى السودان أو فى أى مكان يصل إليه الروس : فأيهما تريد أمريكا أن تعتمد عليه أكثر : قوة إسرائيل أم قوة مصر ؟

وشد العجوز نفسا من مبسم الشيشة واستطرد قائلا :

- ثم هناك ارتباط الحالة الداخلية الأمريكية بإسرائيل ومصر : إن إسرائيل داخل أمريكا تمثل قوة السيطرة السياسية والاقتصادية والدعائية المركزة فى اللوبى اليهودى ، ولها ذراع طويلة فى انتخابات الرياسة التى ستبدأ فى العام القادم ، ومصر تمثل داخل أمريكا قوة البترول العربى ورءوس الأموال العربية التى أصبحت تمثل جانبا كبيرا من مستوى اقتصاد أمريكا وخصوصا أن أهم دول البترول كالسعودية والكويت ودول الخليج أصبحت تؤيد مبادرة السادات تأييدا علنيا .. فأى موقف يستطيع أن يتخذه كارتر بين القوتين ؟ هل يستطيع أن يجازف بنفسه فى الانتخابات القادمة فيرشح نفسه حتى لو تخلى عنه اليهود ؟ وهل يستطيع أن يفرض إرادته على مجلسى الشيوخ والنواب اللذين يسيطر عليهما اللوبى اليهودى ، أو ينتهى بالاعتذار للرئيس السادات دون أن يخاف هروب البترول العربى ورءوس الأموال العربية من أمريكا ؟..

وصاح الشاب :

- لماذا لا يستطيع أن يوفق بين الطرفين بضمان مصالح إسرائيل مع تحقيق مطالب السادات ؟

وقال العجوز فى يأس :

- لا يمكن أن تقبل إسرائيل شيئا إلا بالتهديد .. العالم كله لا يصدق أن إسرائيل يمكن أن تقبل السلام بمبادىء السلام ، يجب أن يفرض عليها السلام ، حتى إن أحدا لم يصدق أن كارتر دعا إلى اجتماع كامب ديفيد إلا لأن هناك خطرا يهدد المنطقة ، فقيل : إن المخابرات الأمريكية اكتشفت أن مصر ستحارب معركة جديدة فى أكتوبر القادم ، وأن القوات المصرية تتحرك فعلا استعدادا للمعركة.. وقيل أيضا : إن إسرائيل تواجه كارتر بالتهديد بالزحف على لبنان الذى لا تزال تحتفظ

تحت سيطرتها بالمنطقة الجنوبية منه أو ما تسمى (منطقة جنوب الجنوب) . وأمريكا لا تريد حربا أخرى فى المنطقة حتى لا تترك مجالا أوسع للتسلل الروسى ..

وصاح الشاب فى غيظ :

- إنك تحيرنى ! قل لى : هل أنت متفائل أم متشائم ؟

وقال العجوز ساخرا :

- أنا لا أتفاءل ولا أتشاءم .. إنى أدخن الشيشة وأنتظر .!

٤

قال الشاب ووجهه مكفهر فى غضب وشفتاه مقلوبتان فى قرف :

- هل سمعت ما يقوله بيجين .؟

وقال العجوز باستخفاف :

- لم يعد يهمنى ما أسمع .. بعد كل هذه السنوات أصبحنا نعرف ما يقال قبل أن يقال !

وقال الشاب فى غضب :

- إنه يرفض اعتبار أمريكا شريكا كاملا فى المسئولية برغم أن كارتر نفسه أعلن أنه أصبح يتحمل مسئولية الشريك الكامل .. وبيجين يرفض أيضا أن تتقدم أمريكا بمشروع سلام من جانبها برغم أن كارتر نفسه قال : إنه سيحاول أن يتقدم بمشروعات أمريكية .. إن كلام بيجين يعنى أنه يريد أن يطرد أمريكا من العملية كلها لتبقى مقصورة بين مصر وإسرائيل ..

وقال العجوز بلا مبالاة :

- ولماذا تغضب أنت نيابة عن أمريكا ؟ إذا كان بيجين يرفض كلام كارتر ويرفض تدخل أمريكا فاترك الأمر لكارتر وأمريكا .. يغضبان أو لا يغضبان ..

وقال الشاب فى حدة غضبه :

- إن أمريكا اليوم هى السلاح الوحيد فى الشرق الأوسط : سلاح السلام وسلاح الحرب ، ويجب أن نعرف وضع هذا السلاح، وهل هو فى يدنا أو فى يد إسرائيل أو أنه سلاح يقف بيننا على الحياد : أى بلا

قيمة .. يمكن أن تنتهى بنا إلى حل ؟
وضحك العجوز ضحكة ساخرة وقال :
- هل تريد أن تعرف موقف أمريكا كما تفسره إسرائيل .؟
وقال الشاب القرفان :
- قلنا : إن إسرائيل لا تريد أن تتدخل أمريكا ..
وقال العجوز الساخر :
- لا ، ليس هذا هو الموقف .. إنه موقف قائم على أن إسرائيل تعتبر نفسها الزوج ، زوج أمريكا ، وتعتبر أن مصر هى العشيق الجديد الذى يحاول أن يغرى أمريكا بالخيانة الزوجية ، ولو راجعت كل الكلمات التى تنطلق من إسرائيل لوجدتها كلمات بمنطق ولهجة الزوج الذى يحذر زوجته من أن ترتكب جريمة الخيانة ! والأعجب من ذلك أنك لو راجعت الكلمات التى تنطلق من مصر لوجدتها بمنطق ولهجة العشيق الذى يعذر الزوجة عندما تضطر إلى إرضاء زوجها ومسايرته .. ونحن نكرر الاعتراف بالوضع الخاص لإسرائيل بالنسبة لأمريكا كأنه وضع الزوج بالنسبة لزوجته .. ونكرر الاعتراف بمسئولية أمريكا عن أمن إسرائيل .. أمن بيت الزوجية ..
وقاطعه الشاب فى سخط قائلا :
- أعمل (معروف) .. ليس هذا وقت التريقة والنكات ..
وقال العجوز وابتسامته لا تزال واسعة :
- أنا لا أتتريق ولا أنكت .. إنى أحلل العقلية الإسرائيلية تحليلا واقعيا .. إن إسرائيل تعتقد أن استجابة أمريكا لمطالب مصر خيانة زوجية .. وإن أمريكا لا تستطيع أن تتزوج مصر وهى زوجة لإسرائيل وإلا ارتكبت جريمة ينص عليها قانون الأحوال الشخصية.. ولا تستطيع أن تطلق إسرائيل لتتزوج مصر ، لأن الرئيس كارتر رئيس متدين لا يمكن أن يقدم على الطلاق ! وهذا المنطق هو الذى يطمئن إسرائيل ويجعلها تقدم على اجتماع كامب ديفيد باستهانة كأنها مقدمة على اجتماع فى بيت الزوجية يحضره ضيف متعب !
- وقال الشاب وهو يغتصب ابتسامة مرة :
- لعل هذا هو الذى دعا كارتر إلى الاعتراف بأن أمريكا مسئولة

مسئولية كاملة .. مسئولية الزوج .. ولكن قل لى : ما هى المسئولية الكاملة ؟

وقال العجوز جادا :

– المسئولية الكاملة هى أن تكون مسئولا عن النتائج ولست فقط مسئولا عن التمهيد لها ..

وقال الشاب فى لهفة :

– وماذا تنتظر من نتائج اجتماع كامب ديفيد أى معسكر داود ..

وقال العجوز فى مرارة :

– إن السيد داود صاحب المعسكر سيصاب بخيبة أمل ! إن مناحم بيجين سيرفض مطالب السادات ، والسادات سيرفض مطالب بيجين وسيتقدم كارتر بحل وسط يرفضه بيجين والسادات..

وقال الشاب فى هلع :

– وماذا يحدث بعد ذلك ؟

وقال العجوز وهو يزفر فى أسى ..

– إن كارتر يقول : إنه لو فشل اجتماع كامب ديفيد فقد تقوم الحرب فى المنطقة .

وقال الشاب المتلهف :

– وماذا يكون عليه موقف أمريكا من هذه الحرب ..

وقال العجوز :

– إن هارولد براون وزير الدفاع الأمريكى قال : إن إمداد إسرائيل بالأسلحة متوقف على نتائج الاجتماع وهو ما فهمه البعض على أنه إذا فشل الاجتماع فستتوقف أمريكا عن إمداد إسرائيل بالسلاح : أى تتركها تحارب وحدها .

وقال الشاب :

– وهل تصدقه ؟. هل تصدق أن أمريكا تترك إسرائيل وحدها ؟

– وقال العجوز فى استهانة :

– إنه على الأقل تصريح يمكن أن يفسر على أنه تهديد لإسرائيل حتى تسمع الكلام ..

وقال الشاب فى حيرة :

- وهل تقبل إسرائيل التهديد ؟

وقال العجوز فى زهق :

- لا أدرى ! لقد سبق أن صرح وزير الدفـاع الأمريكى السابق بأن تسليح إسرائيل يعتبر عبئا على الميـزانية الأمريكية ، وكانت النتيجة أن طرد الوزير من الوزارة نتيجة هذا التصريح ، وقد يطرد الوزير الحالى أيضا .. من يدرى ؟

وقال الشاب فى زهق :

- إنك تحيـرنى أكثـر ، دعنا من هذا الموضـوع .. تعال نتـحدث عن موضوع آخر ..

وقال العجوز وهو يرفع مبسم الشيشة إلى شفتيه :

- أفضل أن تتركنى للشيشة .. إن أحاديث المقاهى أصبحت مملة ..

سبتمبر ١٩٧٨

١

قال الشاب وهو يزفر أنفاسه فى زهق :

- لا أدرى ماذا يمكن أن يقول بيجين فى هذا الاجتماع أو ماذا يمكن أن يقول السادات أو حتى ما يمكن أن يقوله كارتر ؟.. هل يعود بيجين ويستشهد بالتوراة على إثبات حق اليهود ؟ .. وهل يرد عليه السادات مستشهدا بالقرآن وأن بيت المقدس هو أولى القبلتين ؟ .. وهل يستشهد كارتر بالإنجيل ليوفق بين الطرفين ؟.. أى هل يناقشون القضية من أولها لاكتشاف أين الحق ويعيدون كلاما يعرفه الثلاثة مقدما ؟.

وقال العجوز وابتسامته تحمل معنى اليأس :

- يا ابنى ، هذا الاجتماع لا يناقش الحقوق ، إنما هو أقرب إلى صالة مزادات مغلقة ، بيع وشراء : فإسرائيل تعتبر نفسها تبيع السلام ، ولا تبيعه للعرب وحدهم ولكنها تبيعه للعرب ولأمريكا وللدول الغربية ، وإذا لم تحصل على الثمن الذى تريده فهى ليست فى حاجة إلى السلام ، وهذه هى المشكلة التى يدور عليها الكلام فى اجتماعات كامب ديفيد .. إسرائيل لا تشترى السلام ولكنها تبيعه ، فكم تدفعون ؟

وقال الشاب فى غيظ :

- لقد قلنا : إننا سندفع لإسرائيل عودة العلاقات الطبيعية بيننا وبينهم : أى نتعامل مع إسرائيل كما نتعامل مع تركيا واليونان .. قلنا : هذا الكلام برغم أننا كنا نقول عقب حرب ٧٣ : إننا حتى مع إعلان

السلام فإن جيلنا لن يكون هو الجيل الذى يقيم علاقات دبلوماسية مع إسرائيل ، هل تذكر ؟

وقال العجوز متنهدا فى يأس :

– أذكر .. وهو ما يدلك على ما تتعمده إسرائيل .. إنها كلما رفضتك أعطيتها أكثر ! لقد كنا أولا لا نعطيها إلا الاعتراف بإنهاء حالة الحرب ، فرفضت ! وأعطيناها الاعتراف بوجودها ، فرفضت ! ووصلنا إلى حد أن أعطيناها حق إقامة علاقات طبيعية بينها وبين الدول العربية ولا تزال ترفض !

وقال الشاب فى غيظ :

– إذن ماذا يريد هؤلاء المجانين ؟

وقال العجوز ساخرا :

– إنهم ليسوا مجانين إنهم أخطر عقلاء .. ومن خطورتهم أنهم لا يعلنون أبدا ما يريدونه .. وما يصرحون به مجرد كلام يعلمون مقدما أنه لا يؤدى إلى شىء .. هل سمعت كلام بيجين قبل كامب ديفيد؟.. لقد كان يقول : إنه يريد فتح باب التعامل مع مصر تمهيدا للوصول إلى حل . أى التعامل بلا حل .. وضرب مثلا بالعلاقات التى قامت بين فرنسا وألمانيا عقب الحرب : أى أنه يضع مصر فى مستوى ألمانيا بالنسبة لفرنسا .. كأن إسرائيل هزمت مصر هزيمة كاملة واحتلت كل أرضها كما احتل الحلفاء ألمانيا ! وكان المفروض عقب هذا التصريح أن ترفض مصر إلى الأبد التفاوض مع بيجين .. ولكننا اعتبرناها نكتة قالها بيجين خفيف الدم ، وذهبنا لنجلس معه فى كامب ديفيد، ولو أننا فى الواقع لا نجلس معه هناك ولكننا نجلس مع كارتر..

وقال الشاب فى استخفاف :

– وماذا يمكن أن يصل إليه كارتر ؟

وقال العجوز بلا مبالاة :

– إنه سيدفع ..

وقال الشاب متعجلا :

– ماذا يدفع ؟

وقال العجوز اليائس :

– تذكر ما حدث عند فك الاشتباك الثانى .. كانت إسرائيل تريد ثمن التراجع بقواتهـا بضعة كيلو متـرات .. لم يكفها أن تقيم أمـريكا جهاز إنذار مبكر فى سيناء .. ولم يكفـها أن تتعهد لها إيران بتغطية حـاجتها من البترول بعد أن تجلو عن آبار أبو رديس .. ووصلت إلى أن دفع لها كيسنجر أى أمريكا مليارين من الدولارات كمجرد هبة .. بقشيش !

وقال الشـاب ساخرا :

– إذا كـانت أمـريكا قـد دفـعت مليـارين من الدولارات لتـتـراجع إسـرائيل بضـعة كـيلو مـتـرات فكم تدفع لتنسـحب إسـرائيل من كل الأراضى العربية ؟

وقال العجوز ضاحكا :

– هذا ما تحدده بورصة كامب ديفيد ..

وقال الشـاب فى زهق :

– إننا لم نسمع عما يدور فى كامب ديفيد .. ماذا يقولون ؟

وقال العجوز :

– تيقن أنه ليس فيما يمكن أن يـقولوه جديد .. الجديد هو ما يمكن أن يصلوا إليه .. وأنا مـتيقن أنهم سـينتهون .. بفضل إصـرار كارتر .. إلى شىء ولكنه ليـس كل شىء .. وقد قـيل : إن كـارتر مـصـمم على النجاح حتى يتـوازن مع نجاح نيكسون فى إعادة العـلاقات مع الصين وفى وقف حرب فـيتنام .. وقد نجح كارتر فى حل مـشكلة قناة بنما ، ويريد أن ينجح أيضـا فى حل مـشكلة الشرق الأوسط .. وإذا تذكـرت فـإن العلاقـات بين أمريكا والصـين لم تبـدأ كاملة مـباشـرة بل بدأت بمجرد الاعتراف دون تبادل التمثيل الدبلوماسى على مستوى السفراء.. ثم إن قناة بنما انتهت بمعاهدة مـدتها ٢٥ عاما : أى أنه لم تحدث حلول جذرية فـى اتفاق واحد .. هـذا ما يمكن أن ينتـهى إليه اجـتمـاع كامب ديفيـد : أى الاتفاق على مبـادىء دون الوصـول إلى الحلول النهـائية ، ونترك هذه الحلول للزمن ..

وقال الشـاب فى شك :

– هل يمكن الاتفاق على مبادىء ؟

وقال العـجوز ضـاحكا :

– إذا تكلمنا مع بيجين على اعتبار أنه سياسى وصاحب مبادىء فلن نصل إلى شىء .. أما إذا تكلمنا معه على أنه تاجر فقد نصل إلى شىء .. إن الرئيس النمساوى نفسه قال : إن بيجين ليس سياسيا ولكنه صاحب دكان بقالة سياسية !

وقال الشاب كأنه تائه :

– وإذا لم نصل بهذا التجمع إلى شىء .. أى إذا فشل .. فماذا يمكن أن يحدث ؟

وقال العجوز فى يأس :

– إن فشل كامب ديفيد فى مصلحة إسرائيل : أى أن فشل كامب ديفيد نجاح لإسرائيل ، فإن الفشل قد يؤدى إلى هبوب تيارات عنيفه على الشرق الأوسط ، ويومها ستحتاج أمريكا أكثر إلى إسرائيل لمواجهة هذه التيارات فتسكت عن الضغط عليها ..

وقال الشاب فى حيرة :

– ولكن النجاح أيضا سيؤدى إلى أن ندفع كثيرا إلى إسرائيل ..

وقال العجوز مبتسما :

– ليست مصر وحدها هى التى تدفع ، فإن نجاح كامب ديفيد متعلق بالوضع فى أفريقيا كلها ، ومصر ليست وحدها المسئولة عن أفريقيا ، والخطر الشيوعى لا يهدد مصر وحدها ولذلك لن تدفع مصر وحدها ..

وارتفع صوت الشاب :

– ولكن أن ..

وقاطعه العجوز قبل أن يتم :

– دعنا من هذا الموضوع ولننتظر يومين ، وبعدهما نسمع مَا يجيب عن تساؤلاتك ويريح لسانك .. أطلب الطاولة .. سألاعبك محبوسة حتى أعينك وتعيننى على حبس أفكارنا وحبس ألسنتنا وحبس أوهامنا !

٢

قال الشاب وهو يتنهد فى زهق :

– بقى يومان وتبدأ حرب الأعصاب ..

وقال العجوز وهو ينفث دخان الشيشة فى متعة :

– أعصاب من ؟

وقال الشاب فى أسى وكأنه يشفق على نفسه :

– أعصابنا نحن زبائن هذا المقهى وكل من يعيش معنا على رصيف هذا الشارع .. بعد يومين تبدأ محادثات معسكر داود ، أقصد كامب ديفيد وتبدأ عيوننا تبحلق فيما نقرؤه ، وآذاننا تتسع لما نسمعه ، وعقولنا ترتجل الاستنتاجات والتحاليل السياسية ، وأعصابنا تثور وتهدأ وتشد وترخى وترتفع أسعار الأقراص المنومة والمهدئة والأقراص المنشطة ، ونصبح كأننا فى شارع المجانين ! وعلى فكرة : أنا لست موافقا على ما سبق أن قلته ..

وقال العجوز الهادىء :

– ماذا قلت ؟

وقال الشاب فى حدة :

– قلت : إن المؤتمر سينتهى إلى فشل : فالاقتراحات التى يعرضها السادات سيرفضها بيجين ، والاقتراحات التى يعرضها بيجين سيرفضها السادات ، والاقتراحات التى يعرضها كارتر .. سيرفضها السادات وبيجين .. وأنا لست مقتنعا بهذا الكلام ، إنك تتجاهل أن هذا الاجتماع دعا إليه كارتر ، ولا يمكن أن يدعو إليه ويراهن عليه بكل قيمتها السياسية إلا وهو يعلم مقدما ما يمكن أن يصل إليه السادات ، وما يمكن أن يصل إليه بيجين ، وما يمكن أن ينتهى إليه الاجتماع .. ولا يمكن أن يكون كارتر قد جازف إلى حد احتمال الفشل وخصوصا أن الانتخابات الأمريكية ستجرى هذا العام .. وفشل الاجتماع يؤدى إلى مصيبة انتخابية تقع على دماغ كارتر ..

وقال العجوز وهو يرفع مبسم الشيشة عن شفتيه :

– بالعكس : إن من أقوى احتمالات الفشل هو أن كارتر هو صاحب الدعوة ..

وقال الشاب فى دهشة :

– ماذا تقصد ؟

وقال العجوز :

- يجب أن نبدأ بتقدير العلاقات السياسية بين السادات وكارتر.. ثم العلاقات السياسية بين بيجين وكارتر .. أو على الأصح موقف سياسة كارتر بين العرب وإسرائيل .. إن كارتر مقتنع بأن المصالح الأمريكية مرتبطة بالعرب أكثر من ارتباطها بإسرائيل ، وأنه يجب لحماية المصالح استرداد ثقة العرب فى أمريكا خصوصا وأن أمريكا تواجه عاصفة سوفيتية قوية تجتاح آسيا وأفريقيا .. وأقوى طريق لاسترداد ثقة العرب هو أن تستغل أمريكا ارتباطها بإسرائيل وتقنعها بإعادة الأرض العربية التى اغتصبتها .. ولا شك أن العرب يؤيدون هذه السياسة الكارترية ، ويتمنون نجاح مؤتمر كامب ديفيد ، لأن نجاحه هو نجاح كارتر ونجاح كارتر هو نجاح لهم .. ولكن إسرائيل تقف من سياسة كارتر موقفا عكسيا .. إنها تعتبرها سياسة معادية ، وإن كارتر يجب أن يذهب كما ذهب من قبله نيكسون ، وكما يجب أن يذهب كل رئيس لأمريكا يتصور أن هناك تعارضا بين المصالح الأمريكية وأطماع إسرائيل .. وقد حاولت إسرائيل كثيرا أن تضعف كارتر .. سلطت عليه مجلس الشيوخ ومجلس النواب وأثارت حوله عدة فضائح سياسية كأنها تحاول أن تعيد حكاية ووترجيت .. وهى الآن تملك سلاحا جديدا لضرب كارتر وهو هذا الاجتماع الذى دعا إليه .. اجتماع كامب ديفيد .. ولا يمكن إلا أن تصر على الفشل.. فشل كارتر .. حتى تتخلص منه ومن دوشته ..

وقال الشاب فى حدة وكأنه قرفان من تشاؤم العجوز :

- لا شك أن كارتر قد حسب حساب كل ذلك ..

وقال العجوز مبتسما ليخفف من حدة الشاب :

- يا ابنى ، إن المعركة الأشد داخل هذا الاجتماع ليست معركة بين السادات وبيجين ، ولكنها معركة بين كارتر وبيجين .. والمعارك معرضة دائما للمفاجآت ولا يمكن أن تحكم مقدما على نتائجها .

وقال الشاب متحديا :

- لقد سبق أن دخل كارتر معركة مع إسرائيل وانتصر .. إنها معركة صفقة الأسلحة للسعودية ومصر .. هل تذكر ؟ إن كل عملاء إسرائيل فى مجلس الشيوخه عارضوا هذه الصفقة.. وتحداهم كارتر..

بل إنه كان أول رئيس أمريكى يجمع بين إسرائيل والسعودية ومصر فى قرار واحد خاص بصفقات الأسلحة : إما أن يوافق المجلس على الصفقات الثلاث ، وإما أن توقف الصفقات الثلاث ! وانتصر كارتر .. وكما انتصر فى صفقات الأسلحة فلا بد أنه قادر على النصر فى كامب دافيد ..

وقال العجوز ساخرا :

– قل : إن شاء الله ..

وقال الشاب ساخطا :

– لا يبدو عليك الاقتناع .. قل لى : ماذا تنتظر أنت ؟ تكلم ..

وقال العجوز فى هدوء :

– إن كل ما أنتظره هو أن ينتهى الاجتماع بإعادة استمرار المحادثات السياسية والعسكرية بين مصر وإسرائيل .. وبهذا يحتفظ كارتر بكيانه السياسى دون أن نكون انتهينا إلى شىء ..

وصرخ الشاب :

– هذا كلام سبق لك أن قلته .. قل شيئا جديدا ..

والتقط العجوز مبسم الشيشة وقال وهو يدير ظهره للشاب :

– إنك تعتبر أن هذا الشارع على وشك أن يصبح شارع المجانين ! والمجانين هم الذين يريدون فى كل يوم كلاما جديدا .. وأنا لست من مجانين هذا الشارع .. أنا من عقلاء السياسة .. والعقلاء يقولون اليوم ما كانوا يقولونه من ثلاثين عاما .. دعنى سأتركك للجنون !

٣

قال الشاب وهو يلوى شفتيه فى قرف :

– لقد مضى علينا أسبوع متعب وكان يجب على الحكومة أن تخفف عنا هذا التعب .. أن تلهينا عن التفكير فى اجتماعات كامب ديفيد ، التى كانت كأنها اجتماعات جمعية سرية تخاف البوليس فتحرص على أن تخفى نفسها وتخفى ما يدور فى اجتماعاتها ! وكان كل واحد فينا يفكر كأنه أحد عباقرة البوليس السياسى يحاول أن يكتشف ما يدور هناك ، وأن يتخيل كل كلمة يمكن أن تقال .. ولو كانت الحكومة

حريصة على أعصابنا لأقامت لنا في كل يوم مباراة في كرة القدم وأثارت المعارك بين الزمالك والأهلى . أو لاستمرت في تقديم الفوازير حتى بعد انتهاء رمضان ، أو لتركت مطرب الشعب - أقصد عدوية - يغنى أربعا وعشرين ساعة حتى نستجير منه ونعلن معركة لإسكاته .. أو .. أو .. حتى نهرب بذلك من شخصية البوليس الذى كان يحاول أن يعرف ما يدور فى كامب دافيد !

وقال العجوز ضاحكا :

أنا شخصيا لم أشعر بتعب ولا شكوت من أعصابى ربما لأنى عشت عمرا طويلا فى دنيا مفاوضات السلام ، وأعرف مقدما أن أية مفاوضات مع مستعمر لا يمكن أن تنتهى : عشت مفاوضات مع بريطانيا بدأت عام ١٨٨٢ ولم تنته إلا عام ١٩٥٤ ولم تصل إلى نتيجة إلا بحرب ١٩٥٦ ، ثم انظر إلى المفاوضات التى تدور بشأن روديسيا .. مضى عليها عشر سنوات ولم تنته إلى شىء ! والمفاوضات مع جنوب أفريقيا التى تعتبر أقرب الحلفاء مع إسرائيل .. مضى عليها سنوات .. و .. و .. إنى كلما تتبعت مفاوضات من هذا النوع لم يهمنى ما يجرى بين المتفاوضين ، ولكنى أسلى نفسى بتخيل ما يمكن أن يحدث بعدها سواء نجحت أو فشلت ..

وقال الشاب وهو زهقان من فلسفة العجوز :

- وماذا كنت تتخيل أن يحدث بعد كامب ديفيد ؟

وقال العجوز ساهما :

- كنت أتخيل أنه سواء انتهت مفاوضات كامب ديفيد إلى نجاح أو فشل فسيعقبها حتما أحداث ومعارك عنيفة قاسية فى العالم العربى ..

وقال الشاب مقاطعا :

- كيف تحدث معارك بيننا إذا تحقق النجاح ؟

وقال العجوز هادئا :

- لأن النجاح يعنى هزيمة الاتحاد السوفيتى وانهيار دول الرفض التى ترتبط به ، فتكون النتيجة أن يقفوا موقف التحدى أو على الأقل موقف الدفاع عن النفس فيثيروا نوعا من المعارك الجانبية العنيفة حتى يفسدوا هذا النجاح ، ويشدوا الشعب العربى بعيدا عنه ..

وقال الشاب كأنه يسخر من فلسفة العجوز :

- وكيف كنت تتخيل ما يمكن أن يحدث بعد الفشل ؟

وقال العجوز كأنه يسخر من كل ما يدور حوله :

- نفس الشيء .. فإن أمريكا ستضطر أن تدافع عن نفسها ضد اتهامها بالضعف والعجز ، والدول العربية التى اعتمدت على أمريكا ستحاول هى الأخرى أن تدافع عن نفسها ، وتقوم معارك جانبية لتبرير هذا الفشل ولصد الهجوم الذى تقوم به دول الرفض استغلالا للموقف .. لقد قلنا لكم : إنه لا أمل ، فلماذا لم تسمعوا كلامنا .؟ وقلنا لكم : إن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة ، فلماذا تفضحوننا بالدخول فى مفاوضات سلام ؟ و .. و .. كل هذا يمكن أن يقال وينتهى بمعارك .

وقال الشاب بلا مبالاة :

- وكيف كنت تتخيل الطريق لتجنب هذه المعارك .؟ لا شك أن الذين كانوا يفكرون فى كامب ديفيد كانوا يتخيلون هم أيضا كما تتخيل أنت، فكيف كان يمكن أن ينتهى الخيال إلى تجنب المعارك بين الشعوب والدول العربية ؟

وقال العجوز وهو لا يزال ساخرا :

- الطريق هو تجنب النجاح والفشل : أى لا نجاح ولا فشل .!

وقال الشاب فى دهشة :

- كيف ؟ ماذا تعنى ؟

وقال العجوز مبتسما :

- أى الاحتفاظ بقوة الاستمرار .. استمرار الاتصالات واستمرار الأمل .. وهو استمرار يضمن تأجيل الأزمة والمعركة ..

وقال الشاب وهو يتنهد فى سخط :

- على كل حال إننا لم نقرأ بعد ما انتهى إليه كامب ديفيد .. إننا نتحدث اليوم والعالم كله لا يزال يعيش أيام السرية ..

وقال العجوز :

- ربما بعد ساعة أو بعد يوم ترفع السرية ويبدأ النشر ، فاقرأ ودقق حتى نكتشف قيمة الكلام الذى نقوله الآن .. وعلى كل حال .. بعد أيام سنكون مشغولين بموضوع آخر ..

وقال الشاب متسائلا :
- أى موضوع ؟
وقال العجوز ساخرا :
- موضوع الديمقراطية ..
وقال الشاب فى حماس :
- هذا موضوع مثير .. ما رأيك فى معنى الديمقراطية ؟.
وقال العجوز وهو ينظر إلى الشاب فى إشفاق :
- كل ما يهمنى هو ألا تتصور أن الديمقراطية تعنى أن يكون للشيشة مبسم واحد ندخن منه أنا وأنت .. هذه ديمقراطية ضارة وتنقل المرض من فم إلى فم حتى يصبح المرض وباء يصيب كل الناس ..
وقال الشاب وهو محتفظ بحماسه :
- لا أفهمك !
وقال العجوز وهو يمد يده ويلتقط مبسم الشيشة :
- كل ما يهمنى الآن هو أن تترك مبسم الشيشة لى وحدى ، وأطلب لنفسك شيشة أخرى ومبسما آخر .. هكذا تحلو جلسات الشيشة ..

٤

قال الشاب فى تراخ وكسل كأنه تعب من كثرة ما تكلم :
- إن ما يحيرنى هو أن يتحمل الرئيس كارتر وحده كل مسئولية السلام فى الشرق الأوسط .. ويتحمل المسئولية معه الرئيس السادات وحده أيضا .. ثم مناحم بيجين وحده .. إن الرئاسات تنفرد بالمسئولية .. فأين الديمقراطية ؟ لقد قرأنا أنه كانت (زمان) تقوم بالمفاوضات وفود كاملة قد تمثل كل الآراء والاتجاهات .. ثم أين وزراء الخارجية ؟. لماذا تفشل المفاوضات بين فانس وإبراهيم كامل وديان وتنجح بين كارتر والسادات وبيجين ؟ والواقع أنى أشفق على الرؤساء أن يحملوا أنفسهم كل هذه المسئولية أكثر مما أشفق على الديمقراطية ..
وقال العجوز بلا مبالاة :

– إن العالم كله أصبح يعتمد على لقاءات القمم : أى على انفراد الرؤساء بالمسئولية ..

وقال الشاب فى حيرة :

– لماذا ؟ ماذا حدث للديمقراطية ؟

وقال العجوز فى هدوء :

– الديمقراطية بخير .. الذى حدث هو تطور النظم الديمقراطية .

– وقال الشاب مستمرا فى حيرته :

– من الذى طورها ؟ وبأى حق ؟

وقال العجوز بعد أن شد دخان الشيشة وأطلقه فى الهواء :

– تطورت الديمقراطية مع تطور مراكز الحضارة السياسية : كان مركز الحضارة (زمان) فى بريطانيا وفى فرنسا ، فكانت كل دول العالم تختار نظامها السياسى أو نظام الحكم .. إما تقليدا لبريطانيا وإما تقليدا لفرنسا .. وكان هذا النظام يقوم على ديمقراطية توزيع المسئوليات بحيث لا ينفرد حاكم بالحكم ، ولكن مراكز الحضارة السياسية انتقلت مع الأحداث إلى أمريكا وروسيا ، وهى حضارة تركز المسئولية فى شخص الحاكم ، فأصبحت كل الدول الأخرى يقوم نظامها السياسى نقلا عن النظام الأمريكى أو النظام السوفيتى ..

وقال الشاب :

– تقصد النظام الرئاسى ..

وقال العجوز :

– إنهم فى روسيا لا يسمونه نظاما رئاسيا ..

وقال الشاب وقد بدأت حيرته تنقلب إلى سخط :

– ولكن الحاكم فى هذه النظم مسئول أمام من ؟ من يحاسبه ؟..

وقال العجوز وهو يبتسم له كأنه يطيب خاطره :

– هنا تتعدد النظم والأشكال : إن الرئيس الأمريكى مسئول أمام مجلس الشيوخ والنواب ، والرئيس الروسى مسئول أمام اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ، وانظر إلى الدول العربية : إنها كلها تطبق النظام الرئاسى : أى أن رئيس الدولة هو المسئول ، ولكن كلها تختلف فى تحديد هذه المسئولية وفى تحديد الجهة التى يعتبر الحاكم مسئولا أمامها .. بعضها تعتبر الحاكم مسئولا أمام البرلمان، وبعضها تعتبره

مسئولا أمام أفراد عائلته ، وبعضها لا تعتبر الحاكم مسئولا أمام أحد إلا أمام الله وأمام ضميره .

وقال الشاب وهو يقلب شفتيه :

– أنا لا أوافقك على أن كل بلاد العالم تطبق هذه الديمقراطية ! هناك دول لا تزال تعيش عهد الديمقراطية القديمة العريقة كالهند مثلا ..

وقال العجوز ساخرا :

– إن ديمقراطية الهند ديمقراطية مريضة عجوز مهلهلة .. ولذلك حاولت أنديرا غاندى أن تطورها إلى ديمقراطية النظام الرئاسى .. إن ديجول هو نفسه الذى يمثل حضارة الديمقراطية الفرنسية القديمة طور هذه الديمقراطية وأصبحت أقرب إلى الديمقراطية الرئاسية ..

وقال الشاب وهو يتنهد فى يأس :

– على كل حال .. إن الذى جرنا إلى هذا الموضوع هو حديثنا عن كامب ديفيد .. وأنت لم تقل لى رأيك فيما انتهى إليه الاجتماع .

وعاد العجوز يشد دخان الشيشة ثم قال :

– إننى قبل أن أسأل نفسى ماذا كسبنا أسألها ماذا خسرنا ؟ إننا لم نخسر شيئا ، أما المكسب وأقصد استعادة أرضنا . فإنى لا اعتبر أنه تحقق إلا بعد أن نضع يدنا فعلا على الأرض .. فأنا لا أكتفى بالكلام حتى لو كان كلاما مكتوبا .. وبصراحة أنا لا أثق فى بيجين ولا فى كل أفراد الهيئة العسكرية التى تحكم إسرائيل . المهم ما رأيك أنت ؟

وقال الشاب وهو يدير ظهره للعجوز :

– رأيى أنها مسئوليتكم أنتم .. أنتم العواجيز .. ولن أحدد رأيى إلا بعد أن يصبح جيلنا هو المسئول .. نحن الشباب ..

وقال العجوز ضاحكا :

– تقصد أنك لن تقول رأيك إلا بعد أن تصل إلى سن الشيشة .. وهى سن تصبح فيها الآراء مجرد دخان كدخان الشيشة ! لذلك نقولها ونحن مطمئنون ! فدعنى أدخن آرائى !

أكتوبر ١٩٧٨

١

قال الشـاب فى حماس فـرح وبين شفتـيه ابتسـامة واسعة :

- إن أهم ما حققناه هو أننا أثبتنا أن فكرنا السياسى أصـبح يقـوم على مـبدأ مـصـر أولا .. كـانت كل الدول العربيـة تضع نفسهـا أولا .. الكويت أولا .. العراق أولا .. ليبـيا أولا .. سوريا أولا .. ما عدانا نحن .. نحن وحدنا الذين كنا نضع مصيرنا فى آخر قـائمة الحـساب .. مـصر أخـيرا .. ونحن الذين جـعلنا كل الدول العربيـة تضعنا فى آخر القـائمة ، لأننا كنا نصدق أننا الزعـماء .. وأننا الأبطال . والزعيم هو الـذى يتحمل مـسئوليـة التضـحية ، والبطل هو الذى يستشـهد ..

وقال العجوز وابتسامته أضيق من ابتسامة الشاب :

- لقد سـبق أن قلنا هذا الكلام ، وقلت لك : إن مصر عندمـا تحصر فكرها فى نفـسها فـإن هذا الفكر ينعكس على كل العـالم العربى ، لأن قوة مـصر هى قوة العـرب .. وضعف مـصر هو ضعف العـرب ، وقد قـامت (ثورة ٢٣ يوليو) وهى تؤمـن بشعـار « مصـر أولا » .. فكان الجيش قد خاض معركة ٤٨ دون أن يحسب حساب مصر ، بل كان كل الفكر فكرا عاطفيا ينحصر فى مستقبل فلسطين ، وكانت تحركه شـهوة فاروق لأن يكـون خليفـة للمسلمـين وزعيـما للعـرب .. وكانت مـصر وحدها هى التى خـسرت فى حرب ٤٨ .. العـراق لم يحارب .. سـوريا

لم تحارب .. الأردن لم يحارب .. لبنان طبعا لم يحارب .. وحدنا حاربنا وهزمنا .. وقامت الثورة وهى مصممة ألا تكرر نفس الخطأ .. وألا تتحرك إلا بعد أن تحسب حساب مصر أولا .. إلى أن أصيب جمال عبدالناصر بنفس شهوة الزعامة العربية ومارس مسئوليات هذه الزعامة على حساب مصر فكانت الهزيمة (الثانية) ..

وقال الشاب كأنه يهتف :

– ولكن مصر ستبقى دائما زعيمة العالم العربى ..

وقال العجوز من خلال ابتسامته الضيقة :

– هذا صحيح ، ولكن هناك فارقا بين زعامة مصر وزعامة حاكم مصر : أى زعامة الواقع والزعامة الشخصية .. إن زعامة مصر تفرض على الفكر أن يحسب أولا حساب مصر ، أما الزعامة الشخصية فدائما تكون على حساب مصر.. والحمد لله إن أنور السادات يحمل مسئولية زعامة مصر أولا ولن يقامر بمصر فى سبيل زعامة شخصية .. وهذا هو ما يجعله لا يبالى بموقف بعض الرؤساء العرب فى مواجهته ، لأنه لا يبالى بزعامته الشخصية عليهم ، ولكنه يبالى بزعامة مصر .. إنه شخصية أخرى غير شخصية جمال عبدالناصر ..

وقال الشاب فى فرح :

– والنتيجة أن مصر استطاعت أن تصل إلى اتفاقية لو تحققت فسيخرج من أرضها كل جندى أجنبى ..

وقال العجوز فى هدوء :

– وسينعكس ذلك على كل الأرض العربية المحتلة لأن مصر هى الزعيمة ..

وصمت الشاب برهة ثم قال فى تردد :

– ولكن .. قل لى : هل هذه الاتفاقيات أو المعاهدات تبقى كما هى إلى الأبد ..؟

وقال العجوز فى دهشة :

– ماذا تقصد ؟

وقال الشاب وهو لا يزال مترددا :

– مثلا .. هل يبقى القيد على تحركات القوات المصرية داخل سيناء إلى الأبد ؟..

وقال العجوز مبتسما :

– أبدا .. إن كل الاتفاقيات والمعاهدات تتطور مع تطور الأحداث وتطور العلاقات ، ليس فى التاريخ كله معاهدة عاشت العمر كله : هل تذكر معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا التى وقعها مصطفى النحاس باشا وأطلق عليها اسم معاهدة الشرف والاستقلال ؟ لقد كانت هذه المعاهدة تنص على استمرار الاحتلال البريطانى لمنطقة قناة السويس وعاشت خمسة وعشرين عاما ومصر معترفة بهذا الاحتلال ، وبعدها ألغى مصطفى النحاس بنفسه هذه المعاهدة ، ثم جاء جمال عبدالناصر ووقع معاهدة جديدة مع بريطانيا تنص على جلاء كل القوات البريطانية على أن يكون لها حق العودة واحتلال القناة فى حالة احتمال الحرب أو تهديد الحدود التركية ، وبعد خروج آخر جندى بريطانى من مصر بأيام فقط أممت القناة ووقع الاعتداء الثلاثى على مصر وطبعا ألغيت المعاهدة التى وقعها عبدالناصر .. يا ابنى كل المعاهدات معرضة للتطور تحت ضغط الأحداث أو العلاقات ..

وقال الشاب فرحا :

– أى أن هذه الاتفاقية بعد أن تصبح معاهدة يمكن أن تتطور ..

وقال العجوز بسرعة :

– طبعا .. إن أقل ما يمكن تصوره هو أن هذه الاتفاقية تنص على إقامة العلاقات الطبيعية بين مصر وإسرائيل ، والعلاقات لا يمكن أن تكون طبيعية إذا قامت على وضع شروط لتحرك قوات كل من الجانبين على أرضه .. إن فرنسا وبلجيكا لا تشترط كل منهما على الأخرى مثل هذه الشروط ، ولا تركيا وسوريا ، ولا أية دولة على حدود دولة أخرى .. المهم أولا هو إقامة هذه العلاقات الطبيعية ..

وقال الشاب فى حيرة :

– هل تعتقد أن العلاقات ستكون طبيعية بين مصر وإسرائيل ؟

وقال العجوز وهو يزفر أنفاسه :

– ليس فورا .. إننا فى حاجة إلى وقت طويل حتى نطمئن ونثق فى النيات ..

وقال الشاب وقد استعاد حماسه :

- على كل حال أنا موافق على هذه الاتفاقية ..
وقال العجوز فى هدوء :
- المهم ألا تكون قد وافقت تخلصا من الماضى ، بل أن توافق وأنت مطمئن إلى المستقبل ، مستقبل مصر ..
وقال الشاب ضاحكا :
- لك حق .. دعنا نشرب كوكاكولا فى صحة كارتر ..
وقال العجوز مبتسما :
- الكوكاكولا ممنوعة ..
وقال الشاب الضاحك :
- لا تذكرنى بالماضى ..

٢

قال العجوز وهو ساهم كأنه يفكر فى مشكلة عويصة :
- إن ما نحتاج إليه هو عبقرية الخبث السياسى ..
وقال الشاب فى دهشة :
- تريدنا أن نكون خبثاء .. هذه أول مرة أسمعك تحرض على الفسق السياسى ..
وقال العجوز مبتسما :
- الخبث ليس فسقا .. الخبث ليس الكذب وليس الاحتيال .. الخبث هو فقط أن تضع ما تريده فى صيغة يقبلها الطرف الآخر حتى لو لم يكن على استعداد لأن يقبلها .. الخبث هو فن العرض .. فن اللغة السياسية التى تتعامل بها ..
وقال الشاب وهو لا يزال فى دهشته :
- ماذا ذكرك بموهبة الخبث الآن ؟
وقال العجوز وهو يزفر أنفاسه كأنه يستجير بربه :
- ذكرنى أننا مقبلون على التعامل مع أخبث الخبثاء .!
وقال الشاب فى لهفة :
- تقصد من ؟
وقال العجوز وهو يلتفت إلى الشاب كأنه يلومه على جهله :

– طبعا أقصد ساسة إسرائيل .. إنهم عباقرة الخبث السياسى ، كل تحركات الصهيونية منذ بدأت وكل تحركات إسرائيل منذ وجدت اعتمدت على اختيار الصيغ السياسية التى يتعاملون بها مع العالم.. اعتمدت على فن الكلام .. حتى الحروب قامت اعتمادا على تحديد الصيغة وعلى فن الكلام .. لماذا نحارب ؟ .. ولماذا كيت وكيت ؟ وهذا هو الخبث السياسى ..

وقال الشاب الساذج :

– ولكننا لا نفكر فى الحرب الآن .. فما حاجتنا إلى الخبث ؟..

وقال العجوز ضاحكا :

– إن حياة السلام فى حاجة إلى الخبث السياسى أكثر من حاجة الحرب ..

وقال الشاب فى حيرة :

– وفيم تريد استغلال هذا الخبث السياسى لو افترضنا أن الله منحنا موهبة الخبث ؟..

وقال العجوز فى جدية :

– لو تم تحقيق كل ما جاء فى اتفاقية كامب ديفيد فإننا بعدها نعيش فى قضيتين : القضية الوطنية والقضية الاقتصادية .. والقضية الوطنية هى الأسهل .. والصعب هو القضية الاقتصادية .. كل إمكانات القضية الوطنية فى يدنا .. وأنا واثق أنه بعد عام واحد ستبدأ المطالبة الوطنية باستكمال السيادة المصرية على سيناء .. والسيادة تعنى الحرية الكاملة للوجود وللحركة .. نحن الذين نحدد شكل الوجود ومجال الحركة فى مساواة كاملة مع جيراننا بما فيهم إسرائيل .. لن نبقى طويلا مستسلمين لما فرض علينا حتى لو كنا قد سبق أن قبلناه ، وهذا ما حدث أيام الاستعمار البريطانى بعد تصريح فبراير وبعد معاهدة ٣٦ وبعد اتفاقية الجلاء .. أما القضية الاقتصادية فشىء آخر .. شىء صعب ..

ورفع العجوز مبسم الشيشة إلى شفتيه يشد الدخان والشاب يصيح به :

– كيف ؟ لماذا تفرق بين القضية الوطنية والقضية الاقتصادية؟

وقال العجوز وهو يزفر الدخان :

– لأن القضية الاقتصادية ليست قضية أرض ، ولكنها قضية تعامل، كيف نتعامل اقتصاديا مع إسرائيل بعد أن تقوم بيننا علاقات طبيعية ؟ ولا شك أن إسرائيل تعتبر أن أهم ما وصلت إليه هو فتح السوق المصرية .. وهم أصحاب مراكز اقتصادية عالمية علاوة على مواهبهم المعروفة كيهود ، وقد نجد أنفسنا دون أن ندرى .. قد وقعنا تحت سيطرة الاستعمار الاقتصادية كما كنا أيام الاحتلال البريطانى .. كان المصريون أيام الاحتلال البريطانى كلهم مزارعين ولا علاقة لهم بالتجارة والاقتصاد .. وكان الأجانب وحدهم هم الذين يسيطرون على الاقتصاد حتى أن طلعت حرب اعتبر بطلا وطنيا لمجرد أنه استطاع أن يفتح بنكا مصريا ..

وقال الشاب فى حدة :

– ولكننا تغيرنا عما كنا عليه أيام الاحتلال البريطانى .. إن بيننا الآن علماء فى الاقتصاد وعباقرة فى التجارة ..

وقال العجوز وهو يبتسم فى حسرة :

– ولكننا لم نصل بعد إلى مستوى الخبث الإسرائيلى .. الخبث السياسى .. والخبث الاقتصادى .. والخبث التجارى ! ثم إننا نضع المبادىء دون أن تكون لدينا العقلية والتنظيم الإدارى الذى يمكن به تنفيذ وتحقيق هذه المبادىء .. تذكر ما حدث عندما أطلقنا مبدأ الانفتاح الاقتصادى .. فى يومين وجدنا مصر كلها قد انقلبت إلى شارع الشواربى ! وأصبح الانفتاح يعنى فساتين كريستيان ديور وشيكولاتة كادبورى .. دون أن نقيم الإدارة التى تضمن أن يكون الانفتاح انفتاحا إنتاجيا .. وهذا ما أخشاه اليوم .. أن نجد مصر قد غرقت فى البضائع الاستهلاكية الإسرائيلية بعد يومين من إعلان العلاقات الاقتصادية .. دون أن تكون هناك إدارة خبيثة تحسب حساب ما تعطى وما تأخذ ..

وقال الشاب فى حدة :

– إن ما تسميه خبثا نسميه نحن علما .. لسنا فى حاجة إلى خبثاء ولكننا فى حاجة إلى علماء .. علماء فى الاقتصاد وعلماء فى الإدارة ..

ورفع العجوز عينه إلى الشاب كأنه فوجىء بتطاوله عليه ثم هدأ وقال :

– لك حق يا ابنى .. إننا فى حاجة إلى علماء .. وربما لهذا اختير مصطفى خليل رئيسا للوزراء .. إنه من العلماء ..

وقال الشاب مبتسما :

– سأطلب شايا بمناسبة الوزارة الجديدة .. موضوع جديد ورواية جديدة نتسلى بها ونحن جلوس فى المقهى ..

وقال العجوز ووجهه يعبر عن طيبته :

– لا ، تعال نزور الحسين وندعو لمصطفى خليل .. إنى مشفق عليه.. قم بنا ..

٣

قال الشاب وهو يلوى شفتيه فى سخط :

– نحن الذين نعزل أنفسنا عن العالم العربى ، لا أحد يستطيع أن يعزلنا أو حتى حاول أن يعزلنا .. وربما لم نعزل أنفسنا رسميا ولكننا قطعا عزلنا أنفسنا شعبيا ، لم يعد فى مصر مخلوق واحد يهتم بما يجرى حولنا فى البلاد العربية برغم أن ما يجرى كثير وخطير .. يا عالم ! يا هو ! إن فى لبنان حربا كاملة يسقط فيها الآلاف .. فمن يحس ؟ من يطلق صرخة أو يسكب دمعة على أبناء العرب الذين يقتلون علنا ؟ وليس لبنان وحده .. إن الأزمة بين الجزائر والمغرب تكاد تصل إلى إعلان الحرب ، فمن منا يسمع عن هذه الأزمة ؟ لعلنا فى حاجة إلى أن نذكر أنفسنا بموقع الجزائر والمغرب على الخريطة العربية .. نسينا أين الجزائر وأين المغرب ؟

وقال العجوز كأنه يسخر من الشاب :

– وأنت لا تنسى ..

وصرخ الشاب :

– حتى أنا أنسى ! كل ما حولى يفرض علىّ النسيان .. إن صحافتنا لا تتكلم عن لبنان إلا فى سطور توضع فى آخر الصفحة ، ولا تقول شيئا عن الجزائر والمغرب ، والراديو والتليفزيون وكل وسائل الإعلام

تروى الأخبار فى برود بحيث لا تثير أحدا .. إنى لا أتذكر لبنان إلا إذا فتحت محطات الإذاعة الأجنبية .. صوت أمريكا أو مونت كارلو أو لندن.. أو إذا وقعت فى يدى صحيفة أجنبية .. إن جميع محطات الإذاعة تضع أخبار لبنان فى أول النشرة وكل الصحف تضعها « مانشيت » على رأس الصفحة الأولى .. لا إكراما للبنان .. ولكن لأنها أحداث خطيرة ..

وقال العجوز فى برود :

– أحداث لبنان أحداث داخلية ، وكل بلد له أحداثه الداخلية التى يضعها فى مقدمة اهتماماته ، وأحيانا تنحصر فيها كل اهتماماته كما أصبحت كل اهتماماتنا تنحصر فى نتائج كامب ديفيد ..

وعاد الشاب يصرخ وهو يضرب فوق المائدة بقبضة يده :

– لم تعد أحداث لبنان أحداثا داخلية .. لقد تطورت إلى أحداث ترسم مستقبل العالم العربى كله .. وبصراحة .. إن ما يجرى فى لبنان حرب علنية بين سوريا وإسرائيل على أرض لبنان ..

ورفع العجوز عينيه فى وجه الشاب كأنه يلومه وقال فى هدوء:

– لا تقل هذا الكلام .. لا تصور الموضوع بأكثر من حقيقته ..

وانطلق الشاب فى حدة وعصبية :

– بل هذه هى الحقيقة .. وراجع الموضوع من أوله .. لقد كان نظام الحكم فى لبنان ينقسم بين المسيحيين والمسلمين ، وكان كل جانب يعتمد على قوة أجنبية لتحميه ضد الآخر : كان المسيحيون يعتمدون على فرنسا وأمريكا ، وكان المسلمون يعتمدون على قوى عربية .. على مصر .. وكان جمال عبدالناصر هو الذى يقاتل بجانب المسلمين عندما قامت المعارك الداخلية عام ١٩٥٨ . على حين أرسلت أمريكا قواتها إلى لبنان لحماية المسيحيين .. وبعد هزيمة مصر عام ٦٧ أصبح المسلمون فى لبنان يعتمدون على القوات الفلسطينية التى نزحت إليهم .. واشتدت الأزمة بين الجانبين .. ولم تعد أمريكا تريد أن تتدخل تدخلا مباشرا بجانب المتطرفين من التنظيمات المسيحية فحلت محلها إسرائيل .. إن بعض التنظيمات تجاهر علنا باعتمادها على إسرائيل .. وإسرائيل من مصلحتها أن تخلق حربا بين المسلمين والمسيحيين حتى تبرر

الحرب بين المسلمين واليهود .. كأن الحروب الدينية وضع طبيعى لا مفر منه .. واشتد القتال حتى،وجدت سوريا من يدعوها للتدخل .. وكان المفروض أن تعمل سوريا على إيجاد توازن بين القوى المسيحية والإسلامية .. ولكنها فشلت : حاربت بجانب المسيحيين ، ثم حاربت بجانب المسلمين .. حتى أصبحت تحارب بلا وعى .. وإسرائيل لن تترك سوريا بلا حرب ما دامت تحتل لبنان ..

وسكت الشاب وهو يبتسم ابتسامة مرة .. وقال العجوز فى دهشة :

– لمن تبتسم هذه الابتسامة ؟

وقال الشاب فى مرارة :

– للقادة السوريين .. إنهم يفترضون أن العالم كله أغبياء ! لقد أرادوا أن يغطوا أنفسهم فشكلوا ما أسموه قوات الردع .. قوات كلها سورية وملحق بها عدد من قوات رمزية تحمل أعلام دول عربية أخرى.. وكأن العالم لن يعرف حقيقة قوات الردع ، ثم يسألون الرئيس الأسد : متى يتوقف القتال ؟ فيجيب بأن الأمر متروك للحاكم الشرعى.. أى للرئيس إلياس سركيس وكأن سركيس هو الذى يحارب نفسه داخل لبنان ! ومما يثير المرارة موقف زعماء المسلمين من الأحداث كلهم صامتون ، وعندما تكلم كمال جنبلاط قتلوه ، وعندما تكلم الإمام الصدر خطفوه ، لأنهما كانا يطالبان بجلاء القوات السورية .. وسكت الباقون ولعلهم يؤيدون الاحتلال السورى ، ولكنهم يخجلون من إعلان رأيهم ..

وقال العجوز فى زهق :

– على كل حال لقد اتخذ مجلس الأمن قرارا بوقف القتال ، وربما تخرج القوات السورية من لبنان .. وقال الشاب :

– لن يتوقف القتال حتى بعد أن تخرج القوات السورية إلا إذا خرجت معها القوات الفلسطينية أيضا .. ولعلك تعلم أن القتال اشتد بعد اتفاقية كامب دافيد .. لأنها لم تنص على عودة الفلسطينيين إلى أرضهم .. أى خروجهم من لبنان .. ولكن قل لى : لماذا أنت بارد إلى هذا الحد أمام الأحداث العربية ؟

وقال العجوز مبتسما فى سخرية :

– لأنى عشت أكثر منك وتعلمت أن خير ما تواجه به مصر الأحداث العربية هو البرود .. تعال نتحدث عن مصير اتفاقية كامب ديفيد ..

وقال الشاب فى برود :

– ليس هناك جديد نتحدث عنه .. بالنسبة لمصر لم يعد هناك إلا مجرد إجراءات لتحقيق المرحلة الأولى .. وبالنسبة للضفة الغربية وغزة فلا أمل إلا بعد أن يشكل الفلسطينيون من بينهم الهيئة التى ستتولى المفاوضات ثم يتنازل الملك حسين ويتحرك .. والسلام عليكم ..

وقال العجوز وكأنه يتعلق به :

– إلى أين ؟

وقال الشاب وهو يبتعد :

– إلى مفتاح الراديو ، لأبحث عن محطة تحدثنى عما يجرى حولنا.. إنى لم أصل مثلك إلى سن البرود !

٤

قال الشاب وهو يبدو عصبيا مكفهر الوجه :

– كان يجب أن تطلب مصر وقف أو تأجيل المفاوضات التى تجرى مع إسرائيل فى واشنطن .

وقال العجوز فى دهشة :

– لماذا ؟

وقال الشاب وهو لا يزال مكفهر الوجه :

– بسبب انفجار ماسورة المياه فى ميدان عبدالمنعم رياض !

وضحك العجوز ضحكة عالية وقال :

– نكتة حلوة .. دمك خفيف ..

وقال الشاب فى سخط :

– أنا لا أنكت .. إنى أتكلم جادا ..

وقال العجوز مبتسما وكأنه يشفق على الشاب :

– إذا كنت جادا .. فما هى العلاقة بين ماسورة مياه تنفجر فى القاهرة والمفاوضات مع إسرائيل التى تجرى فى واشنطن؟

وقال الشاب وهو يلوى شفتيه فى سخط وقرف :

– علاقة مباشرة : أولا .. كيف انفجرت ماسورة المياه ؟ انفجرت لأن شركة مقاولات مصرية .. تضم عباقرة الاخصائيين والفنيين والمخططين كانت تدق خازوقا فى الشارع ، ولم تكن تعرف أن تحت الخازوق ماسورة مياه رئيسية فحطمتها وهى تدق، وغرقت القاهرة بدقة .. وهذا يعنى أن العبقرية المصرية أو على الأقل عبقرية الذين يسيطرون على العمل فى مصر لم تصل بعد إلى عهد المواسير ! لا تزال تعيش فى قرن ما قبل المواسير .. فلم تفكر فى أن يكون لديها خريطة مفصلة تبين لها كل ما تحت الأرض من مواسير وأسلاك التليفون والكهرباء حتى لا تبنى شيئا على حساب خراب شيء آخر !

وقال العجوز وهو لا يزال يبتسم برفق :

– وما دخل هذا بالمفاوضات مع إسرائيل ؟

وقال الشاب :

– إن أخطر ما يمكن أن تنتهى إليه هذه المفاوضات يفرض علينا أن ننتقل أولا إلى عهد المواسير .. إن فرحة إسرائيل الكبرى هى أنها ستقيم علاقات اقتصادية وصناعية وتجارية فى مصر .. وكانت تدرس وتعد لهذه العلاقات منذ انتصارها فى حرب ٦٧ .. واحتفظت بهذه الدراسات سرا إلى أن بدأت تعلنها أخيرا .. لقد أعلنت أن قيمة صادراتها إلى مصر فى العام الأول ستصل إلى مائة مليون دولار ، وحددت أنواع الصادرات ، وأعدت مشروعات كثيرة تتم بينها وبيننا منها : مد قناة تحمل مياه النيل إلى صحراء النقب لتزرعها ، ومنها إقامة مشروع كهربى ضخم فى سيناء غير مشروعات السياحة وغيرها ..

إن إسرائيل تدخل علينا بكل ثقلها ، وقد سبق أن قلت لى : إننا يجب أن نكون على حذر وأن نعتمد على عبقرية الخبث السياسى حتى لا نقع تحت استعمار إسرائيل الاقتصادى .. كيف نقاوم هذا الاستعمار الإسرائيلى وشركة العبقرية المصرية للمقاولات لا تعرف كيف تحمى ماسورة مياه ؟ ثم ينتهى انفجار الماسورة دون تحقيق ودون إعادة دراسة بحيث نسجل خرائط لكل ما هو تحت الأرض من مواسير

وأسلاك كما تفعل الدول التى تفهم ، ثم هناك ما هو ألعن من ذلك .. كل حياتنا الإدارية ممزقة ، نقيم مشروعات ونلغيها ، ونلغى مشروعات ونعود ونقيمها ..

وقال العجوز وقد ضاعت ابتسامته :

– وماذا تقترح ؟

وقال الشاب الساخط :

– أقترح أن نتفق مع إسرائيل على المسائل العسكرية والسياسية ، ثم نطلب تأجيل موضوع المعاملات الاقتصادية والصناعية والتجارية ست سنوات ..

وقال العجوز :

– لماذا ست سنوات ؟

وقال الشاب :

– لأننا أعددنا أنفسنا عسكريا لمعركة ٧٣ فى ست سنوات .. من ٦٧ إلى ٧٣ ، ونحن فى حاجة إلى ست سنوات مثلها لنعد أنفسنا لندخل معركة أخرى مع إسرائيل .. معركة اقتصادية وصناعية وتجارية وإدارية ..

وقال العجوز وهو يبدو كأنه يتعذب بذكرياته :

– إنك تذكرنى بأيام الإنجليز .. لم نكن نستطيع أن نتناقش معهم اقتصاديا وكنا نعتمد على خبرائهم لحل مشاكلنا وكنا نرسل أولادنا إلى الخارج ليتعلموا ويعودوا لمناقشة هؤلاء الخبراء .. والمصيبة أن إسرائيل تعتبر نفسها دولة عظمى ، كما كانت بريطانيا إلى حد أنهم أعلنوا ضمن مشروعاتهم مع مصر استعدادهم لإرسال خبراء ليعلمونا، ولعلنا نرسل إليهم أولادنا ليتعلموا عندهم !

وقال الشاب فى حدة :

– هذه مصيبة أخرى .. معنى هذا أن ليس بيننا توازن علمي واقتصادى ، وهو لا يقل أهمية عن التوازن العسكرى ..

وقال العجوز ساخرا :

– المصيبة هى مصيبة ادعاء العظمة .. العظمة الإسرائيلية ، وأهم ما يجب أن نحققه هو التوازن فى العظمة ..

وصرخ الشاب :

– إنى أتكلم جادا .. أريد أن أصل إلى حل لهذه المشكلة ، مشكلة الاستعداد لمواجهة التعامل اليومى مع إسرائيل ..

وقال العجوز وهو يحاول أن يخفف عن الشاب :

– لا حل ، وإسرائيل لن تنسحب عسكريا شبرا واحدا إلا بعد أن تضمن تحقيق التعامل اليومى مع مصر ، ثم لا تنظر فقط إلى مواقع الفشل فى مصر إن عندنا أيضا كثيرا من مواقع النجاح .. مصانع وأسواق ناجحة تثبت أننا نستطيع أن نرتفع إلى مستوى التوازن فى العظمة مع إسرائيل ..

وقفز الشاب واقفا وهو يقول :

– هل معك علبة كبريت ؟

وسأل العجوز فى دهشة :

– لماذا ؟

وقال الشاب وهو يبتعد :

– سأذهب لأبحث عن مواقع النجاح التى تقول عنها ، وأحتاج لعلبة كبريت حتى أبحث على ضوئها !

•

قال الشاب وهو ساهم كأنه يفكر فى مشروع جديد :

– بعد توقيع المعاهدة يصبح من السهل زيارة إسرائيل .. أليس كذلك .؟

وقال العجوز وهو ينفث دخان الشيشة :

– طبعا يا ولدى ..

وقال الشاب وبريق التصميم ينطلق من عينيه :

– سأسافر إلى إسرائيل .. هل تأتى معى ؟

وقال العجوز فى بساطة :

– لا ..

وقال الشاب :

– لماذا لا تأتى معى إلى إسرائيل ؟

وقال العجوز وهو يتنهد :

- لقد ذهبت إلى هناك عندما كان اسمها فلسطين ولا أستطيع أن أذهب إليها واسمها إسرائيل !

وقال الشاب :

- لقد سميت إسرائيل بحكم قرار التقسيم عام ٤٧ وأنا أعلم أنك موافق على قرار التقسيم ..

وقال العجوز فى أسى :

- قرار التقسيم ليس قائما .. كلها الآن إسرائيل !

وقال الشاب فى حيرة :

- كأنك تقول : إنك لن تذهب إلى هناك إلا بعد إقامة الدولة الفلسطينية على ما بقى للعرب من فلسطين ..

وقال العجوز بلا اكتراث :

- يجوز ..

وقال الشاب فى غيظ :

- كأنك لن تذهب أيضا إلى سيناء إلا بعد أن يرفع الخط الإسرائيلى الممتد من العريش ورأس محمد وتصبح سيناء كلها محررة ..

وقال العجوز :

- لا .. هناك فارق ، إنى أعود إلى قطعة من أرض سيناء حررتها، ولكن فلسطين لم يتحرر من أرضها شبر واحد ..

ولمعت عينا الشاب فجأة كأنه اكتشف المستحيل وقال :

- اسمع ! إذا كان من حقنا أن نزور إسرائيل بعد توقيع المعاهدة ، فلماذا لا يكون من حقنا أيضا أن نزور الجزء الباقى من سيناء الذى سيبقى تحت الاحتلال الإسرائيلى لمدة ثلاث سنوات ؟ أى أن نترك القوات الإسرائيلية فى مكانها ، ويزحف الشعب المصرى بلا سلاح ويقيم فى بقية أرضه ، مجرد حركة للاطمئنان إلى تحقيق الجلاء خلال السنوات الثلاث .. هل يمكن هذا : أن نزحف شعبيا إلى كل سيناء ؟

وقال العجوز فى برود :

- اسأل الرئيس كارتر ..

وعاد الشاب يقول فى حماس :

– إنه نفس الوضع الذى كان قائما بعد معاهدة ٣٦ مع بريطانيا: نصت المعاهدة على جلاء القوات الإنجليزية عن مصر كلها ما عدا منطقة القناة ، وأسماها حزب الوفد أيامها معاهدة الشرف والاستقلال، وكانت هناك علاقة دبلوماسية طبيعية بين مصر وبريطانيا برغم وجود الاحتلال... تماما كما تنص معاهدة كامب ديفيد .. ولكن الفارق هو أن الشعب كان يقيم فى منطقة القناة حول معسكرات الانجليز ، فيجب أن يذهب الشعب ويقيم فى شرقى سيناء حول المعسكرات والمستعمرات الإسرائيلية حتى يضمن حسن نية اليهود وإتمام الجلاء وسحب المستوطنات خلال ثلاث سنوات ..

ونظر العجوز إلى الشاب فى إعجاب ، وهز مبسم الشيشة فى الهواء كأنه يهتف له وقال :

– رائع يا ابنى ، إنه الحل الوحيد حتى نخرج من المأزق الذى وقعنا فيه ..

وقال الشاب وهو لا يزال يغلى بحماسه :

– أى مأزق ؟

وقال العجوز وهو يعيد مبسم الشيشة إلى شفتيه :

– مأزق توقيع معاهدة سلام وتبادل العلاقات الطبيعية قبل أن يتم الجلاء عن كل سيناء ، عن كل مصر .. إن وضع السفير الإسرائيلى فى القاهرة سيكون كوضع المندوب السامى البريطانى أيام زمان ، ما دام هناك جزء من الأرض لا تزال إسرائيل تحتله ..

وقال الشاب المتحمس :

– هل يمكن تحقيق ما أفكر فيه ؟ أى أن نزحف زحفا شعبيا على الجزء الذى سيبقى محتلا من سيناء ..

وقال العجوز وهو يهز رأسه فى أسى :

– لن توافق إسرائيل وستحتج بأن المناطق التى تحتلها لم تكن مناطق سكنية حتى يعود أهلها إليها ..

وصرخ الشاب وهو يدق بقدمه على الأرض :

– سنفرض عليهم ما نريد ، إننا لن نحاربهم ، ولكننا نحقق مطالب السلام الذى يتحدثون عنه : فى الحرب تزحف الجيوش وفى السلم

يزحف الشعب ، المدنيون لا المجندون .. على كل حال لقد عدلت عن فكرة زيارة إسرائيل لأتفرغ للدعوة إلى الزحف الشعبى على سيناء .

وقال العجوز فى إصرار :

– لا ، من المصلحة أن تذهب لزيارة إسرائيل ..

وقال الشاب فى دهشة :

– لماذا ؟

وقال العجوز وهو يميل إلى الشاب كأنه مصمم على إقناعه :

– أولا لتدرسهم فى بلادهم ، تراهم وتتفرج عليهم ، ثم إنى متأكد أن ألوفا من الإسرائيليين سيأتون لزيارة مصر ويجب أن يقابلهم ألوف من المصريين يزورون إسرائيل ، بل إنى أريد من أجهزة الدولة أن تعدهم واحدا واحدا وكل منهم ترسل فى مقابله واحدا مصريا إلى إسرائيل .. كذلك فى الأعمال التى تتخذ المظهر الاقتصادى : فكل شركة إسرائيلية تعمل فى مصر يجب أن تقابلها شركة مصرية فى إسرائيل ، وكل بناء تقيمه شركة إسرائيلية فى مصر أو متر من الأرض تشتريه يجب أن يقابله بناء وشبر من الأرض تملكه مصر فى إسرائيل .. يجب أن نحذر وأن نخاف تاريخ الصهيونية فى فلسطين حتى لا يعيد نفسه فى مصر ..

وقال الشاب وهو ينظر إلى بعيد كأنه يتطلع إلى المستقبل :

– إنها مسئولية كبيرة ولكنى لو ذهبت إلى إسرائيل فسيحمل جواز سفرى تأشيرة إسرائيلية فكيف أستطيع بهذا الجواز أن أدخل البلاد العربية التى لا تزال فى حرب مع إسرائيل ؟

وقال العجوز وهو يرفع مبسم الشيشة إلى شفتيه :

– لا تسألنى ، إنى لا أعرف ما يعرفون ، وكل ما أخشاه أن تتحكم إسرائيل يوما فى تومباك الشيشة ! يجب أن أحسب حساب هذا اليوم ..

نوفمبر ١٩٧٨

١

قال الشاب وهو يقلب شفتيه فى قرف ويأس :

– لقد تعودت أن أفـهم الديمقراطية فى كل يوم فـهما جديدا ، وقد وصلت إلى اليوم الذى لم أعد أفهم فيه شيئا عن الديمقراطية .. أقصد الديمقراطية التى يتحدثون عنها فى السوق السياسية لا الديمقراطية التى يكتبون عنها فى الكتب ..

وقال العجوز مبتسما فى استرخاء :

– لا تنس أن ديمقـراطيتنا تتطور تطورا سريعا فـى قفزات أشبه بـقفزات حيوان الكونجرو ! تقفز على أقدام طويلة قوية وأيد قصيرة ضعيفة !

وقال الشاب فى حيرة :

– ماذا تقصد بالأقدام الطويلة والأيدى القصيرة ؟

وقال العجوز ضاحكا :

– الأقدام الطويلة هى القـرارات التى تتخذ ، والأيدى القصـيرة هى التنظيمات التى تنفذ هذه القرارات !

وقال الشاب الحائر :

– اعمل (معروف) لا تحيرنى بفلسفتك ..

وقال العجوز وهو يربت على الشاب بنظرة حنان سياسى :

– أنا لا أتفلسف ، إنى أضع أمـامك صورة الواقع السـياسى ! لـقد بدأنا التفكير فى التنظيم الديمقراطى بعد حرب ٧٣ .. كنا قد انتهينا من ضـربة عسكرية وأصـبح من حق الناس أن تعـيش سيـاسيـا ، وبدأنا بمحاولة بناء الـديمقراطيـة من داخل الاتحاد الاشتـراكى ، ثم أعلنا عن تنظيم يقوم على تعدد المنابر ، ثم تطورنا إلى إقامة نظام تعدد الأحزاب،

وقلنا : إن الأحـزاب تمثل اليسـار والوسط واليمـين ، ثم تطور كل ذلك وأصـبـحنا نعـيش اليـوم بلا اتحـاد اشـتـراكـى ، وبلا تعـدد منابر ، وبلا تعدد أحزاب ، وبلا يسار ولا وسط ولا يمين .!

وقال الشـاب مقاطعا :

- إن الأحزاب قائمة !

وقال العجوز وهو يبتسم ساخرا :

- أبدا ، ليس هناك إلا الحزب الواحد .. الحزب الوطنى الديمقراطى .. والباقى لا يستطيع إثبات وجوده ! فـحزب العمل الاشتراكى لا يزال فى طور التأسيس . وقد أثار شفـقة رئيس الحزب الوطنى حتى إنه طلب من بعض أعضائه أن يأخذوا بيد حزب العمل وينضموا إليه ! ثم هناك حزب الأحـرار ومفـروض أنه حـزب قـديم بدأ منذ سنوات ، ولكن لم يعـد له صـوت ولم يعد يستطيع أن يصـدر جريدته حـتى إن بعض الأصدقـاء أرسلوا له برقيات تعزية !

وقال الشـاب وهو تائه فى حيرته :

- ولكنك تقول أيضـا : إنه لم يعد هناك يسـار ولا يمين ولا وسط، هذا مستحيل ، لا يمكن أن يكون الفكر السياسى قد توقف ..

وقال العجوز الهادئ :

- أنا لا أقصد الفكر السياسى ، ولكنى أقصـد التنظيمات السياسية ، والفـرق الأسـاسى بين اليـمـيـن واليـسـار والوسط هو الـفـرق بين الأيديولوجيات ، وكان التنظيم الماركسى الشـيوعى يمثل اليسار ، لأن له أيديولوجيـة خاصة ولن يكتب لهـذا التنظيم البقاء .. وتنظيم الوفـد كان يمـثل اليمـين بأيديولوجيـته الخـاصة ولم يعـد من حق هذا التنظيم أن يتنفس ، وتستطيع أن تقول : إن اليـسار يعنى رفض الواقع القائم وبناء واقع جديد ، وإن اليـمين يعنى رفض الواقع القائم والعـودة إلى القديم ، ولكن رفض الواقع أصـبح محرمـا فلم يعد هناك يسـار ولا يمين .. كله وسط .. وبعد ذلك لا يمكن أن يقـوم يمين ويسار لمجرد الاخـتلاف على شق طريق أو إقامة كوبرى ..

وقال الشـاب فى حماس كأنه يتحدى العجوز :

- إنى مؤمن بأننا نسير نحو الديمقراطية الكاملة .. كل ما هنالك أننا فى حـاجـة إلى وقت حـتى نسـتكمل التنظيمـات ونتـعود الممـارسـة الديمقراطية ..

وقال العجوز فى إشفاق :

– لن تبدأ الديمقراطية إلا إذا بدأت المعارك السياسية ..

وصرخ الشاب :

– لماذا تتمنى دائما قيام هذه المعارك ؟ إنك تعيش فى الماضى! تريد أن تخرب البلد بهذه المعارك ..

وقال العجوز وقد اتسعت ابتسامته الحنون :

– لأنك لست ديمقراطيا فإنك لا تتحمل معارك الديمقراطية .. إنها معارك نظيفة .. لا تقوم على تبادل الاتهامات ، ولكنها تقوم على اختلاف الإيمان بالقدرة على التنفيذ .. وقد أعطى رئيس الحزب الوطنى الديمقراطى مثلا بالحزب الجمهورى والحزب الديمقراطى فى أمريكا : إن بين هذين الحزبين معارك عنيفة هدفها وصول كل منهما إلى الحكم، إلى السلطة التنفيذية .. فإذا أردنا أن نحقق هذه الصورة عندنا فى مصر يجب أن تقوم معركة حزبية للوصول إلى الحكم .. وهذا يتطلب أن يكون أعضاء كل حزب مرشح لرياسة الجمهورية .. ومرشح لرياسة الوزراء .. ومرشحون للمحافظات بعد أن أصبح كل المحافظين ينتمون للحزب الوطنى .. يجب أن تكون لدى كل حزب حكومة ظل على استعداد لتولى الحكم فورا بمجرد انتصار الحزب فى الانتخابات .. هذه هى صورة الديمقراطية الكاملة ، فهل تجد لهذه الصورة أثرا فى مصر؟

وقال الشاب فى تأييد :

– حتى لو وجدت هذه الصورة فهناك إجماع شعبى على شخص الرئيس ..

وقال العجوز وهو يهز رأسه موافقا :

– هذا صحيح .. وسيبقى هذا الإجماع حتى لو كان نتيجة اختيار .. أى نتيجة معركة سياسية بين الأحزاب المتعددة .. المهم أن تبدأ هذه المعارك حتى تبدأ الديمقراطية ..

وقال الشاب وقد هدأ وابتسم :

– أنت تعرف موقفى إذا بدأت مثل هذه المعارك .. فما هو موقفك أنت ؟

وقال العجوز ضاحكا :

– كما هى العادة .. وكما عرفتنى ، أجلس فى المقهى وأدخن الشيشة وأتفرج ، أنا دائما من حزب المتفرجين !

٢

قال الشاب وهو يطوى صفحات الجريدة اليومية :

– يقولون : إن القاعدة فى جميع الأعمال ستكون تحديد المواعيد ، كل مشروع يحدد له موعد للانتهاء منه ، وهذا ما نحتاج إليه فعلا بعد أن تعودنا أن نعيش فى مشروعات لا تنتهى .. حتى لو كان المشروع مجرد بناء عمارة فلا أحد يدرى متى ستتم هذه العمارة ؟ بعد سنة ، سنتين ، خمس ! إن فى الشارع المقابل عمارة مضى عليها خمس سنوات وهى لا تزال أعمدة خرسانية ، ثم توقف العمل فيها !

وقال العجوز فى هدوء :

– المهم أن نبدأ من فوق ..

وقال الشاب متسائلا :

– ماذا تقصد ؟

وقال العجوز :

– اقصد أن التوقيت الزمنى أصبح يحتسب ضمن رأس المال : أى كل يوم يمر يساوى كذا ألف جنيه : فإما أن تكون استفدت من هذا ألف جنيه ، وإما أن يعتبر هذا اليوم خسارة فى رأس المال ، وهذا مالا يحسب حسابه فى معظم تحركات الدولة حتى التحركات السياسية والإدارية ..

وقال الشاب :

– ما لنا والسياسة ؟ إننا نتكلم عن المشروعات الإنتاجية والعمرانية ..

وقال العجوز وهو يبتسم كأنه يشفق على الشاب من جهله :

– إن السياسة أيضا هى مشروعات إنتاجية وعمرانية : خذ مثلا مشروع تغيير الوزارة : إنه مشروع يرتبط بالإنتاج السياسى والاقتصادى ، ويجب أن يحسب فيه حساب الوقت حتى لا نحتسب الأيام خسارة فى رأسمال الدولة : أى إذا قررنا أن نغير الوزارة فيجب أن يتم التغيير فى يوم أو يومين ، ولكن الذى يحدث هو أن نعلن أن الوزارة ستتغير ثم يمر شهر وشهران وثلاثة دون أن يتم هذا التغيير! وخلال هذه الأشهر يصبح الوزراء كأنهم معلقون فى الهواء ! كل منهم لا يدرى : هل سيبقى وزيرا أو سيشمله التغيير ، والنتيجة أن تتوقف

كل أعمال الدولة ، ولعلك تذكر أنه قيل فى هذا المقهى : إن رئيس الوزراء السابق أمضى شهرا وهو لا يوقع أى قرار فى انتظار قرار إعفائه من منصبه ..

وقال الشاب وهو ينظر إلى العجوز كأنه لا يفهمه :

– لا تضع تغيير الوزارة على مستوى المشروعات العادية .. إن الوزارة هى البناء الأساسى ولا شك أن كل ما يمس هذا البناء يتطلب وقتا ..

وقال العجوز ساخرا :

– لا ، إنها طبيعة الدولة : خذ مثلا موضوع المحافظين : لقد قيل وأعلن: إنه ستجرى تغييرات وانتقالات واسعة بين السادة المحافظين ، ومر شهر ، وشهران ، وثلاثة .. ولم تتم بعد هذه الحركة ، وكانت النتيجة الطبيعية أن جميع المحافظين أصيبوا بالشلل ، كل منهم يعيش فى انتظار مصيره .. ولا يدرى : هل يحتفظ بأولاده فى عاصمة المحافظة أو يرسلهم ليتعلموا فى القاهرة ؟ والنتيجة هى الخسارة ، كل يوم يمر يعتبر جزءا معطلا من رأسمال الدولة !

وقال الشاب وكأنه يبادل العجوز السخرية منه :

– وماذا تقترح يا سيد العباقرة ؟

وقال العجوز وهو لا يزال مبتسما دون أن يغضب :

– ليس هناك اقتراح محدد ، إن كل شىء يعتمد على أسلوب العمل : فمثلا لا يعلن عن أى مشروع إلا بعد إتمام إعداده : أى أن يصحب التنفيذ الإعلان .. وهكذا نحمى الوقت ولا نخسر الأيام ولا يضيع رأسمال الدولة ..

وقال الشاب فى ثقة :

– إنى أحس أن كل شىء سيتغير .. أسلوب جديد بدأ يظهر ، أسلوب يعتمد على التحرر من شعارات الاشتراكية بعد أن قلنا : إن الاشتراكية ليست مجتمع الفقراء ..

وقال العجوز وهو يرفع مبسم الشيشة إلى شفتيه :

– إذا قلنا ـ إن الاشتراكية ليست مجتمع الفقراء ـ فيجب أن نقول أيضا : إن الرأسمالية ليست مجتمع أصحاب الملايين .. حتى نتحرر من سيطرة الفقراء وسيطرة الأغنياء .. ونعيش فى الوسط ..

وقال الشاب فى حماس :

– إننا فى انتظار مشروعات جديدة ، ويجب أن تظهر هذه المشروعات قبل أن نمل الانتظار ..

وقال العجوز وهو يزفر دخان الشيشة :

– هناك مشروع أتمناه وأعتقد أن العقلية الرسمية أصبحت تتسع له.

وقال الشاب فى لهفة :

– ما هو ..؟

وقال العجوز :

– مشروع الاعتراف بالبطالة : أى تعتبر البطالة حالة لها تنظيم يصرف للمتعطلين إعانة بطالة ، إن هذا هو الحل الوحيد لمشكلة زيادة العمالة التى تسببت فى خراب كثير من الهيئات والمصانع الإنتاجية أى بدل أن نضع المتعطلين داخل الشركة أو المصنع ونضعهم فى بيوتهم ونصرف لهم إعانة ، إن هذا النظام أصبح مطبقا فى يوغوسلافيا برغم أنها دولة اشتراكية ماركسية ..

وقال الشاب ساخرا :

– لا تنس ما حدث فى استراليا ، إن إعانة البطالة هناك تصل إلى ٨٠٪ من المرتب فكانت النتيجة أن الناس أصبحت تتعمد البطالة مكتفية بهذه الإعانة ، وكانت النتيجة أن اهتز الإنتاج الأسترالى كله حتى إن الحكومة بدأت تفكر فى خفض قيمة الإعانة حتى لا يتعود الناس على البطالة !.

وقال العجوز :

– إن أى وضع أرحم على الإنتاج من تكدس الموظفين داخل الشركات والمصانع والهيئات الحكومية وهم لا يعملون شيئا ..

وقال الشاب ضاحكا :

– هناك ما هو أخطر لو اعترفنا بالبطالة ..

وقال العجوز فى دهشة :

– ما هو ؟..

قال الشاب الضاحك :

– أن يتفرغ المتعطلون للتكدس فى الشارع السياسى ويثيروا المتاعب والمعارك ..

وقال العجوز وهو يعود إلى مبسم الشيشة :

– إن المتعطل فى الشارع أقل خطرا من الموظف المتعطل أو المتعطل

داخل المصنع ، وأنا وأنت متعطلان فى هذا الشارع السياسى ، لذلك فنحن أخف خطرا من المتعطلين داخل المكاتب السياسية .. ودعنى أتمتع بشيشة المتعطلين .

٣

قال العجوز كأنه ضاق بمناقشة الشاب :

- قلت لك : إن الفرق بين مصر وإسرائيل هو أن مصر تشترى السلام ، وإسرائيل تبيع السلام ، وكل الخلافات القائمة هى كأية خلافات بين البائع والمشترى .. خلافات حول الثمن ..

وقال الشاب فى عصبية :

- إنك تنسى أمريكا ..

وقال العجوز ساخرا :

- أمريكا هى بنك المدفوعات ، لا تستطيع أن تتصرف إلا بعد التوقيع على الشيك ، ومصر وإسرائيل لا تزالان ترفضان التوقيع ..

وقال الشاب فى قرف :

- ومتى يتم التوقيع ؟

وقال العجوز وهو يتنهد فى أسى :

- لن يتم التوقيع إلا إذا خدع أحد الطرفين الآخر أو إذا فرض التوقيع عليهما بالتهديد !

وقال الشاب :

- لا أفهمك ..

وقال العجوز فى زهق من جهل الشاب :

- يا ابنى : الصفقة لها جانبان : جانب سيناء وجانب القدس والضفة الغربية : وبالنسبة لسيناء فإسرائيل تريد خلو رجل ، وهى تبالغ فى قيمة هذا الخلو ، تريد ثمن المطارات والمستعمرات التى أقامتها، وربما تريد ثمن الأحذية التى استهلكها جنودها على أرض سيناء .. و .. و .. ! وكل هذا مفروض أن تدفعه أمريكا علاوة على ما تدفعه مصر كإعادة العلاقات الطبيعة .. وإسرائيل وحدها هى التى تستفيد وتكسب من إعادة هذه العلاقات ، وهذا الجانب يمكن أن ينتهى إلى اتفاق ، أما الجانب الآخر الخاص بالقدس والضفة فلا يمكن الوصول إلى أى اتفاق بشأنه إلا بالخديعة أو القوة ..

وقال الشاب فى دهشة ..

– لماذا ؟

وقال العجوز فى بساطة :

لأن إسرائيل لا يمكن أن تترك شبرا واحدا من أرض مدينة القدس .. إنها تعتبر القدس منذ سنوات هى العاصمة ، وكل أحلام إسرائيل الدينية والسياسية هى أن تكون عاصمتها القدس ، أما الضفة الغربية فآخر ما يمكن أن تصل إليه إسرائيل هو أن تعتبرها ولاية داخل الدولة : كنظام الولايات المتحدة الأمريكية ، لذلك فالحل الوحيد الذى يمكن أن تقبله إسرائيل هو الوصول إلى صيغة عامة فى معاهدة السلام لا تقيدها بشىء وتكون مجرد خديعة لفظية لإرضاء مصر ..

وقال الشاب فى غضب :

– وهل نقبل الوقوع فى هذه الخدعة ؟

وقال العجوز :

– إذا لم نقبل فلا يبقى إلا القوة ..

وقال الشاب فى حماس :

– تقصد الحرب ..

وقال العجوز فى هدوء :

– لا ، لا أقصد الحرب ، أقصد القوة السياسية : أى رفع درجة حرارة المفاوضة مع إسرائيل ..

وقال الشاب فى برود وكأنه خاب أمله :

– كيف ؟

وقال العجوز الهادىء !

– بأن يتساوى الموقف بين مصر وإسرائيل ، فلا يكون موقفا بين بائع ومشتر ، ولكنه موقف اثنين .. كل منهما فى حاجة إلى الآخر . أن تثبت مصر أنها ليست فى حاجة إلى السلام أكثر من حاجة إسرائيل إليه .. وأنها تستطيع أن تستغنى عن السلام إذا كانت إسرائيل تستغنى عنه : أى أن نضع إسرائيل فى مواجهة احتمال الرفض ، رفض كل شروطها .. فإذا تغيرت لهجتنا السياسية فلا شك أن لهجة إسرائيل أيضا ستتغير ..

وقال الشاب فى قرف :

– وأمريكا : كيف تستعمل القوة ؟

وقال العجوز فى استخفاف كأنه يقول كلاما لن يتحقق :
– بأن يغير كارتر لهجته السياسية .. ألا يكون مجرد رئيس بنك المدفوعات . بل بأن يهدد بوقف رصيد الطرف المتجنى .
وقال الشاب :
– وهل يمكن أن نصل بعد هذا إلى اتفاق ؟
وقال العجوز :
– لو وصلنا إلى اتفاق بجلاء إسرائيل عن القدس والضفة الغربية فسيكون أقرب إلى اتفاق مؤقت ستحاول إسرائيل بعده أن تعود إلى القدس وإلى الضفة الغربية حتى لو افتعلت حجة لمعركة حربية جديدة .
وقال الشاب فى غيظ :
– كلامك معناه أن الأجدى علينا وقف هذه المفاوضات ..
وقال العجوز من خلال ابتسامة إشفاق :
– إن المفاوضات مع إسرائيل متوقفة فعلا .. إننا فى الواقع نتفاوض مع أمريكا وحدها ..
وقال الشاب وهو ينظر إلى بعيد كأنه يبحث عن المجهول :
– لو كانت هناك وحدة عربية لاستطعنا أن نضغط بها على أمريكا ..
وقال العجوز ساخرا :
– إن الوحدة لا تحقق إلا واقعا واحدا .. وهو واقع حالة اللاحرب واللاسلم ، لأن أغلبية الدول العربية لا تحارب وليست فى حاجة إلى السلام .. وانظر إلى ما انتهى إليه الذين اجتمعوا فى بغداد .. لا حرب ولا سلم .. لا شىء سوى إقامة سوق عربية لبيع وشراء الكلام .. والسلام عليكم .. كفانا كلام ..

٤

قال الشاب فى إصرار :
– إنى مازلت مقتنعا بأننا كنا ولا نزال فى حاجة إلى وحدة الموقف العربى معنا ، كيف وصلنا إلى هذا التفتت والتباعد ؟ الله أعلم ، ومن المسئول ؟ الله أعلم ، وهل يمكن أن نعود إلى وحدة الموقف العربى ؟ .. الله أعلم ..
وقال العجوز كأنه زهق من هذا الكلام :
– يا ابنى صدقنى : إن كل ما يحدث وكل ما تسمع عنه ليس فيه

جديد ، إن الموقف العربى لم يتغير قط .. وهو بعد كامب ديفيد نفس الموقف كما كان قبل كامب ديفيد ، ربما تغيرت بعض الكلمات أو بعض المظاهر ، ولكن المواقف لا تتغير أبدا ، إن العالم العربى لا يزال يعيش ضحية التقسيم الجغرافى الذى فرضه الاستعمار القديم: أى أن انقساماتنا ليست إنقسامات سياسية ولا مذهبية ولا اجتماعية ، ولكنها انقسامات جغرافية رسمت على خريطة ..

وصرخ الشاب :

– إنك لا تستطيع أن تنتشل تفكيرك من الماضى ، كلما حلت بنا مصيبة نسبناها إلى أيام الاستعمار ! كأن الإمبراطورية البريطانية أو الفرنسية لا تزال تحكمنا ! وكأن العساكر الإنجليز لا يزالون فى شوارع القاهرة ! أفق يا سيدنا وعش الحاضر وتخلص من الماضى.

وقال العجوز مبتسما فى حنان سياسى :

– كن هادئا يا ابنى ، الامبراطوريات انتهت ولكننا نعيش فيما تركته لنا ، وتعال نتذكر : لقد كانت الوحدة العربية قبل الاستعمار البريطانى هى وحدة الاستسلام للحكم التركى ، لإمبراطورية آل عثمان ، ولم يكن لهذه الوحدة مظهر إلا مظهر الدين الإسلامى ، وبعدها جاءت الإمبراطورية البريطانية التى خشيت هذه الوحدة العربية ، وأعلنت مبدأ فرق تسد ، وقد حققت التفريق عن طريق التقسيم الجغرافى بحيث تضمن عدم التضامن بين أى قسم وآخر وانقسم العرب إلى عرب آسيا وعرب أفريقيا .. أو ما يسمى الكتلة الشرقية والكتلة الغربية ، وأقامت فى كل كتلة منطقة عازلة بين الدول العربية بعضها وبعض .

ففى الكتلة الشرقية كانت العراق والأردن وسوريا تمثل الخصم الذى يواجه مصر والسودان بالإضافة إلى دول المغرب ، وقامت الدولة السعودية ومعها فلسطين ولبنان لتكون مناطق عازلة بين الشرق والغرب ، كما أنها مناطق عازلة بين عرب آسيا بعضهم وبعض ، وقامت الدولة الليبية كمنطقة عازلة بين دول عرب أفريقيا : أى تعزل مصر والسودان عن بقية دول المغرب، هذا التقسيم الجغرافى الذى ينعكس سياسيا لا يزال قائما حتى اليوم . وزادت عليه إقامة دولة إسرائيل لتكون القوة الضاربة فى المنطقة بعد إنسحاب القوات الاستعمارية أى قوات بريطانيا وفرنسا ..

وقال الشاب معترضا :

– لقد كنا نسمع أن الوحدة بين الملوك العرب كانت أقوى من الوحدة على يد رؤساء الجمهوريات ،كان الملوك يحققون الوحدة فعلا.

وقال العجوز مبتسما فى سخرية :

– أبدا ، كان الملوك يحارب بعضهم بعضا : والملك سعود استولى على مملكة الهاشميين ، والعلاقة بين ملك العراق وملك مصر لم تكن أحسن من العلاقة رئيس جمهورية العراق ورئيس جمهورية مصر ، ولم يستطع الملوك أن يجعلوا من العراق وسوريا دولة واحدة كما لم يستطيعوا أن يجعلوا من مصر والسودان دولة واحدة ..

– ماذا تريد أن تقول بكل هذا الكلام ؟

وقال العجوز :

– أريد أن أقول : إنه ليس هناك جديد فى موقف الدول العربية بعضها من بعض .. إنها مواقف قديمة مستمرة تتردد هى نفسها بين كل حين وآخر .. نفس المواقف التى فرضها الوضع الاستعمارى ..

وصاح الشاب :

– ليس هناك اليوم استعمار ..

وقال العجوز فى هدوء :

– هناك العقلية الاستعمارية ، عقلية السيطرة الدولية : كالعقلية الأمريكية أو الروسية ..

وقال الشاب فى عصبية :

– ما دخل العقلية الأمريكية فيما حدث ؟ .. إن السعودية والكويت اتخذتا موقفا ضد اتفاقية كامب ديفيد برغم أنهما تقفان نفس موقف مصر بالنسبة لأمريكا .. لا يمكن أن تكون أمريكا قد سلطت السعودية أو الكويت على مصر ..

وقال العجوز مبتسما :

– هذا صحيح .. لذلك فالخلاف بين مصر والسعودية والكويت لن يكون خطيرا ..

وقال الشاب فى دهشة :

– حتى لو وقعنا اتفاقية السلام ؟..

وقال العجوز وهو يهز رأسه بالإيجاب :

– حتى لو وقعنا ..

وتساءل الشاب :

- وهل سنوقع ؟..

وقال العجوز .

- سنوقع ..

وقال الشاب :

- ولكن إسرائيل ترفض ما تريده مصر ..

وقال العجوز :

- ولكن أمريكا توافق ..

وقال الشاب فى حيرة :

- وهل يكفى أن توافق أمريكا ؟..

وقال العجوز وهو يرفع مبسم الشيشة إلى شفتيه :

- يكفى .. أشرب كوب عرقسوس فى صحة كارتر .. ودعنى للشيشة.

ديسمبر ١٩٧٨

١

قال العجوز وبين شفتيه ابتسامة هادئة ساخرة :

– لا تندهش .. إن المفاوضات بيننا وبين إسرائيل تسير سيرا طبيعيا ..

وصرخ الشاب :

– هل من الطبيعي بعد كل ما حدث أن ترفض إسرائيل مجرد تحديد مواعيد الحكم الذاتي في فلسطين .. بعد كل هذا الكلام وبعد أن رفعت جائزة نوبل مناحم بيجين إلى مرتبة أنبياء السلام ، إنه النبي الكذاب ؟

وقال العجوز ساخرا :

– بيجين لم يكذب ، ولكنه كان يخدع ، والسياسة قد لا تحتمل الكذب ولكنها تتسع للخديعة ..

وعاد الشاب يصرخ :

– سواء كان يكذب أو يخدع فقد كنت أعتقد أن كل ذلك انتهى في كامب ديفيد وأن الاتفاقية لم توقع إلا بعد أن تناقش الطرفان ، واتفقا على ما ستنتهي إليه المفاوضات ..

وقال العجوز في هدوء :

– أبدا .. لم يصلا إلى هذه النتيجة في كامب ديفيد .. والاتفاقية نفسها لا تحدد المستقبل تحديدا قاطعا ولكنها تترك كل شيء عائما ، حتى إن أحد الأصدقاء وهو من أقرب الأصدقاء قال : إن

اتفاقـية كامب ديفيـد أشبه بجدول الكلمـات المتقاطعة .. تحـتاج إلى أن ننتظر حتى أن نصل إلى نتائجها ، وكان هذا ما يريده بيجين : أن يترك مجالا واسعا للكلمات العائمة حتى يسهل عليه خداعنا ..

وقال الشاب :

– وهل كنا نعلم أنه سيمارس معنا الخداع ..

وقال العجوز :

– طبعـا كنا نعلم أنه وكل من معـه مخادعـون .. هذا أمر طبـيعى.. لم نكن ننتظر أن ينسـحب بيجـين من الضفة الغـربية وغـزة والقدس الشـرقـية : أى أن ينـسحب من فـلسطين .. لا يمكن .. إنهم قـرروا أن تكون إسـرائـيل هى كل فلسطيـن .. وبرغم ذلك فـإن بيـجـين كـأى دبلوماسى ومـفاوض خبـيث لم يعلن هذا القرار ، ولكـنه قبل أن يوقع على كلمات عـائمة يسـتطيع من خلالها أن يـخدع وأن يمد فى خـداعه سنة أو سنتـين أو ثلاث سنوات فى مناقشـات لا تنتهى إلى أن تحـين الفرصة ليعلن أن كل فلسطين أصبحت إسرائيل !

وقال الشاب فى سخط :

– وكيف قبلنا أن نعرض أنفسنا لهذا الخداع ؟

وقال العجوز وهو ينظر إلى بعيد كأنه يكتشف الغيب :

– لأننا وضعنا أمريكا بيننا وبينه لتـتلقى الخديعة نيابة عنا : أى أن إسـرائيل لا تخدع مـصر ، ولكنهـا تخـدع أمريكا ، وبيـجين لا يخـدع السادات ولكنه يخدع كارتر ..

وقال الشاب الساخط :

– ومن أدرانا أن أمريكا ليست متفقة مع إسـرائيل على خداعنا .؟

وقال العجوز فى صوت حالم :

– إن أمـريكا هى الورقـة التى نلعـب بها ، هـى كل أوراقنا ، ونحن واثقون من أن الورقة فى يدنا : أى أن أمـريكا لن تتخلى عنا .. ولاشك أن السوابق التـاريخيـة تؤكد إحسـاسنا بالثقة : فـموقف أمـريكا معنا ساعدنا على تحقـيق اتفاقية جلاء القوات البـريطانية عام ٥٤ ، وموقف أمـريكا مـعنا حـقق جلاء إسـرائيل عن سـيناء عـام ١٩٥٦ مع قـوات بريطانيا وفرنسا ، وموقف أمريكا معنا حقق اتفاقيات فك الاشتباك بعد

عام ٧٣ ، وموقف أمريكا معنا هو الذى أجبر إسرائيل على قبول مبادرة السلام .. فلماذا لا يؤدى موقف أمريكا معنا إلى نجاح المفاوضات ؟

وقال الشاب وهو يخبط على المائدة محتجا ..

– إنك تغالى فى اعتمادك على أمريكا ! هذا عيبك .. عيب العواجيز ، يغالون فى تفكيرهم وفى إحساسهم . من أدراك أن أمريكا ستقف معك إلى الأبد ؟ لقد سبق أن تخلت أمريكا عن كثير من أصدقائها : تخلت عن أصدقائها فى فيتنام ! وتركتهم تحت أقدام الزحف الشيوعى فلماذا لا نتصور أنه يمكن أن يتركونا للزحف الإسرائيلى ؟

وقال العجوز وهو يبتلع ريقه :

– لقد تخلت أمريكا عن فيتنام بعد هزيمة عسكرية ..

وصرخ الشاب :

– ولماذا لا يتخلون عنا بعد هزيمة سياسية ؟ أن تهزم إسرائيل أمريكا سياسيا فتتخلى أمريكا عنا ..

وقال العجوز وهو يتنهد :

– هذه هى المعركة التى ننتظر اليوم نتائجها ..

وقال الشاب فى عصبية :

– أى معركة ؟

وقال العجوز :

– معركة بين بيجين وكارتر ، معركة سياسية يتوقف على نتائجها سير المفاوضات بين مصر وإسرائيل ، وأعتقد أنها معركة طويلة.

وقال الشاب ساخرا :

– ومن يكسب . إذا عشنا حتى تنتهى ؟

وقال العجوز :

– إنى أثق فى كارتر برغم السذاجة السياسية التى تبدو عليه ..

وقال الشاب ساخرا :

– وبعدها يتحقق السلام ..

وقال العجوز وفى عينيه نظرة ثائرة :

– إنى أتمنى اليوم شيئا واحدا : أتمنى أن يعلن الرئيس السادات

اعتذاره عن عدم قبول جائزة نوبل للسلام هذا العام ، لأنهم وضعوا له شريكا فيها يهدم السلام ، وليس له فى تاريخه كلمة واحدة ولا حركة واحدة كانت تدعو للسلام ! إن الجائزة التى يحملها السادات لا يستحق بيجين أن يحملها .!

وقال الشاب مبهورا بالفكرة :

– هل يمكن هذا ؟

وقال العجوز فى أسى :

– يا ابنى ، هذا كلام ، كلام شوارع !

٢

قال الشاب وهو ينظر مبتسما إلى الركن البعيد من المقهى

– إنى معجب بالزبون الأمريكى الذى يتردد على المقهى منذ أكثر من خمس سنوات ، لم يتخلف ولا يوما واحدا ..

وقال العجوز ضاحكا :

– لقد اختار لنفسه المقعد الذى كان يجلس عليه صديقنا القديم الزبون الروسى .. طيب الله ذكراه ..

وقال الشاب بسرعة :

– ولكن هناك فرقا كبيرا بينهما : إن صديقنا الأمريكى أخف دما.. وهو أكثر كرما .. إنه يدفع البقشيش بسخاء فى حين كان صديقنا القديم مشهورا بالبخل .

حتى إنه كان يطالب لنفسه بالبقشيش بدلا من أن يدفعه ! ثم إن صديقنا الأمريكى أكثر حركة ، وحركاته واضحة مكشوفة .. فى حين أن المأسوف على غيبته لم نكن نرى حركاته . كانت كلها حركات تجرى تحت مقاعدنا ونفاجأ بها .. ثم إن صديقنا الأمريكى كثير الكلام ولغته السياسية سهلة مفهومة .. صريحة .. فى حين أن صديقنا القديم – اللهم اجعل كلامنا خفيفا عليه – لم يكن أحد يفهم لغته السياسية إلا ثلاثة أو أربعة من الأباطرة .. إن اللغة الروسية كما تعلم ليست منتشرة ..

وقال العجوز وهو ينظر إلى الشاب فى إعجاب وتقدير :

- أوافقك على كل ما تقول إلا أن لغة السياسة الأمريكية لغة سهلة مفهومة .. أبدا .. إنها لغة محيرة .. تجعلك تتخبط بين الخبث والبراءة ، وبين الخير والشر .. وبين الذكاء والغباء ، وبين الصداقة والعداء ، هل سمعت ما يقال عن أحداث إيران الأخيرة ؟

وقال الشاب فى لهفة :

- ماذا يقال ؟

وقال العجوز وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :

- يقال : إن المخابرات الأمريكية اشتركت فى تمويل وتخطيط الثورة ضد الشاه ..

وصرخ الشاب :

- مستحيل !

وقال العجوز فى هدوء :

- هذا كلام يقال وينشر .. بل قيل : إن حكومة الشاه أرسلت خطابات احتجاج إلى الرئيس كارتر ، وإن كارتر يحقق مع رئيس المخابرات فى مسئوليته عن أحداث إيران ..

وعاد الشاب يصرخ :

- مستحيل ! إن الشاه صديق لأمريكا ، والرئيس كارتر كان يستقبل ابنه ولى العهد منذ أيام ، فكيف تقف أمريكا ضده وتمول الثورة عليه ؟ ما هى مصلحتها فى ذلك ؟ إن كارتر نفسه صرح أكثر من مرة بتأييده للشاه حتى إنه جعل الاتحاد السوفيتى يهدد بعظائم الأمور إذا تدخلت أمريكا فى شئون إيران ! فكيف يقال بعد ذلك : إن المخابرات الأمريكية تمول الثورة الإيرانية ضد الشاه ؟

وقال العجوز وهو لا يزال هادئا :

- هذا هو مركز الحيرة فى السياسة الأمريكية ، الحيرة التى تجعل بعض العقول السياسية تتصور أن تصريحات أى رئيس أمريكى لا تعكس تصرفات المخابرات الأمريكية .. وقد قدرت المخابرات أن مركز الشاه ضعيف ، فقررت أن تكون الثورة عليه ثورة لحسابها حتى لا تكون ثورة لحساب السوفيت ..

وقال الشاب فى دهشة :

– هل أنت متيقن من هذا الكلام ؟
وقال العجوز مبتسما :
– قلت لك : إنه كلام الحيارى .. وقد قيل نفس الكلام عندما اشتركت السعودية والكويت ودول الخليج فى مؤتمر بغداد الذى رفض اتفاقيتى كامب ديفيد .. فهذه الدول صديقة لأمريكا ، وكان لا ينتظر أن تقف ضد مشروع اشترك فيه الرئيس الأمريكى بكل ثقله وعلق عليه مستقبل الوضع الأمريكى فى الشرق الأوسط ، ولكن المخابرات الأمريكية قدرت أن هناك معارضة لهذا المشروع ، وقررت أن تكون هذه المعارضة تحت سيطرة أصدقائها بدل أن تتركها كلها تحت سيطرة أصدقاء السوفيت .. وبذلك تخفف من آثارها ومما يمكن أن يترتب عليها من أحداث وجرائم سياسية ، وهكذا اشتركت السعودية والكويت فى مؤتمر بغداد وأصبح موقفهما هو أهم وأخطر ما انتهى إليه المؤتمر لا موقف دول الرفض ، وضاع نفوذ وسيطرة السوفيت على نتائج المؤتمر ..
وصاح الشاب :
– أنا لا أصدق هذا الكلام !
وعاد العجوز يقول فى هدوء :
– يا ابنى ، قلت لك : إن لغة السياسة الأمريكية لا تحتمل التصديق ولا التكذيب إنما تترك عقولنا فى حيرة ..
وقال الشاب فى سخط :
– وهل نعيش فى حيرة ونحن معتمدون على أمريكا منذ مبادرة السلام ..
وقال العجوز وهو يرفع مبسم الشيشة إلى شفتيه :
– قطعا .. إن كل يوم يتركنا فى حيرة .. وكل سطر يتركنا فى حيرة وكل لفظ يتركنا فى حيرة ، حيرة بين صفحات قاموس لغة السياسة الأمريكية ..
وقال الشاب فى حيرة :
– والنتيجة ؟
وقال العجوز وهو ينفث الدخان فى الهواء :

- النتيجة هى التى ستخرجنا من الحيرة عندما نصل إليها ..
وقفز الشاب واقفا والعجوز يسألة فى دهشة :
- إلى أين ؟
وقال الشاب وهو يجرى :
- إلى المكتبة الأمريكية لأراجع قاموس اللغة السياسية ..

٣

قال الشاب وشفتاه مقلوبتان فى قرف :
- بصراحة .. سواء وقعت المعاهدة أم لم توقع .. فإنى لا أستطيع أن أثق فى أى واحد ممن يتكلمون باسم إسرائيل ، كلهم كذابون ، وهو كذب له صورة خاصة ، صورة ستار يسدل على الأهداف الحقيقية لإسرائيل ، وهى الأهداف التى يشترك كل ساسة إسرائيل وكل أحزابها فى الوصول إلى تحقيقها ، وليس هناك خلاف بينهم إلا فى أساليب الوصول : خذ مثلا ديان وعزرا وايزمان ، وزيرى الخارجية والدفاع : إن كلا منهما يكره الآخر كما يقال ، وكل منهما يمثل حزبا . ولكن .. هل بينهما خلاف ؟ .. أبدا .. الخلاف هو فى الأسلوب فقط وفى لهجة الحديث : ديان قد يقول : إننا نرفض ، ووايزمان يقول : إننا نقترح التأجيل .. والاثنان متفقان فى عدم التنفيذ .. وهكذا كل ساسة إسرائيل !
وقال العجوز من خلال ابتسامة ساخرة :
- عيبنا أننا نعتبر إسرائيل دولة ، وأن رجالها رجال دولة ، ولذلك نخطىء فى أحكامنا .. لا ، إن إسرائيل ليست دولة ولكنها مذهب ، ورجالها ليسوا رجال دولة ولكنهم رجال مؤمنون بمذهب ، المذهب الصهيونى ، ولذلك فإن إسرائيل لم تحدد لنفسها حتى اليوم حدودا جغرافية ، لماذا ؟ لأن المذهب الصهيونى لم يصل بعد إلى الحدود التي حددها لنفسه ، وإسرائيل لم تحدد حتى الآن مطالبها التى ترسم بها كيانها . ولا تزال تعيش فى نظام عسكرى ، لماذا ؟ لأن المطالب الصهيونية لم تستكمل بعد ! والأعجب من ذلك أن إسرائيل لم تطالب قط حتى اليوم بالسلام ، لم يحدث قط أن طالبت إسرائيل بالسلام

برغم أنها كانت دائما الأقوى .. والقوى لو كان يريد السلام لاستطاع أن يصل إليه .. وكل الاتفاقيات التى وقعت حتى اليوم فرضت على إسرائيل فرضا .. حتى اتفاقية كامب ديفيد .. لماذا ؟ لأن السلام لا يحقق ما بقى من أهداف المذهب الصهيونى .. ولهذا يجب ألا نعامل إسرائيل على أنها دولة ولا على أنها شعب اليهود ، ولكنها جماعة عالمية كجماعات المافيا .. وبذلك يمكن الوصول إلى طرق التفاهم مع رجالها ..

وقال الشاب القرفان :

– لماذا لا نفاوض مركز الصهيونية العالمية بدلا من أن نفاوض إسرائيل ؟

وقال العجوز وهو يهز رأسه فى حسرة :

– لأنه مركز تحت الأرض ، لا يكشف عن نفسه ! جمعية سرية فى كل بلد من بلاد العالم .. قد يكون من بين أعضائها أغنى رجل فى الدولة ، أو يكون من بينهم رئيس وزراء الدولة .. أو .. أو .. إنهم أخطر من أن يكشفوا عن أنفسهم ..

وقال الشاب فى عصبية :

– على كل حال لو وقعت الاتفاقية فليس معنى ذلك أننا أصبحنا نثق فى حكام إسرائيل ، إن السلام المفروض لا يؤدى إلى الثقة ، والسلام إذا تحقق فهو سلام مفروض على إسرائيل ، وقد سبق أن قال الرئيس السادات : إن هذا الجيل لا يمكن أن يتعامل دبلوماسيا مع إسرائيل .. وهذا صحيح حتى لو بدأت العلاقات الدبلوماسية فلن تكون أبدا علاقات طبيعية ، إننا فى حاجة إلى ثلاثين سنة أخرى حتى تثبت إسرائيل أنها تستحق ثقتنا ..

وقال العجوز :

– إن إسرائيل ترفض ..

وقال الشاب فى لهفة :

– ماذا ترفض ؟

وقال العجوز فى اسى :

– ترفض أن تضع نفسها تحت الاختبار ، إنها تفرض فى المعاهدة

كل الممنوعات على مصر وحدها : ممنوع أن تتحرك القوات المصرية إلى أبعد من خمسين كيلومترا من قناة السويس ، وممنوع المقاطعة الاقتصادية ، وممنوع اتفاقية الوحدة العربية التى تهدد إسرائيل ، وممنوع .. وممنوع ! ثم ليس هناك ممنوع واحد مفروض على إسرائيل .. إنها حرة .. حرة فى إقامة المستعمرات ، وحرة فى تحريك جيوشها ، وليس هناك إلا ثلاثة كيلومترات من أرضها تقف فيها قوات الأمم المتحدة !

وقال الشاب متسائلا :

– وماذا كان يمكن أن نفرضه كممنوعات على إسرائيل ؟

وقال العجوز وهو ينظر إلى بعيد كأنه يحلم :

– كان يمكن أن نفرض فى المعاهدة شروطا جزائية : كأن ننص على أنه إذا بدأت إسرائيل بالاعتداء على أية أرض عربية تعتبر معاهدة السلام ملغاة .. أو .. إذا هربت إسرائيل بضائع أو منتجات إلى البلاد العربية عن طريق استغلال معاهدة السلام مع مصر يكون من حق مصر أن تعود إلى فرض المقاطعة الاقتصادية على إسرائيل .. أو .. أو.. هناك شروط كثيرة يمكن فرضها حتى نطمئن وحتى نستكمل الثقة فى إسرائيل .. وبعدها .. بعد عشر سنوات مثلا نعيد النظر فى المعاهدة بعد أن نكون قد وصلنا إلى منتهى الثقة أو منتهى عدم الثقة ..

وقال الشاب فى حماس :

– وهل يمكن تحقيق هذا ؟

وقال العجوز مبتسما ابتسامة ضعيفة :

– هذا ما نحاوله اليوم .. وهذا هو أساس المشكلة ..

وقال الشاب فى حماس :

– وما هو موقف أمريكا ؟!

وقال العجوز من خلال ابتسامته :

– أمريكا تعرض أن نستعيض بالثقة فيها عن الثقة فى إسرائيل: أى أن ثقتنا فى أمريكا بعد الله تكفى ..

وقال الشاب فى قرف :

– وهل تكفى ؟

وقال العجوز وهو يمد يده إلى مبسم الشيشة :
- لا تكفى الإنسان إلا ثقته فى نفسه .. ودعنى للشيشة .. إنى أرى نفسى فى الدخان ..

٤

قال الشاب ضاحكا فى سخرية :
- عجايب يا زمن ! كان المفروض فى يوم ١٧ أن توقع أمريكا معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل ، ولكنها فى نفس التاريخ أعلنت معاهدة سلام مع الصين .. صدف ..
وقال العجوز وهو يبتسم فى دهاء سياسى :
- لا ، ليست صدفة ، إنها مقصودة ، مقصود أن تعلن معاهدة السلام مع الصين فى نفس الوقت الذى كان مفروضا أن تتم فيه معاهدة سلام الشرق الأوسط ..
وقال الشاب ساخرا :
- وما الحكمة فى ذلك يا سيد العارفين ؟..
وقال العجوز فى هدوء :
- الحكمة هى تغطية فشل الرئيس كارتر ، وأنت تعلم أن كارتر كان يعتز ويتفاخر بما وصل إليه فى كامب ديفيد .. بل إن شعبيته أصبحت مرتبطة بكامب ديفيد ، واتفاقية كامب ديفيد تفرض أن توقع المعاهدة فى تاريخ أقصاه يوم ١٧ ديسمبر ، ومن قبل هذا التاريخ وكارتر يحس أن المعاهدة لن توقع ، لذلك بدأ يبذل جهدا مضاعفا .. وبعث فانس ليقوم بعملية المكوك بين مصر وإسرائيل .. وأطلق تصريحا غاضبا قال فيه : إن عدم توقيع المعاهدة فى التاريخ المحدد يعتبر سابقة خطيرة تهدد كل الاتفاقات القادمة ، وحتى أيام معدودة قبل التاريخ المحدد وكارتر لم يفقد الأمل ، ولكن الأمل ضاع ! وحمل مستر فانس الفشل وعاد به إلى واشنطن.. وكان ذلك يمكن أن يهدد شعبية كارتر ، وأن يظهره كرئيس لم يستطع أن يحتفظ بقوة الشخصية الأمريكية وترك بيجين يستهين به وبأمريكا ، وحتى يغطى كارتر هذا الفشل وحتى يحتفظ بقيمته السياسية وقوة رئاسته أخرج الورقة التى كان

يحتفظ بها وألقاها فى الشارع السياسى ، ورقة الاتفاق مع الصين على قيام العلاقات الطبيعية بين البلدين ، وهى فعلا ورقة قوية يمكن أن يكون لها تأثير كبير فى التوازن الدولى ، وقد ألقيت هذه الورقة فى نفس اليوم الذى أعلن فيه فشل فانس مع إسرائيل ..

وقال الشاب مجادلا :

- هل تقصد أنه لو كانت المعاهدة بين مصر وإسرائيل قد وقعت لما أعلن الاتفاق الأمريكى الصينى ؟

وقال العجوز وهو يهز رأسه فى وقار كأنه عليم ببواطن الأمور:

- كان الاتفاق الصينى قد أجل إعلانه أسبوعا أو أسبوعين .. فإن المسرح السياسى يحتاج إلى تعدد الفصول .. فصلا بعد فصل.. ولا يمكن عرض فصلين فى وقت واحد .. لو عرضت على جمهور المسرح السياسى اتفاقية الصين فى نفس الوقت الذى تعرض فيه اتفاقية مصر وإسرائيل لأضاعت كل منهما الأخرى ، ولما استطاع كارتر أن يتمتع مدة أطول بتصفيق الجماهير .. إنه فن المسرح السياسى ..

وقال الشاب فى دهشة :

- الغريب أن إسرائيل اعترضت على الاتفاق الصينى الأمريكى كأنه يخصها !

وقال العجوز وهو يبتسم ابتسامة سياسية :

- لها حق ، إنها تخشى أن يحدث لها ما حدث لتايوان .. إن الاتفاق ينص على أن تنسحب القوات الأمريكية من جزيرة فرموزا التى كانت كل ما بقى من الصين لقوات كاى تشيك الذى حارب ماوتسى تونج ، وعاشت الجزيرة منذ أيام الحرب الأهلية الصينية وهى تحت احتلال وحماية أمريكا ، والآن ستعود فرموزا داخل الشخصية الصينية الواحدة حتى لو لم تدخل تحت حكم صينى واحد .. وهو دليل على ما يقال عن أن أمريكا تتخلى عن أصدقائها ، وقد سبق أن تخلت عن أصدقائها فى فيتنام ، وبدأت تتخلى عن أصدقائها فى كوريا الجنوبية.. وهناك كلام يقال عن أنها يمكن أن تتخلى عن صديقها الحميم شاه إيران ، وإسرائيل أصبحت هى الأخرى تخشى أن تتخلى عنها أمريكا !

وسأل الشاب فى لهفة :

– هل تعتقد أن أمريكا ستتخلى عن إسرائيل ؟..

وقال العجوز فى هدوء كأنه سارح فى أفكاره :

– إن أمريكا تتخلى عن مواقعها لتتركها لأصحابها الشرعيين : تترك فيتنام للفيتناميين وتترك كوريا للكوريين .. و .. ولكن إسرائيل ليس لها صاحب شرعى .. إنها تمثل قوة مستوطنة .. كالمستوطنين البيض فى جنوب أفريقيا أو فى روديسيا .. فلمن تترك أمريكا إسرائيل؟.. إذا تركتها فستتركها للعرب ، وإسرائيل ترفض أن تذوب داخل الشعوب العربية كما ذاب شعب فيتنام الجنوبية فى شعب فيتنام الشمالية ، ثم لا تنس أن قوة إسرائيل قوة من داخل أمريكا نفسها .. وهى قوة كبيرة حتى مرت أيام كان العالم خلالها يتساءل : هل أمريكا تحكم إسرائيل ، أم أن إسرائيل هى التى تحكم أمريكا ؟.. ولهذا يكرر الرئيس كارتر تأكيده بأن أمريكا مسئولة عن سلامة ووجود إسرائيل.. حتى فى أشد الأزمات يكرر كارتر هذا التصريح ، وقد أرسل السيدة والدته لتعزى فى وفاة جولدا مائير ..

وقال الشاب فى قرف :

– أى لا أمل !

وقال العجوز وهو يرفع عينيه كأنه يبتهل إلى الله :

– الأمل الوحيد هو أن تخرج السياسة الأمريكية من سراديب الدبلوماسية ، وتعلن صراحة أنها مختلفة مع إسرائيل ومع مطالب إسرائيل ، وأن هذا الخلاف من شأنه أن يؤدى إلى التخلى عن مسئوليتها السياسية والاقتصادية والعسكرية عن إسرائيل .. وتطلق المعركة داخل أمريكا بين اللوبى اليهودى واللوبى الرسمى..

وقال الشاب فى لهفة :

– ومن ينتصر ؟..

وقال العجوز وهو يشد مبسم الشيشة :

– إن كارتر فى حاجة إلى أن يبرز الجانب الأقوى من الشخصية السياسية .. الجانب الذى سبق أن أبرزه ايزنهاور عام ٥٦ ، وبعدها.. قد ينتصر ..

وصاح الشاب :

– ونحن ..

وقال العجوز ضاحكا :

– نحن ندخن الشيشة !

•

قال الشاب في ثورة ساخطة :

– لا أدرى : لماذا نطالب بعقد معاهدة مع إسرائيل ؟ ما قيمة المعاهدات ؟ أيه معاهدة يمكن أن تضرب بالشلوت وتمزق ورقة ورقة وسطرا سطرا وتلقى فى الهواء ليفرح بها الأطفال ! انظر ماذا حدث لاتفاقية كامب ديفيد ؟ إنها أقرب إلى معاهدة أحيطت بكل عناصر الفخامة والحماية والتأكيد .. وقعها ثلاثة رؤساء دول بينهم رئيس الدولة العظمى .. ووقعت فى البيت الأمريكي الأبيض بين تبادل الأحضان والقبلات .. وهتف العالم كله لها .. ثم ماذا حدث ؟ لم تمض ثلاثة أشهر حتى كانت الاتفاقية فى حكم المأسوف على شبابها .. وقال كارتر فى كلمات أقرب إلى الدموع : إذا لم توقع المعاهدة التى تفرضها الاتفاقية فى التاريخ المحدد ، فهذا يهدد كل بند من بنودها ، ومضى التاريخ المحدد بلا توقيع ! بل إن بيجين بدأ فى اليوم التالى مباشرة لاتفاقية كامب ديفيد يطلق تصريحات تلغى كل بنودها ! فماذا ننتظر بعد ذلك ؟ لماذا نعيش متعلقين بأمل كاذب ؟

وقال العجوز وهو يشد مبسم الشيشة من بين شفتيه فى عصبية:

– إن المعاهدة المحترمة هى المعاهدة الصادقة فى التعبير عن النيات .. واتفاقية كامب ديفيد لم تعبر عن نيات إسرائيل ، ولكنها زورت نيات إسرائيل ، فكانت النتيجة أن انكشف التزوير بمجرد محاولة تنفيذ الاتفاقية ..

وصرخ الشاب :

– ولكننا كنا نعرف نيات إسرائيل .. وكنا نصرخ فى هذا المقهى أن إسرائيل تحاول أن تصل إلى حل منفرد .. وأنها تتنازل عن القدس ولن تترك الضفة الغربية حرة لتقوم عليها دولة فلسطينية .. و .. و .. لم نكف عن الصراخ .. فلماذا لم نحسب حساب كل هذا قبل أن نضع توقيعنا على وثيقة مزورة ؟

وقال العجوز وهو يمسح بكفه تحت عينيه كأنه يزيح دمعة :

– لأن كارتر صديقنا .. ونحن نحب أن نحتفظ بصداقته .. وهو مؤمن بما يسمى الحلول الوسط .. والواقع أن ما وصل إليه لم يكن حلولا وسطا، ولكنها كانت كلمات وسطا..أى كلمات يمكن أن تفسر على أكثر من وجه .. فوقعنا على أساس تفسيرنا .. ووقعت إسرائيل على أساس تفسيرها .. على كل حال لا تثر ولا تيأس فإن النهاية لا تزال فى يدنا ..

وصرخ الشاب وهو أعنف فى ثورته :

– لقد أصبحت أخشى دعوة السلام .. أخشى أن تقودنا هذه الدعوة إلى أن ننتهى إلى تنازلات لمجرد أن يقال عنا : إننا أصحاب دعوة السلام وإننا شعب مسالم .. إنى أطالب بأن نعلن بأننا يئسنا من السلام .. لا سلام بعد اليوم ..

وقال العجوز وهو يتطلع إلى الشاب فى إشفاق :

– إن السلام دعوة للوصول إلى واقع ، ويجب أن تستمر الدعوة حتى نصل إلى هذا الواقع ..

وقال الشاب فى عنف :

– لن نصل أبدا..

وقال العجوز فى هدوء :

– إن الوصول لا يرتبط بشخص صاحب الدعوة ولا بعمر الجيل الذى تحمل مسئولية البدء بهذه الدعوة .. إن المسيح عليه السلام لم يعش حتى يرى المسيحية وقد أصبحت واقعا تعيشه كل هذه الشعوب .. ومحمد عليه الصلاة والسلام لم يعش حتى يرى واقع الإسلام وقد خرج من الجزيرة العربية وشمل كل هذا العالم ، وكارل ماركس لم يعش حتى يرى للشيوعية أى واقع فى أى مكان.. هكذا كان نصيب كل الدعوات

وصرخ الشاب :

– لا تضللنى ! إن السلام كما أفهمه ليس دعوة ولكنه أرض ، السلام هو أن أستعيد أرضى .. وأستعيدها حرة .. أرضا حرة لشعب حر .. هذا هو السلام ..

وقال العجوز :

– وهذا ما أقصده .. الأرض هى واقع السلام .. وقد سبق أن قال

الرئيس السادات : إن الحملة الصليبية عاشت على أرضنا مائتى سنة وعادت الأرض إلينا !

وصرخ الشاب :

– هل تريدنا أن نبقى مائتى سنة حتى نصل إلى السلام ؟

وقال العجوز الهادىء :

– قد نبقى مائتى سنة أو عشر سنوات أو سنة واحدة ، البقاء هو بقاء الإصرار على الوصول إلى واقع السلام ..

وقال الشاب فى سخط :

– والإصرار كما تراه هو أن نبقى فى محادثات مع إسرائيل مع تبادل القبلات مرة وتبادل الصفعات مرة !

وقال العجوز مبتسما ابتسامة حزينة :

– هناك وسيلة أخرى :

قال الشاب فى لهفة :

– ما هى ؟

وقال العجوز وهو يشد أنفاسه كأنه يستعين بالله :

– أن نحمل أمريكا مزيدا من المسئولية بأن نعلن أننا بعد ما جرى قد فقدنا الثقة فى ساسة إسرائيل ، وأننا لهذا ننسحب من مفاوضات السلام ونكتفى بتوقيع اتفاقية هدنة مسلحة .. وهى الاتفاقية التى تربطنا الآن مع إسرائيل .. مع بقاء حالة الحرب .. وهى حالة لا نزال نعيشها إلى اليوم .. ولن نلغى حالة الحرب إلا إذا ألغيت على جميع جبهات المواجهة .. وأننا لذلك نترك أمريكا وحدها فى مفاوضات إسرائيل والوصول معها إلى واقع السلام الكلام .. وهذا ما حدث عام ٥٦ فقد تولت أمريكا وحدها والرئيس ايزنهاور وحده مفاوضة إسرائيل والوصول معها إلى الانسحاب .. ونحن فى هذه المرة لن نكتفى بالانسحاب بل نعد بأن يتحقق مع الانسحاب السلام الكامل ..

وقال الشاب فى شك :

– هل هذا يمكن ؟ هل يمكن أن نقطع اتصالاتنا بإسرائيل ونترك الهم كله على أمريكا ؟

وقال العجوز مبتسما :

- ممكن .. ما دامت أمـريكا مرتبطة بنا ومـا دامت قد اقتـنعت بأنها أصـبحت فـى حاجـة إلينا إكـثر مـن حاجـتـها إلى إسـرائيل .. وأنهـا لا تحمينا، ولكنها تحمى مصالحها من الجشع الإسرائيلى ..

وقال الشـاب :

- ولكن .. إن اعتمادنا على أمريكا قد ..

وقاطعه العجوز واقفا وقال منصـرفا :

- السلام عليكم .. دوشـتنا ..

رقم الإيداع ٩٩/١٤٥٦٦
الترقيم الدولى
I. S. B. N.
977 - 08 - 0874 - 1